





# مختصر لطائف المعارف

## فيما لمواسم العام من الوظائف

الإمام زين الدين عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي

الشهير بابن رجب

المتوفى سنة ٧٩٥هـ

اختصره

أ.د. أحمد بن عثمان المزيد

أستاذ الدراسات الإسلامية . جامعة الملك سعود






المكتبة الثانية للأسرة | ٥

مُختصَر

# لطائف المعارف

## فيما لمواسم العام من الوظائف

الإمام زين الدين عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي
الشهير بابن رجب
المتوفى سنة ٧٩٥هـ

اختصره
أ.د. أحمد بن عثمان المزيد
أستاذ الدراسات الإسلامية . جامعة الملك سعود



مدار الوطن للنشر





**الطبعة الثالثة عشرة**

**١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م**




المملكة العربية السعودية – الرياض
ص.ب ٢٤٥٧٦٠ الرمز البريدي ١١٣١٢
**المقر الرئيسي - الروضة - ت: ١١٢٣١٣٠١٨**
ت: ١١٤٧٩٢٠٤٢ (٣ خطوط) – ف: ١١٢٣٢٢٠٩٦
فرع السويدي – ت: ١١٤٢٦٧١٧٧ – ف: ١١٤٢٦٧٣٧٧
K.S.A / Riyadh 11312 P.O.Box: 245760
Rawdah / Tel.:112313018 Fax:112322096
Swaidi / Tel.:114267177 Fax:114267377
الموقع الإلكتروني | **www.madaralwatan.com**
البريد الإلكتروني | pop@madaralwatan.com
madaralwatan@hotmail.com






بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة المختصر

**الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده، أما بعد:**

فما من شك أنَّ الأسرةَ هي نواةُ كلِّ مجتمع وقلبهُ النابضُ، وأساسُ نهضتهِ وازدهارهِ أن أُحسنَ رعايتُها، أو تخلفُه وانكماشُه إن أُسيء رعايتُها.

ومن هنا توجهت كافةُ الجهودِ الرسميةِ وغيرِ الرسمية لعلاجِ مشكلاتِ الأسرةِ، وتذليلِ العقباتِ والصعابِ التي تواجهها.

وإسهامًا منا في إعدادِ أسرةٍ مؤمنةٍ متماسكةٍ قادرةٍ على مواجهةِ التحديات، كان هذا الإصدار «**المكتبة الثانية للأسرة**».

وقد دفعنا إلى المسارعةِ في إخراجِ هذا الإصدار تلقي القراءِ للمكتبةِ الأولى للأسرةِ بالرضى والقبول وذلك من خلالِ الرسائلِ الكثيرة التي وصلتنا، وازديادِ الطلبِ عليها، ورغبةِ الكثيرين من القرّاءِ والمتبرعين في الاستمرارِ على هذا النهج.

ويضم هذا الإصدار من الكتب ما يلي:

١- **مختصر «الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير.**

٢- **مختصر «الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب» لابن القيم.**

٣- **مختصر «جامع العلوم والحكم» لابن رجب.**

٤- **مختصر «صيد الخاطر» لابن الجوزي.**

٥- **مختصر «لطائف المعارف» لابن رجب.**

٦- **مختصر «كتاب الكبائر» للذهبي.**

إنَّ الهدفَ من هذا الإصدارِ والذي قبله هو تقويةُ الوازعِ الدينيِّ في نفوسِ أفرادِ الأسرةِ، وصولًا إلى تعظيمِ الله تعالَى ومحبتِهِ والسعيِّ في مرضاته واجتنابِ معاصيه.

ولا شك أن هذا الهدفَ يسهمُ في علاجِ كثيرٍ من مشكلاتنا الأسريةِ والاجتماعيةِ من كافة الجوانب: الاعتقاديةِ والتعبديةِ، أو الأمنية، أو الاجتماعية والأخلاقية، أو الاقتصادية.

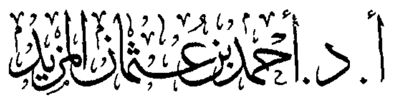
فإذا قوى الإيمانُ وصحّت عقائدُ الناسِ، اتجهوا إلى إفرادِ الله تعالى بالعبادةِ، وابتعدوا عن الشركِ كبيرِه وصغيرِه، وعن البدعِ والضلالاتِ التي لا أصل لها.

وعلى **الجانب الأمني**، نجد أنَّ أفرادَ الأسرةِ الذين امتلأت قلوبُهم بمحبةِ الله، هم أكثرُ الناسِ حفاظًا على أمنِ البلادِ والعبادِ، وأبعدُ الناسِ عن الإرهابِ والإفسادِ في الأرضِ وترويعِ الآمنين، فلا يتساهلون بدماءِ المسلمينِ وأهلِ الذمةِ من المعاهدين والمستأمنين، ولا يتجاوزون حدودَ الله ﷻ بارتكابِ الجرائمِ التي تُخلُّ بالشرفِ والمروءةِ والأمانةِ.

وعلى **الجانب الاجتماعيِّ والأخلاقيِّ**، نجد أنَّ تقويةَ الوازعِ الدينيِّ يسهمُ في إصلاحِ أوضاعِ الأسرةِ الاجتماعيةِ، فيسارعُ أفرادُها إلى تأديةِ ما عليهم من حقوقٍ، فيختفي بذلك عقوقُ الوالدين، وقطيعةُ الأرحام، ويسودُ حسنُ العشرةِ بين الزوجين مكانَ الخلافاتِ الدائمةِ، ويتعاملُ الناسُ فيما بينهم بمكارمِ الأخلاقِ، ويسارعوا إلى المشاركةِ في الأنشطةِ الاجتماعيةِ التي تحفظُ المجتمعات، مثلِ رعايةِ الأيتام والأراملِ والمعاقين والمسنين وأصحابِ الاحتياجاتِ الخاصة وغيرهم.

وعلى **الجانبِ الاقتصادي**، نجد أنه إذا قوي الإيمانُ وثبت تعظيمُ الله في النفوسِ، أثَّر ذلك في صدقِ التعاملِ بين الناسِ، وإتقانِ العملِ، والانتهاءِ عن أكلِ الربا، وتركِ الاحتكار، والكفِّ عن رفعِ أسعارِ السلعِ دون سببٍ، ورأينا التوسطَ في الإنفاقِ والاستهلاكِ والبُعد عن الإسرافِ والتبذيرِ، والمسارعة في حفظِ حقوقِ المسلمين وغيرَ المسلمين.

وفي الختام أقدمُ الشكرَ الجزيلَ للقرَّاءِ الكرام والإخوةِ المتبرعين ولكلِّ من ساهم ودعمَ وشاركَ في إنجاحِ هذا العملَ، وأسأل الله تعالى أن ينفعَ به وأن يكتبَ له القبولَ أنه خيرُ مسؤولٍ وهو حسبنا ونعمَ الوكيل.



أستاذ الدراسات الإسلامية
كلية التربية ـ جامعة الملك سعود
(dralmazyad@hotmail.com)






بسم الله الرحمن الرحيم

**وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.**

**الحمدُ لله الملكِ القهَّارِ، مكوِّرِ النَّهارِ على اللَّيْلِ، ومكوّرِ اللَّيْلِ على النَّهار.**

**وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه.**

**أما بعد؛ فقد قال الله ﷻ:** ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء:١٢].

وقال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس:٥].

فأخبر سبحانه وتعالى أنَّه عَلَّقَ معرفة السنين والحساب على تقدير القمر منازلَ. وقيل: بل على جعل الشمس ضياءً والقمر نورًا؛ لأن حسابَ السَّنة والشهر يُعرَفُ بالقمرِ، واليوم والأسبوع يُعرفُ بالشمس، وبهما يتمُّ الحسابُ. وقوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾.

يعني بالحسابِ حسابَ ما يحتاجُ إليه النَّاسُ من مصالحِ دينهم ودنياهم، كصيامِهم، وفطرِهم، وحجِّهم، وزكاتِهم، ونذورِهم، وكفَّاراتهم، وعِدَدِ نسائهم، ومُدَدِ إيلائهم، ومُدَدِ إجاراتهم، وحُلولِ آجالِ دُيونِهم، وغيرِ ذلك مما يتوقَّتُ بالشهور والسنين، وجَعَلَ في شهورِ الأهِلَّةِ وظائفَ مُوَظَّفَةً أيضًا على عباده، كالصِّيامِ، والزَّكاةِ، والحَجِّ، وجعل الله سبحانه لبعض الشهور فضلًا على بعضٍ، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦]، وقال الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة:١٩٧]، وقال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥].

كما جَعَلَ بعضَ الأيام والليالي أفضلَ من بعضٍ، وجعلَ ليلةَ القَدْرِ خيرًا من ألفِ شهرٍ، وأقسَمَ بالعَشْرِ؛ وهو عَشْرُ ذي الحِجَّةِ على الصحيح، كما سنذكُرُه في موضعه إن شاء الله تعالى. وما من هذه المواسم الفاضلةِ موسمٌ إلَّا ولله تعالى فيه وظيفةٌ من وظائفِ طاعاته، يُتقرَّبُ بها إليه، ولله فيه لطيفةٌ من لطائف نفحاتِهِ، يُصيبُ بها من يعودُ بفضله

ورحمته عليه. **فالسعيدُ من اغْتَنَمَ مواسِمَ الشهورِ والأيامِ والسَّاعاتِ، وتقرَّبَ فيها إلى مولاهُ بما فيها من وظائف الطَّاعاتِ، فعسى أن تصيبَه نَفْحَةٌ من تلك النَّفْحاتِ، فيسعد بها سعادةً يأمَنُ بعدَها من النَّارِ وما فيها من اللَّفَحَاتِ.**

وقد استخرْتُ الله تعالى في أن أجمَعَ في هذا الكتاب وظائفَ شُهورِ العام وما يختصُّ بالشهورِ ومواسِمِها مِنَ الطاعاتِ، كالصَّلاةِ، والصِّيَامِ، والذِّكْرِ، والشُّكْرِ، وبَذْلِ الطَّعَامِ، وإفشَاءِ السَّلامِ، وغيرِ ذلك مِن خِصالِ البَرَرَةِ الكرام؛ ليكونَ ذلِكَ عَوْنًا لنَفسي ولإخواني على التزوُّدِ للمَعَادِ، والتأهُّبِ للموتِ قبلَ قُدُومِهِ والاستِعدادِ. وأفوِّضُ أمري إلى الله، إنَّ الله بصيرٌ بالعبادِ، ويكون أيضًا صالحًا لمن يُريدُ الانتِصَابَ للمواعِظِ مِنَ المذكِّرينَ؛ فإنَّ مِن أفْضَلِ الأعمالِ عندَ الله لمن أرادَ بِهِ وَجْهَ اللهِ إيقاظَ الراقدين، وتنبيهَ الغافلين؛ قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

وقد جعلتُ هذه الوظائفَ المتعلِّقَةَ بالشهورِ مجالسَ، مُرتَّبَةً على ترتيب شُهورِ السَّنةِ الهِلالِيَّةِ؛ فأبدأ بالمحرَّم، وأختِمُ بذي الحجَّةِ، وأذكر في كلِّ شهرٍ ما فيه من الوظائفِ، وما لم يكن له وظيفةٌ خاصةٌ، لم أذْكُرْ فيه شيئًا. وختمْتُ ذلك كلَّه بوظائفِ فصولِ السَّنة الشمسيةِ، وهي ثلاثةُ مجالِسَ: في ذكر الرَّبيع، والشِّتاءِ، والصيفِ. وختمْتُ الكتابَ كلَّهُ بمجلسٍ في التَّوبَةِ والمبادَرَةِ بها قبلَ انقِضَاءِ العُمُرِ؛ فإنَّ التوبةَ وظيفةُ العمر كلِّهِ.

وأبدأ قبلَ ذكر وظائفِ الشهورِ بمجلسٍ في فضل التذكيرِ بالله يتضمَّنُ ذِكْرَ بعضِ ما في مجالسِ التذكير مِنَ الفَضْلِ، وسمَّيْته: «**لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**». والله تعالى المسؤول أن يجعلَهُ خالصًا لوجههِ الكريم، ومقرِّبًا إليه وإلى دارِهِ، دارِ السَّلامِ والنَّعِيمِ المقيمِ، وأنْ ينفعَنا به وعبادَهُ المؤمنين، وأن يوفِّقَنا لما يحبُّ ويَرضى، ويختِمَ لنا بخيرٍ في عافيةٍ؛ فإنَّه أكرمُ الأكرمينَ وأرحمُ الراحمين، آمين.

وهذا أوانُ الشروعِ فيما أردناهُ والبُداءةِ بالمجلسِ الأوَّلِ كما شَرَطناهُ. ولا حول ولا قوَّة إلا بالله.

▪▣▪▣▪

## مجلس: في فضل التذكير بالله تعالى ومجالس الوعظ

خَرَّجَ الإمامُ أحْمَد، والترمذيُّ، وابنُ حبَّانَ في (صحيحه) من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه[1]، قال: قلنا يا رسولَ اللهِ، ما لنا إذا كُنَّا عندَكَ رقَّتْ قُلُوبُنَا وزهِدْنَا في الدُّنْيَا، وكنَّا من أهلِ الآخرةِ، فإذا خَرَجْنَا من عندك فآنسْنَا أهلَنَا وشَممْنَا أولادَنا، أنكَرْنَا أنفسَنا؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «**لَوْ أنَّكم إذَا خَرَجْتُمْ مِنْ عِنْدِي كُنْتُمْ عَلَى حَالِكُمْ ذَلِكُمْ لَزَارَتْكُمْ المَلَائكةُ في بُيُوتِكُم، وَلَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لجَاءَ الله بِخَلْقٍ جَدِيدٍ حتى يُذْنِبُوا فيغفرَ لهم**». قلتُ: يا رسولَ اللهِ! مِمَّ خُلِقَ الخَلْقُ؟ قال: «**من الماء**». قلتُ: الجنَّةُ ما بناؤها؟ قال: «**لَبنةٌ من ذهبٍ، ولبِنةٌ من فَضَّةٍ، ومِلاطُهَا[2] المِسْكُ الأَذْفَرُ[3]، وحَصْباؤها اللؤلؤ والياقُوتُ، وتُربَتُهَا الزعفرانُ، مَنْ يدخلُها ينعَمُ لا يَبْأَسُ، ويخلُدُ لا يموتُ، لا تَبلَى ثيابُهم، ولا يَفْنَى شبابُهم**».

وكانت مجالسُ النبيِّ ﷺ مع أصحابه عامتُها مجالسَ تذكيرٍ بالله وترغيبٍ وترهيبٍ؛ إمَّا بتلاوةِ القرآن، أو بما آتاهُ اللهُ من الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، وتعليمِ ما ينفعُ في الدِّين، كما أمرَهُ الله تعالى في كتابه أن يذكِّرَ ويعظَ ويقُصَّ، وأن يدعوَ إلى سبيل ربِّه بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، وأن يبشِّر ويُنذرَ، وسمَّاهُ الله ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

والتبشيرُ والإنذارُ هو الترغيبُ والترهيبُ، فلذلك كانت تلك المجالسُ توجبُ لأصحابِه ـ كما ذكر أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه في هذا الحديثِ ـ رقَّةَ القلوبِ، والزُّهدَ في الدُّنْيَا، والرَّغْبَةَ في الآخرة.

فأمَّا رِقَّةُ القلوبِ فتنشأُ عن الذِّكرِ؛ فإنَّ ذِكْرَ اللهِ يوجِبُ خُشوعَ القلبِ وصلاحَه ورِقَّتَه، ويَذْهَبُ بالغَفْلَةِ عنه. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]. وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

(١) أحمد (٧٩٨٣)، والترمذي (٢٥٢٥)؛ وابن حبان (٧٣٨٧).
(٢) ملاطها: طينها.
(٣) الأذفر: الجيد الخالص.

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣].

**وقال العِرْبَاضُ بنُ سَارِيَة:** وعظَنا رسُولُ اللهِ ﷺ موعِظَةً بلِيغةً وجِلَتْ منها القلوبُ، وذَرَفَتْ منها العُيونُ.

وشكا رجلٌ إلى الحَسَنِ قساوةَ قلبِهِ فقال: أدْنِه مِنَ الذِّكْرِ. وقال: مجالسُ الذِّكْرِ مَحْيَاةُ العِلْمِ، وتُحدِثُ في القلبِ الخُشوعَ.

القلوبُ الميّتةُ تحيا بالذِّكْرِ، كما تحيا الأرضُ الميتةُ بالقَطْرِ.

**بِذِكْرِ اللهِ تَرْتَاحُ القُلُوبُ — ودُنْيَانَا بِـذِكْرَاهُ تَطِيـبُ**

**وأَمَّا الزُّهدُ في الدُّنيا والرَّغْبَةُ في الآخِرة،** فبما يحصُلُ في مجالسِ الذِّكْرِ من ذكرِ عُيوبِ الدُّنيا وذمِّها، والتَّزهيدِ فيها، وذكرِ فضلِ الجنَّةِ ومدحِها، والترغيبِ فيها، وذِكْرِ النَّارِ وأهوالِهَا، والترهيب منها.

**وفي مجالسِ الذِّكْرِ**[1] **تنزِلُ الرَّحمةُ**، وتغشَى السَّكينةُ، وتَحُفُّ الملائكةُ، ويذكُرُ اللهُ أهلَها فيمن عندَه، وهمُ القومُ لا يشقَى بهم جليسُهم، فربَّما رُحِمَ معهم من جَلَسَ إليهم وإن كان مذنبًا، وربَّما بَكى فيهم باكٍ مِنْ خَشيةِ اللهِ فوُهِبَ أهلُ المجلسِ كلُّهم له، فإذا انقضى مجلسُ الذكر، فأهلُهُ بعد ذلك على أقسام:

* **فمنهم:** مَنْ يرجع إلى هواهُ، **فلا يتعلَّق بشيءٍ مما سمِعَه في مجلسِ الذِّكْرِ**، ولا يزدادُ هدًى، ولا يرتدِعُ عن رَدِيّ؛ وهؤلاء شرُّ الأقسام، ويكونُ ما سمِعُوه حُجَّةً عليهم، فتزدادُ به عقوبتُهم؛ وهؤلاء الظالمون لأنفسهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [النحل:١٠٨].

* **ومنهم:** من **ينتفِعُ بما سمِعَه، وهم على أقسامٍ:** فمنهم مَنْ يردُّه مَا سَمِعَه عن المحرَّماتِ، ويُوجبُ له التزامَ الواجباتِ؛ وهؤلاء المقتصدون أصحابُ اليمين.

* **ومنهم:** من **يرتقي عن ذلك إلى التشميرِ في نوافلِ الطاعات،** والتورُّعِ عن

(١) مجالس الذكر هي مجالس الوعظ والتذكير بالله، ومجالس أهل العلم، وتلاوة القرآن وغيرها مما يذكّر بالله تعالى، ولا يقصد المؤلف مجالس الذكر الجماعي كما يفعل الصوفية لأن ذلك من البدع المنهي عنها.

دقائقِ المكروهاتِ، ويشتاق إلى اتباع آثارِ مَنْ سَلَفَ من السَّاداتِ، وهؤلاء السابقون المقرَّبون.

وفي (**صحيح مسلم**) عن حَنْظَلَة ﷺ أنه قال: يا رسولَ الله، نافَقَ حَنْظَلَةُ. قال: «**وَمَا ذَاكَ؟**» قال: نكونُ عندكَ تُذكِّرُنا بالجنَّةِ والنَّارِ حَتَّى كأنها رَأْيُ عينٍ، فإذا رَجَعنا من عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأزواجَ والضَّيْعَةَ، ونَسِينا كثيرًا. فقال: «**لو تَدُومونَ على الحال التي تقومُون بها من عندي لصافحتْكُم الملائكةُ في مجالسِكُمْ وفي طرقِكُمْ، ولكن يا حنظلةُ، سَاعَةً وَسَاعَةً**»[1] **ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**.

ومعنى هذا أنَّ اسْتِحضارَ ذِكْرِ الآخرةِ بِالقلبِ في جميعِ الأحوالِ عزيزٌ جِدًّا، ولا يقدِرُ كثيرٌ من النَّاسِ أو أكثرُهم عليه، فيُكْتَفَى منهم بِذِكْرِ ذلك أحيانًا وإن وقعتِ الغَفْلَةُ عنه في حالِ التَّلبُّس بمصالحِ الدُّنْيا المباحة، ولكنَّ المؤمنَ لا يرضَى من نفسِه بذلك، بل يلُومُ نفسَه عليه ويحزُنُه ذلكَ من نفسِه.

وقِسمٌ آخرُ يستمرُّون على استِحضارِ حالِ مجلسِ سماعِ الذِّكْرِ، فَلَا يزال تَذَكُّرُ ذلك بقلوبهم ملازمًا لهم، وهؤلاء على قسمين:

* **أحدُهما**: من يشغَلُهُ ذلك عن مَصَالحِ دُنياهُ المباحةِ، فينقطِعُ عن الخَلْقِ، فلا يَقْوَى على مُخَالطتِهم، ولا القيام بوفاءِ حقوقِهم.

* **والثاني**: مَنْ يستحضِرُ ذكرَ الله وعَظَمَتَهُ وثوابَهُ وعِقَابَهُ بقلبه، ويدخُلُ ببدَنِهِ في مصالحِ دُنياهُ من اكتسابِ الحلالِ والقيامِ على العيالِ، ويُخَالِطُ الخَلقَ فيما يُوصِلُ إليهم به النفْعَ مِمَّا هو عبادةٌ من نفسه؛ كتعليم العلم، والجهاد، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكرِ، وهؤلاء أشرفُ القسمينِ، وهُم خُلفاءُ الرُّسُلِ.

وفي (**صحيح مسلم**) عن جابرٍ ﷺ، أن النَّبِيَّ ﷺ كان إِذَا خَطَبَ وذكر الساعةَ اشتدَّ غضبُهُ، وعلا صوته كأنه منذرُ جيشٍ يقول: «**صبَّحكم ومسَّاكم**»[2].

وسئلتْ عائشةُ ﷺ: كيف كان رسولُ الله ﷺ إذا خلا مع نسائِهِ؟ قالت: كان كرجلٍ من رجالكم، إلا أنَّه كان أكرَمَ النَّاسِ، وأحسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وكان ضحَّاكًا

---

(١) مسلم (٢٧٥٠).

(٢) مسلم (٨٦٧).

بسَّامًا[1]. فهذه الطبقة خلفاء الرسُلِ عامَلُوا الله تعالى بقلوبهم، وعاشروا الخَلْقَ بأبدانهم.

المواعظُ سياطٌ تُضْرَبُ بها القلوبُ، فتؤثِّرُ في القلوب كتأثير السّياطِ في البدَنِ، والضّرْبُ لا يؤثِّرُ بعدَ انقضائه كتأثيره في حالِ وجودِهِ، لكن يبقى أثرُ التألُّمِ بحسب قوتِه وضعفِه، فكلَّما قوِيَ الضَّرْبُ كانت مدَّةُ بقاءِ الألمِ أكثرَ.

كان كثيرٌ من السَّلَفِ إذا خرجوا من مجلسِ سماعِ الذِّكْرِ خرجُوا وعليهم السَّكِينةُ والوَقارُ؛ فمنهم من كان لا يستطيع أن يأكلَ طَعامًا عَقِيبَ ذلك، ومنهم مَنْ كان يعمَلُ بمقتضى ما سمِعَهُ مُدَّةً.

كان الحسنُ إذا خرج إلى النَّاس فكأنَّه رجلٌ عايَنَ الآخِرَةَ، ثم جاءَ يُخْبِرُ عنها. وكانوا إذا خرجُوا من عنده خرجُوا وهم لا يَعِدُّون الدُّنيا شيئًا. وكان سفيان الثوريّ يتعزَّى بمجالسِهِ عن الدُّنْيَا.

قال بعضُ السَّلَفِ: إنَّ العالمَ إذا لم يُرِدْ بموعظتِهِ وَجْهَ الله تعالى زَلَّتْ موعِظَتُهُ عن القلوب، كما يَزِلُّ القَطْرُ عن الصَّفا. كان يحيى بنُ معاذ يُنشِدُ في مجالسِهِ:

مــواعِظُ الــواعِظِ لــن تُقْــبلا ... حتَّـــى تَعِيهـــا نَفْـــسُه أوَّلا
يــا قَــوْمِ مَــنْ أَظْلَــمُ مِـن واعــظٍ ... خــالَفَ مــا قــد قالَــهُ في المَــلا
أَظْهَــرَ بــينَ النَّــاسِ إحــسانَهُ ... وبـــارَزَ الـــرَّحمنَ لَمَّــا خَــلَا

العالمُ الذي لا يعمَلُ بعلمِهِ مَثَلُهُ كمثَلِ المِصباحِ، يُضيءُ للنَّاسِ ويحرِقُ نفسَهُ.

ومع هذا كلِّه فلا بُدَّ للناس من الأمر بالمعروفِ والنَّهْي عن المنكر، والوعظِ والتذكير، ولو لم يعِظِ النَّاسَ إلا مَعصُومٌ مِنَ الزَّلَلِ، لم يعِظْ بعدَ رسولِ الله ﷺ أحدٌ، لأنه لا عِصْمَةَ لأحدٍ بعدَهُ.

لئن لم يَعظِ العاصِينَ مَنْ هُوَ مُـذْنِبٌ ... فَمَـنْ يعِـظِ العَاصِـينَ بَعْـدَ مُحَمَّـدِ

قال سعيدُ بنُ جُبيرٍ: لو كان المرء لا يأمرُ بالمعروفِ ولا ينهى عن المنكرِ حتى لا يكونَ فيه شيءٌ، ما أمَرَ أحدٌ بمعروفٍ ولا نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ. قال مالكٌ: وصَدَقَ، ومَن ذا الذي ليس فيه شيءٌ؟!

---

(١) مسند إسحاق بن راهويه (٣/ ١٠٠٨).

مَـــنْ ذا الَّـــذِي مـــا ســـاءَ قَـــطْ      وَمَـــنْ لَـــهُ الحُـــسْنَى فَقَـــطْ

خطب عُمَرُ بنُ عبد العزيز ـ رحمه الله ـ يومًا، فقال في موعظته: إِنِّي لأقُولُ هذه المقالَةَ وما أعلمُ عندَ أحدٍ من الذُّنوبِ أكثرَ مِمَّا أعلمُ عِنْدِي، فأستغفِرُ الله وأتوبُ إليه.

وقوله ﷺ: «**لو لَمْ تُذْنِبُوا لجاءَ اللهُ بِخَلْقٍ جديدٍ حتى يُذْنِبُوا فيغفر لهم**»[1].

وخرَّجه مسلمٌ مِنْ وجه آخر، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: «**لو لم تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بكم ثم جَاءَ بقومٍ يُذْنِبونَ ثم يَسْتغفرون فيُغْفَرُ لهم**».

والمرادُ بهذا أنَّ لله تعالى حكمةً في إلقاء الغَفْلَةِ على قلوبِ عبادِهِ أحيانًا، حتى يَقَعَ منهم بعضُ الذُّنوبِ، فإنَّه لو استمرَّتْ لهمُ اليَقظةُ التي يكونون عليها في حال سماعِ الذِّكْرِ، لما وَقَعَ منهم ذنبٌ. وفي إيقاعِهم في الذُّنوبِ أحيانًا فائدتانِ عظيمتان:

* **إحداهما**: اعترافُ المذنبين بذنوبهم وتقصِيرهم في حقِّ مولاهم، وتنكيسُ رؤوسِ عُجْبِهم، وهذا أحبُّ إلى الله من فعلِ كثيرٍ من الطاعاتِ، فإنَّ دَوامَ الطاعاتِ قد تُوجِب لصاحبها العُجْبَ.

**قال الحسنُ**: إنَّ العبدَ لَيَعمَلُ الذَّنْبَ فلا ينساهُ، ولا يزالُ متخوِّفًا منه حتى يدخُلَ الجنَّةَ.

* **الفائدة الثانية**: حُصولُ المغفرة والعفو من الله تعالى لعبده؛ فإنَّ الله تعالى يحبُّ أن يعفوَ ويغفِرَ، ومن أسمائه الغفَّارُ، والعَفُوُّ، والتَّوَّابُ، فلو عُصِمَ الخَلْقُ فلِمَنْ كانَ العَفْوُ والمغفرةُ؟

**قال يحيى بن معاذ**: لو لم يكنِ العفوُ أحبَّ الأشياء إليه لم يَبْتَلِ بالذَّنْبِ أكرَمَ الخَلْقِ عليه.

وقولُهُ ﷺ لأبي هريرةَ لَمَّا سَأله: مِمَّ خُلِقَ الخَلْقُ؟ فقال له: «**من الماء**» يدُلُّ على أن الماءَ أصلُ جميعِ المخلوقاتِ ومادَّتُها، وجميعُ المخلوقاتِ خُلِقَتْ منه.

وفي (صحيح مسلم) عن عَبْدِ الله بن عَمْرٍو، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**إِنَّ اللهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى**

---

(١) مسلم (٢٧٤٩).

الْمَاءِ»(١).

**بناء الجنة، وطينتُها، وحصباؤها، وترابها:**

وقوله ﷺ لأبي هريرةَ حين سأله عن بناءِ الجنَّةِ، فقال: «**لَبِنةٌ من ذَهَبٍ، وَلَبِنَةٌ مِن فضةٍ، ومِلاطُها المِسْكُ الأذفَرُ، وحَصْباؤها اللؤلؤ والياقوتُ، وتربتُها الزَّعفرانُ**». فهذه أربعةُ أشياءَ:

* **أحدها**: بناءُ الجنَّةِ، ويُحتملُ أنَّ المرادَ بُنيان قُصورِها ودُورِها، ويُحتملُ أن يرادَ بناءُ حائِطها وسورِها المحيطِ بها وهو أشبَهُ.

ومِمَّا يبيِّنُ أن المرادَ ببناءِ الجنَّةِ في هذه الأحاديث بناءُ سورِها المحيطِ بها ما في (الصحيحين) عن أبي موسى، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُما وما فيهما، وجنَّتان من فِضَّةٍ آنيتهُما وما فيهما**»(٢).

وذكر صفوان بن عمروٍ، عن بعض مشايخه، قال: الجنةُ مائةُ درجةٍ:

**أولها**: درجةُ فِضةٍ، وأرضُها فِضةٌ، ومساكنُها فِضَّةٌ، وترابُها المِسْكُ.

**والثَّانية**: ذَهَبٌ، وأرضُها ذَهَبٌ، وآنيتُها ذَهَبٌ، وترابُها المِسْكُ.

**والثالثة**: لؤلؤ، وأرضُها لؤلؤ، وآنيتُها لؤلؤ، وترابُها المِسْكُ، وسبعٌ وتسعون بعد ذلك ما لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ، ثم تلا: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٧].

وفي (الصحيحينِ) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**يقولُ الله عز وجل: أعددت لعبادي الصَّالحين ما لا عين رأت، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خطرَ على قلب بشرٍ**». ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾(٣).

وفي (صحيح مسلم) عن المغيرة بن شُعبة يَرْفعُه: «**سأل موسى ربَّه، قال: يا ربِّ، ما أدنى أهلِ الجنةِ منزلةً؟ قال: هو رجلٌ يجيء بعدَما أُدْخِلَ أهلُ الجنَّةِ الجَنَّةَ، فيقالُ له: ادخُلِ الجَنَّةَ، فيقولُ: يا ربِّ، كيفَ وقد أخذَ النَّاسُ منازلَهم، وأخذُوا أَخَذَاتِهم؟ فيقال**

(١) مسلم (٢٦٥٣).
(٢) البخاري (٤٨٧٨)؛ ومسلم (١٨٠).
(٣) البخاري (٣٢٤٤)؛ ومسلم (٢٨٢٤).

له: أترضى أن يكونَ لك مثلُ مُلْكِ مَلِكٍ من ملوكِ الدُّنْيَا؟ فيقولُ: رضيتُ يا ربِّ، فيقول: لكَ ذلك ومثلُهُ، ومثلُهُ ومِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فقال له في الخامسةِ: رضيتُ يا ربّ، فيقال: هذا لكَ وعشرةُ أمثالِهِ، ولك ما اشْتَهَتْ نفسُك ولذَّتْ عينُك، فيقول: رضيتُ ربِّ. قال: فأعلاهم منزِلةً؟ قال: أولئك الَّذِينَ أردْتُ، غرسْتُ كرامَتَهُم بيدي، وختمْتُ عليها، فلم تَرَ عَيْنٌ، ولم تَسمَعْ أُذُنٌ، ولم يخطرْ على قَلْبِ بشَرٍ». قال: وَمِصْدَاقُهُ في كتابِ الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(١).

* **الثاني**: مِلاطُ الجنةِ وأنَّه المِسْكُ الأذْفَرُ، والمِلاطُ: هو الطِّينُ، ويقال: الطِّينُ الذي يُبنى منه البُنيانُ. والأذْفَرُ: الخالِصُ.

ففي (الصحيحين) عن أنسٍ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**دخَلْتُ الجنَّةَ فإذَا فيها جَنَابِذُ اللؤلؤ، وإذا ترابُها المِسْكُ**»(٢). والجنابِذُ: مثلُ القِبَابِ. وقد قيل: إنَّه أرادَ بترابِها ما خالَطه الماءُ، وهو طينُها، كما في صحيح البخاري، عن أنسٍ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال في الكوثر: «طينهُ المِسْكُ الأذْفَرُ»(٣).

* **الثالث**: حَصْبَاءُ الجنَّةِ وأنَّه اللؤلؤُ والياقوتُ، والحَصْبَاءُ: الحَصَى الصِغارُ، وهو الرَّضْراضُ. وفي (المسند) عن أنس، عن النَّبيِّ ﷺ في ذكر الكوثر أن رَضْرَاضَهُ اللؤلؤ(٤). وفي روايةٍ: حَصْبَاؤه اللؤلؤ(٥). وفي الترمذي من حديثِ ابن عُمَرَ عن النَّبيِّ ﷺ: «**أنَّ مَجراهُ على الدُّرِّ والياقوتِ**»(٦).

* **الرابع**: ترابُ الجنَّةِ، وأنَّه الزَّعْفَرانُ.

وقد قيل: إن المرادَ بالتراب هاهنا تُربةُ الأرضِ التي لا ماءَ عليها. فأمَّا ما كان عليه ماءٌ فإنَّه مِسْكٌ، كما سبق. وسَبَقَ أيضًا في بعض الروايات: حشيشُها الزَّعْفَرانُ، وهو نباتُ أرضِها وترابِها.

---

(١) مسلم (١٨٩).
(٢) البخاري (٣٣٤٢)؛ ومسلم (١٦٣).
(٣) البخاري (٦٥٨١).
(٤) أحمد (١٣٠١٢).
(٥) أحمد (٧٩٨٣).
(٦) الترمذي (٣٣٦١).

وفي (صحيح مسلم) من حديث أبي سعيد أنَّ النَّبيَّ ﷺ سأل ابنَ صيَّادٍ عن تُربةِ الجَنَّةِ، فقال: دَرْمَكَةٌ بيضاءُ مِسْكٌ خالصٌ، فصدَّقه النبي ﷺ(١).

**والذي تجتمع به هذه الأحاديثُ كلُّها أنَّ تربةَ الجَنَّةِ في لونِها بيضاءُ، ومنها ما يُشْبِهُ لونَ الزَّعفرانِ في بهجته وإشراقِهِ، وريحُها ريحُ المِسْكِ الأذْفَرِ الخالِصِ، وطعمُها طَعْمُ الخبز الحُوَّارى الخالِصِ. وقد يختصُّ هذا بالأبيضِ منها، فقد اجتمعتْ لها الفضائلُ كلُّها، لا حَرَمنا الله تعالى ذلك برحمتِهِ وكرمِهِ.**

**نعيم أهل الجنة:**

**وقوله ﷺ: «من يدخُلُها يَنْعَمُ لا يبأس، ويخْلُدُ لا يموتُ، لا تَبْلَى ثيابُهم، ولا يَفْنَى شبابُهم»** إشارة إلى بقاء الجَنَّةِ وبقاءِ جميعِ ما فيها من النَّعيمِ، وأنَّ صفاتِ أهلها الكاملة من الشباب لا تتغَيَّرُ أبدًا، وملابسُهم التي عليهم من الثيابِ لَا تبلَى أبدًا، وقد دَلَّ القرآنُ على مثل هذا في مواضعَ كثيرةٍ، كقوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة:٢١].

**وقوله تعالى:** ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد:٣٥]، **وقوله تعالى:** ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء:٥٧] في مواضِعَ كثيرة. وفي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: **«من يدخُل الجَنَّةَ ينعم لا يبأس، لا تَبْلَى ثيابُه، ولا يَفنَى شبابُه»**(٢).

**وفيه أيضًا عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «إِذَا دَخَلَ أهلُ الجنَّةِ الجَنَّةَ نادَى منادٍ: إنَّ لكم أن تَنْعَمُوا فلا تَبْأَسوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تسقَمُوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبدًا ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾»(٣)** [الأعراف:٤٣]. **وفي روايةٍ لغيره زيادةُ: «وأن تَحيَوا فلا تموتوا أبدًا»**(٤).

**ذم الدنيا وفناؤها:**

**وفيها ذكرَه ﷺ في صفةِ مَن يدخل الجَنَّةِ تعريضٌ بذَمّ الدُّنيا الفانية، فإنَّه من**

(١) مسلم (٢٩٢٨).
(٢) مسلم (٢٨٣٦).
(٣) مسلم (٢٨٣٧).
(٤) أحمد (٨٠٥٩)؛ والترمذي (٣٢٤٦).

يَدْخُلها وإن نُعِّمَ فيها فإنَّه يبأسُ، ومَنْ أقامَ فيها فإنَّه يموتُ ولا يُخَلَّد، ويفنى شبابُهم، وتبلَى ثيابُهم، بل تَبْلى أجسامُهم.

وفي (القرآن) نظيرُ هذا، وهو التعريضُ بذمِّ الدُّنيا وفنَائِها، مع مدحِ الآخرةِ وذكرِ كمالِها وبقائِها، كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ (١٤) ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:١٤-١٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٤].

قال بعضُ السَّلَفِ في يوم عِيدٍ، وقد نظَرَ إلى كثرةِ النَّاسِ وزينةِ لِبَاسِهم: هل تَرَوْنَ إلَّا خِرَقًا تبلَى، أو لحمًا يأكلُهُ الدُّودُ غدًا؟

كان الإمامُ أحمدُ ﷺ يقول: يا دارُ، تخربينَ ويموتُ سُكانُك.

وقال مُطرِّف: إنَّ هذا الموتَ قد أفسَدَ على أهلِ النَّعيم نعيمَهم، فالتمِسُوا نعيمًا لا مَوْتَ فيه.

قَدْ نادَتِ الدُّنيا على نَفْسِها لو كانَ في العالَمِ مَنْ يَسْمَعُ
كَمْ واثقٍ بالعُمر أفنيتُه وجَامعٍ بَدَّدْتُ ما يَجْمَعُ

قال بعضُ السَّلَف: ما من حَبْرَةٍ[١] إلَّا يَتْبعُها عَبْرَةٌ[٢]، وما كان ضَحِكٌ في الدُّنيا إلَّا كان بعدَه بكاءٌ. من عرفَ الدُّنْيا حقَّ معرفتِها حقَرَهَا وأبغضَهَا، كما قيلَ:

أما لو بيعتِ الدُّنيا بِفَلْسٍ أَنِفْتُ لِعَاقِلٍ أنْ يَشْتَرِيها

ومَنْ عَرَفَ الآخِرَةَ وعظمتَهَا رَغِبَ فيها.

عبادَ الله، هلُمُّوا إلى دارٍ لا يموتُ سكانُها، ولا يخرَبُ بنيانُها، ولا يهرَمُ شُبَّانُها،

---

(١) حَبْرة: سرور ونعمة.

(٢) عَبرة: دمعة الحزن.

ولا يتغيَّرُ حسنُها وإحسانُها، هواؤها النَّسِيمُ، وماؤها التَّسنِيمُ، يتقَلَّبُ أهلُها في رحمةِ أرحمِ الرَّاحِمِينَ، ويتمتَّعُونَ بالنظر إلى وجههِ الكريم كلَّ حينٍ، ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس:١٠].

▪▣▪▣▪

# وظائف شهر الله المحرم

ويشتمل على مجالس:

## المجلسُ الأول: في فضل شهر الله المحرم وعَشْره الأُول

خرَّجَ مسلمٌ من حديث أبي هريرةَ ﵁، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**أفضلُ الصِّيامِ بعد شهرِ رمضانَ شهرُ اللهِ الذي تَدْعُونه المحرمَ، وأفضلُ الصَّلاةِ بعدَ الفريضةِ قيامُ الليل**»[(١)]. الكلامُ على هذا الحديثِ في فصلين: في أفضلِ التطوعِ بالصيامِ، وأفضلِ التطوعِ بالقيامِ.

▪▣▪▣▪

### الفصل الأول: في أفضل التطوع بالصِّيام

وهذا الحديثُ صريحٌ في أن أفضلَ ما تُطوِّعَ بِهِ من الصِّيام بعدَ رمضانَ صومُ شهرِ اللهِ المحرمِ، وقد يَحتملُ أن يُرادَ أنه أفضلُ شهرٍ تُطوِّعَ بصيامِه كاملًا بعدَ رمضانَ. فأمَّا بَعضُ التطوّع ببعضِ شهرٍ فقد يكونُ أفضلَ من بعضِ أيامه، كصيامِ يومِ عرفةَ، أو عشر ذي الحجة، أو ستةِ أيامٍ من شوالٍ، ونحو ذلك.

**المفاضلة بين صيام المحرم وشعبان:**

**ولكن يقال:** إنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يصومُ شهرَ شعبانَ، ولم ينقل عنه أنَّه كان يصوم المحرمَ، إنما كان يصوم عاشوراءَ. وقوله في آخر سنة: «**لئن عِشْتُ إلى قابلٍ لأصومنَّ التاسِعَ**»[(٢)] **يدُلُّ** على أنه كان لا يصومُ التاسعَ قبلَ ذلك. وقد أجاب النَّاسُ عن هذا السؤال بأجوبةٍ فيها ضَعفٌ.

والذي ظهر لي ـ والله أعلم ـ أن التطوُّعَ بالصِّيامِ نوعانِ:

* **أحدُهما:** التطوعُ المطلَقُ بالصومِ، فهذا أفضلُه المحرمُ، كما أن **أفضلَ** التطوّعِ المطلَقِ بالصَّلاةِ قيامُ الليل.

---

(١) مسلم (١١٦٣).

(٢) مسلم (١١٣٤).

* **والثاني**: ما صيامُهُ تَبَعٌ لصيامِ رمضانَ قبلَه وبعدَه، فهذا ليس من التطوُّعِ المطلقِ، بل صيامُه تبَعٌ لصيامِ رمضانَ، وهو ملتحقٌ بصيام رمضانَ، ولهذا قيل: إنَّ صيامَ ستةِ أيامٍ من شهرِ شوالٍ يلتحِقُ بصيامِ رمضانَ، ويُكتَبُ بذلك لمن صامَها معَ رمضانَ صيامُ الدَّهر فرضًا.

فهذا النوعُ من الصِّيام يلتحقُ برمضانَ، وصيامُه أفضلُ التطوُّعِ مطلقًا. فأما التطوُّع المطلَقُ فأفضلُه صيامُ الأشهرِ الحُرُم.

وأفضلُ صيامِ الأشهرِ الحُرُم صيامُ شهرِ اللهِ المحرَّمِ، ويشهدُ لهذا أنه ﷺ قال في هذا الحديث: «**وأفضَلُ الصلاةِ بعدَ المكتوبَةِ قيامُ اللَّيْلِ**»، ومرادُه: بعدَ المكتوبةِ ولواحِقها من سُننها الرَّواتِبِ، فإنَّ الرَّواتِبَ قبلَ الفرائضِ وبعدَها أفضلُ من قيامِ الليلِ عند جمهورِ العلماءِ؛ لالتحاقِها بالفرائضِ. وإنما خالَفَ في ذلك بعضُ الشافعية. فكذلك الصِّيامُ قبلَ رمضانَ وبعدَه ملتحِقٌ برمضانَ، وصيامُه أفضَلُ من صيامِ الأشهرِ الحُرُم، وأفضلُ التطوُّعِ المطلقِ بالصِّيام صيامُ المحرَّم.

وقد سمَّى النبيُّ ﷺ المحرَّمَ شهرَ اللهِ. وإضافتُه إلى الله تدُلُّ على شرفِه وَفَضْلِهِ، فإنَّ الله تَعَالى لا يضيفُ إليه إلا خواصَّ مخلوقاتِه، كما نَسَبَ محمدًا وإبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ وغيرَهم من الأنبياءِ ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ إلى عبوديتِه، ونَسَبَ إليه بيتَه وناقتَه.

ولما كان هذا الشهرُ مختصًّا بإضافتِه إلى اللهِ تعالى، وكان الصِّيامُ من بين الأعمالِ مضافًا إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّه له من بينَ الأعمالِ، ناسَبَ أن يختصَّ هذا الشهرُ المضافُ إلى اللهِ بالعملِ المضافِ إليه، المختصِّ به، وهو الصِّيامُ.

الصِّيامُ سرٌّ بين العبدِ وبين ربِّه، ولهذا يقولُ اللهُ تبارك وتعالى: «**كلُّ عملِ ابنِ آدم له إلَّا الصَّومَ فإنَّه لي وأنا أَجْزِي به، إنَّه تركَ شهوتَه وطعامَه وشرابَه من أجلي**»[1]. وفي الجنة بابُ يقال له «الرَّيَّانُ» لا يدخلُ منه إلَّا الصائمون، فإذا دخلوا أُغلِقَ فلم يدخلْ منه غيرُهم، وهو جُنَّةٌ[2] للعبد من النَّارِ كجُنَّةِ أحدِكم من القتال.

---

(١) البخاري (٧٤٩٢)؛ ومسلم (١١٥١).

(٢) جُنَّة: وقاية.

وفي المسند أن أبا أمامةَ قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «**عليك بالصَّوْمِ فإنَّه لَا عِدْلَ له**»(١)، فكان أبو أمامةَ وأهلُه يصومون، فإذا رؤي في بيتهم دُخانُ بالنَّهارِ عُلِمَ أنه قد نزل بهم ضيفٌ.

وممن سَرَدَ الصومَ عُمَرُ، وأبو طلحةَ، وعائشةُ، وغيرُهم من الصحابة، وخَلْقٌ كثيرٌ من السَّلفِ.

وممن صام الأشهرَ الحُرَمَ كلَّها ابنُ عمَرَ، والحسنُ البصريُّ وغيرُهما. قال بعضهم: إنما هو غداءٌ وعَشَاءٌ، فإن أَخَّرْتَ غَداءَك إلى عشائكَ أمسيْتَ وقد كُتِبْتَ في ديوان الصائمين.

«**للصائم فَرْحَتانِ: فَرْحَةٌ عند فِطرِهِ، وفرحةٌ عند لقاءِ ربِّه**»(٢) إذا وجد ثوابَ صيامه مدخورًا.

**مَــنْ يُــرِدْ مُلْــكَ الجِنَــانِ ... فَلْيَــذَرْ عنــهُ التَّــوانِي**
**وَلْــيَقُمْ في ظُلْمَــةِ اللَّيـــ ... ـــلِ إلى نُــورِ القُــرآنِ**
**وَلْيَــصِلْ صَــوْمًا بِــصَوْمِ ... إِنَّ هــذا العــيْشَ فــاني**
**إِنَّــما العــيْشُ جِــوارُ ... اللهِ في دارِ الأمَـــانِ**

مات عامِرُ بنُ عبدِ الله بنِ الزُّبَيرِ وهو صائمٌ ما أفطَر.

ودخلوا على أبي بكرِ بنِ أبي مريمَ وهو في النَّزْعِ، وهو صائمٌ، فعرضوا عليه ماءً ليُفطِرَ، فقال: أغربتِ الشَّمْسُ؟ قالوا: لا، فأبَى أن يُفطِرَ، ثم أَتوه بماءٍ وقد اشتدَّ نَزْعُهُ، فأومأ إليهم: أغربتِ الشمسُ؟ قالوا: نعم، فقَطَّرُوا في فيه قطرةً من ماءٍ ثم مات.

الدنيا كلُّها شهرُ صيامِ المتقين، وعيدُ فِطْرهم يومَ لقاءِ ربِّهم، ومعظمُ نهارِ الصيامِ قد ذَهَبَ، وعيدُ اللِّقاءِ قد اقترَبَ.

**وقَدْ صُمْتُ عن لذَّاتِ دَهْـرِيَ كلِّهـا ... ويــومَ لقــاكُمْ ذاكَ فِطْــرُ صِــيامي**

ولما كان الصِّيامُ سرًّا بين العبدِ وربِّه اجتهدَ المخلصون في إخفائِه بكلِّ طريقٍ، حتى لا يطَّلِعَ عليهم أحدٌ.

---

(١) أحمد (٢١٦٤٥)؛ والنسائي (٢٢٢٢).
(٢) البخاري (١٩٠٤)؛ ومسلم (١١٥١).

وعن ابن مسعود ﷺ، قال: إذا أَصْبَحَ أحدُكم صائمًا فليترجَّلْ، يعني يُسرِّحُ شَعرَه ويَدْهنه؛ وإذا تصدَّقَ بصدقةٍ عن يمينِهِ فليُخْفِها عن شمالِه، وإذا صلَّى تطوعًا فليُصلِّ داخلَ بيتِه.

اشتُهر بعضُ الصالحين بكثرة الصِّيام، فكان يقومُ يومَ الجمعة في مسجد الجامع، فيأخذُ إبريقَ الماءِ، فيضعُ بُلْبُلَتَهُ في فيه ويمتصُّها والنَّاسُ ينظرون إليه، ولا يَدْخُلُ حلقَه منه شيءٌ؛ لينفيَ عن نفسِه ما اشْتُهرَ به من الصَّومِ.

كم يسترُ الصَّادقونَ أحوالَهم وريحُ الصِّدْقِ يَنمُّ عليهم.

ولـمَّا دُفِنَ عبدُالله بنُ غالب كان يفوحُ مِن ترابِ قبرِه رائحةُ المِسْكِ، فرؤي في المنام، فسُئل عن تلك الرائحةِ التي توجدُ من قبرِه، فقال: تلكَ رائحةُ التلاوةِ والظَّمأِ.

▪▣▪▣▪

## الفصل الثاني: في فضل قيام الليل

وقد دلَّ حديثُ أبي هريرة ﷺ هذا على أنه أفضلُ الصَّلاةِ بعدَ المكتوبة.

**وقال ابنُ مسعودٍ** ﷺ: «فضلُ صلاةِ اللَّيْلِ على صلاةِ النَّهارِ، كفضلِ صَدقةِ السِّرِّ على صَدَقَةِ العَلانيةِ، وإنما فُضِّلَتْ صلاةُ الليل على صلاة النَّهارِ، لأنها أبلغُ في الإسْرارِ وأقربُ إلى الإخلاصِ.

**كان السَّلَفُ يجتهدون على إخفاء تهجُّدِهم**؛ قال الحسن: كان الرجل يكون عندَه زُوَّاره، فيقوم من الليلِ يصلِّي لا يعلَمُ به زُوَّارُه.

**وكانوا يجتهدون في الدعاء وَلَا يُسمَعُ لهم صوتٌ**. وكان الرجلُ ينام مع امرأته على وسادةٍ، فيبكي طولَ ليلته وهي لا تشعر.

ولأن صلاةَ الليلِ أشقُّ على النفوس؛ فإنَّ الليل محلُّ النَّومِ والراحةِ من التعب بالنهار؛ فتركُ النَّومِ مع ميلِ النفسِ إليه مُجاهَدَةٌ عظيمةٌ. قال بعضُهم: أفضلُ الأعمالِ ما أُكرِهَتْ عليه النُّفوسُ، ولأنَّ القراءةَ في صلاة الليلِ أقربُ إلى التَّدبُّرِ؛ فإنه تنقطِعُ الشواغلُ بالليل، ويحضرُ القلبُ، ويتواطأُ هو واللسانُ على الفهمِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:٦].

وقد مدَح الله تعالى المستيقظين بالليل لذكره ودعائِه واستغفارِه ومناجاتِه، فقال الله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦-١٧]. وقال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران:١٧]. وقال لنبيِّه ﷺ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩].

قالت عائشة ﵂ لرجلٍ: «**لا تَدَعْ قيامَ الليلِ؛ فإنَّ رسولَ الله ﷺ كان لا يَدعُهُ، وكان إذَا مَرِضَ ـ أو قالت كَسِلَ ـ صلَّى قاعدًا**»[١].

**قال بعضُ السلف**: قيامُ الليل يُهوِّنُ طولَ القيامِ يومَ القيامةِ، وإذا كان أهلُه يسبقون إلى الجنَّةِ بغيرِ حسابٍ، فقد استراح أهلُه من طولِ الموقفِ للحسابِ. وفي حديث أبي أمامةَ وبلالٍ المرفوعِ: «**عليكم بقيام اللَّيْلِ؛ فإنَّه دَأْبُ الصَّالحين قَبْلَكُم، وإنَّ قيامَ الليلِ قُرْبَةٌ إلى اللهِ تعالى، وتكفيرٌ للسيئات، ومَنْهَاةٌ عن الإثمِ، ومَطْرَدَةٌ للدَّاءِ عن الجسد**»[٢]. خرَّجَه الترمذي. ففي هذا الحديث أن قيام الليل يوجبُ صحةَ الجسدِ، ويطرُدُ عنه الدَّاء.

وكما أنَّ قيام الليل يكفِّرُ السيئات، فهو يرفعُ الدَّرجاتِ، وقد ذكرنا أنَّ أهلَه من السَّابقين إلى الجنة بغير حسابٍ.

وفي حديث المنامِ المشهور الذي خرَّجَه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ: أن الملأ الأعلى يختَصِمُون في الدَّرجاتِ والكفارات، وفيه أن الدَّرجاتِ: إطعامُ الطَّعامِ، وإفشاءُ السَّلام، والصَّلاةُ بالليلِ والنَّاسُ نيامُ[٣].

وفي حديث عبد الله بن سلام المشهور المخرَّجِ في السُّنَن: أنه أوَّلُ ما سُمِعَ النبيّ ﷺ يقولُ عند قدومه المدينةَ: «**يا أيُّها الناسُ، أطعموا الطَّعَام، وأفشُوا السَّلامَ، وصِلُوا الأرحامَ، وصَلُّوا باللَّيْلِ والنَّاسُ نيامٌ، تدخلُوا الجَنَّةَ بسلامٍ**»[٤].

---

(١) أحمد (٢٥٥٨٣)؛ وأبو داود (١٣٠٧).
(٢) الترمذي (٣٥٤٩).
(٣) أحمد (٣٤٧٤)؛ والترمذي (٣٢٣٥).
(٤) أحمد (٢٣٢٧٢)؛ والترمذي (٢٤٨٥)؛ وابن ماجه (١٣٣٤).

وفي الصحيحين أنَّ النبيَّ ﷺ، قال: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عبدُ الله - يعني ابنَ عمر - لو كان يُصلِّي من الليل**». فكان عبدُ الله لا ينام بعد ذلك من الليل إلا قليلًا.

أين رجالُ الليل، أين الحسنُ وسفيانُ وفُضيل؟

**يا رجالَ الليلِ جِدُّوا رُبَّ داعٍ لا يُرَدُّ**
**ما يقومُ اللَّيلَ إلَّا مَنْ لَهُ عَزْمٌ وجِدُّ**
**ليسَ شيءٌ كَصَلاةِ الْلَيْلِ للقَبرِ يُعَدُّ**

**قال ثابت**: كابَدْتُ قيامَ الليل عشرين سنةً، وتنعَّمتُ به عشرين سنة أخرى.

أفضلُ قيام الليلِ وسَطُه. قال النبي ﷺ: «**أفضلُ القيامِ قيامُ داودَ، كان ينامُ نِصْفَ الليلِ، ويقومُ ثلثَه، وينامُ سُدُسَه**»[١].

وكان رسول الله ﷺ إذا سمعَ الصَّارِخَ يقومُ للصَّلاةِ[٢]. والصَّارِخُ: الدِّيكُ، وهو يصيحُ وَسَطَ الليل.

**وخرَّج النسائي عن أبي ذر**، قال: سألت النبيَّ ﷺ: أيُّ الليلِ خيرٌ؟ قال: «**جوفُه**»[٣].

ما عندَ المحبِّينَ ألذُّ من أوقاتِ الخَلْوَةِ بمناجاةِ محبوبهم، هو شفاءُ قلوبهم، ونهايةُ مطلوبهم.

**كان أبو سليمان يقول**: أهلُ الليل في ليلهم ألذُّ من أهلِ اللهوِ في لهوهم، ولولا الليلُ ما أحببتُ البقاءَ في الدُّنيا.

**كان بعضُ الصالحين** يقوم الليل، فإذا كان السَّحَرُ نادى بأعلى صوته: يا أيُّها الرّكبُ المُعرِّسُون، أَكُلَّ هذا الليل ترقُدُون؟ ألا تقومون فترحَلُون؟ فإذا سمِعَ الناسُ صوتَه وثَبُوا مِنْ فُرُشِهم؛ فيُسْمَعُ من هنا باكٍ، ومن هنا داعٍ، ومن هنا تالٍ، ومن هنا متوضئٌ، فإذا طلع الفجرُ نادى بأعلى صوته: «عند الصَّباح يحْمَدُ القومُ السُّرَى».

**قال الحسن**: إنَّ العبدَ لَيُذنبُ الذنبَ فيُحرَمُ به قيامَ الليلِ.

---

(١) البخاري (١١٣١)؛ ومسلم (١١٥٩).
(٢) البخاري (١١٣٢)؛ ومسلم (٧٤١).
(٣) النسائي (٢/ ٤٧٠).

**قال بعضُ السّلفِ:** أذنبْتُ ذنبًا فحُرِمْتُ به قيامَ الليلِ ستةَ أشهرٍ.

**قيل للنبي ﷺ:** إن فلانًا نامَ حتَّى أصبحَ. فقال: «**بالَ الشيطانُ في أُذنِهِ**»[1].

**كان سرِيٌّ يقول:** رأيتُ الفوائدَ تَرِدُ في ظُلمةِ الليلِ، ماذا فاتَ مَن فاتَهُ خيرُ اللَّيلِ؟ لقد حَصَلَ أهلُ الغفْلَةِ والنَّومِ على الحِرْمَانِ والوَيْلِ.

كان النبي ﷺ يطرُقُ بابَ فاطمةَ وعليّ، ويقول: «**ألا تُصلِّيانِ؟**»[2] وفي الحديث: «**إذا استيقَظَ الرَّجُلُ وأَيْقَظَ أهلَه فَصَلّيَا رَكْعَتَينِ كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ الله كثيرًا والذَّاكراتِ**»[3].

كانت امرأةُ حَبيبٍ العَجَمِي تُوقِظُهُ بالليل وتقولُ: ذَهَبَ الليلُ وبين أيدينا طريقٌ بعيدٌ، وزادُنا قليلٌ، وقوافِلُ الصالحينَ قد سارت قُدَّامَنا ونحنُ قد بَقِينا.

**يا راقدَ اللَّيلِ كَمْ تَرْقُدُ ... قُمْ يا حَبِيبي قَدْ دَنَا المَوْعِدُ**
**وخُذْ مِنَ اللَّيْلِ وأوقاتِهِ ... وِرْدًا إذا مَا هَجَعَ الرُّقَّدُ**

▪◙▪◙▪

## المجلس الثاني: في يوم عاشوراء

يومُ عاشوراءَ له فضيلةٌ عظيمة وحُرمةٌ قديمةٌ، وصومُهُ لفضلِهِ كان معروفًا بين الأنبياءِ عليهم السلامُ، وقد صامَه نوحٌ وموسى عليهما السلام، وكان للنبي ﷺ في صيامه أربعُ حالات:

* **الحالة الأولى:** أنه كان يصومُه بمكةَ، ولا يأمر الناسَ بالصوم، ففي الصحيحين عن عائشة ﵂، قالت: «كان عاشُوراءُ يومًا تصومُه قريشٌ في الجاهليَّة، وكان النبيُّ ﷺ يصومُه، فلمَّا قَدِمَ المدينةَ صامَهُ وأَمَرَ بصيامِهِ، فلما نزلتْ فريضةُ شهرِ رمضانَ، كان رمضانُ هو الذي يصومُه، فترَكَ يومَ عاشوراءَ، فَمَنْ شاءَ صامَهُ، ومَنْ شاء أفطرَهُ»[4].

---

(١) البخاري (١١٤٤)؛ ومسلم (٧٧٤).
(٢) البخاري (١١٢٧)؛ ومسلم (٧٧٥).
(٣) أبو داود (١٤٥١)؛ وابن ماجه (١٣٣٥).
(٤) البخاري (٢٠٠٢)؛ ومسلم (١١٢٦).

* الحالة الثانية: أنَّ النبي ﷺ لَمَّا قَدِمَ المَدِينةَ ورأى صيامَ أهلِ الكتابِ لهُ وتعظيمَهم له، وكان يحبُّ موافقَتَهم فيما لم يؤمَرْ به، صامَهُ، وأمَرَ النّاسَ بصيامه، وأكَّدَ الأمْرَ بصيامه، والحثَّ عليه، حتَّى كانوا يُصَوِّمُونَه أطفالَهُم.

ففي الصحيحين عن ابن عباس، قال: قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ فوَجَدَ اليهودَ صُيَّامًا يومَ عاشوراءَ، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «**ما هذا اليومُ الذي تَصُومُونَه؟**» قالوا: هذا يومٌ عظيمٌ أنجى اللهُ فيه موسى وقومَه، وأغرَقَ فرعونَ وقومَه، فصَامَهُ مُوسى شُكْرًا، فنحنُ نصُومُهُ. فقال رسولُ الله ﷺ: «**فنحنُ أحقُّ وأولى بموسى منكم**»، فصَامَهُ رسولُ الله ﷺ، وأمَرَ بصيامِه[1].

* الحالة الثالثة: أنَّه لما فُرِضَ صيامُ شهرِ رمضانَ ترك النبيُّ ﷺ أمْرَ أصحابِهِ بصيامِ يومِ عاشوراءَ وتأكيده فيه، ففي (الصحيحين) عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «صامَ النبيُّ ﷺ عاشوراءَ وأمَرَ بصيامِهِ، فلمَّا فُرِضَ رمضانُ تركَ ذلك»[2].

وفي (الصَّحيحينِ) أيضًا عن معاويةَ، قال: سمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**هذا يومُ عاشوراءَ، ولم يَكْتُبِ اللهُ عليكم صيامَهُ، وأنا صائمٌ؛ فَمَنْ شَاءَ فَلْيَصُمْ، ومَنْ شَاءَ فَلْيُفْطِرْ**»[3].

وفي صحيح مسلم، عن أبي قتادة: أن رجلًا سأل النبيَّ ﷺ عن صيام عاشوراء، فقال: «**أحتسِبُ على الله أن يُكَفِّرَ السنةَ التي قبلَه**»[4].

* الحالة الرابعة: أنَّ النبيَّ ﷺ عَزَمَ في آخِرِ عُمره على ألَّا يَصُومَه مُفْرَدًا، بل يَضُمُّ إليه يومًا آخرَ مخالفةً لأهلِ الكتابِ في صيامِه.

ففي صحيح مسلم، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حين صامَ رسولُ الله ﷺ عاشوراء وأمَرَ بصيامه، قالوا: يا رسولَ الله! إنه يومٌ تُعظِّمُهُ اليهودُ والنَّصارَى. فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**فإذا كان العامُ المقبلُ ـ إن شاء الله ـ صُمْنَا اليومَ التاسعَ**» قال: فلم يأتِ العامُ المقبلُ حتَّى توفي رسولُ الله ﷺ.

(١) البخاري (٢٠٠٤)؛ ومسلم (١١٣٠).
(٢) البخاري (١٨٩٢)؛ ومسلم (١١٢٥).
(٣) البخاري (٢٠٠٣)؛ ومسلم (١١٢٩).
(٤) مسلم (١١٦٢).

وفي رواية له أيضًا، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لئن بَقِيتُ إلى قابلٍ لأصُومَنَّ التَّاسِعَ**»(١).

وعن عطاءٍ أنَّه سمعَ ابنَ عَبَّاسٍ يقولُ في يومِ عاشوراءَ: خالِفُوا اليهودَ، وصُومُوا التَّاسِعَ والعاشِرَ. قال الإمامُ أحمدُ: أنا أذهبُ إليه.

ورُوي عن ابن عباس أنَّه صام التَّاسِعَ والعاشِرَ، وعُلِّلَ بخشية فواتِ عاشوراء.

وممَّن رأى صيام التاسِعِ والعاشِرِ الشافعيُّ وأحمدُ وإسحاق.

وكَرِهَ أبو حنيفةَ إفرادَ العاشر وحدَه بالصَّومِ.

وكان طائفةٌ من السلَّف يَصُومون عاشوراء في السَّفَرِ؛ منهم ابنُ عباسٍ، وأبو إسحاق السَّبيعيُّ، والزُّهْرِيُّ. وقال: رمضانُ له عِدَّةٌ من أيَّامٍ أُخَرَ، وعاشوراءُ يَفوتُ. ونصَّ أحمدُ على أنَّه يُصامُ عاشوراءُ في السَّفَر.

**ومن فضائل يوم عاشوراء:**

أنه يومٌ تاب الله فيه على قوم، ففي حديثِ عليٍّ الذي خرَّجه الترمذي أنَّ النبيَّ ﷺ قال لرجل: «**إنْ كُنْتَ صائمًا شهرًا بعدَ رمضانَ فصُمِ المحرَّمَ؛ فإنَّ فيه يومًا تابَ الله فيه على قومٍ ويتوبُ فيه على آخرين**»(٢).

وقوله ﷺ: «**ويتُوبُ فيه على آخرينَ**» حَثٌّ للنَّاسِ على تجديد التوبة النصوح في يومِ عاشوراءَ، وترجِيَةٌ لِقَبولِ التوبةِ ممَّن تابَ فيه إلى الله ﷻ من ذنوبه، كما تاب فيه على مَنْ قبلَهم. وقد قال اللهُ تعالى عن آدم: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

وأَخْبَرَ عنه وعن زَوْجِه أنهما قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

اعترافُ المُذنبِ بذنبه مَع النَّدَمَ عليه توبةٌ مقبولةٌ. قال الله ﷻ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة:١٠٢]، وقال النبي ﷺ:

(١) مسلم (١١٣٤).

(٢) أحمد (١٣٢٤)؛ والترمذي (٧٤١).

«إِنَّ العَبْدَ إذا اعترَفَ بذنبه ثمَّ تابَ تابَ الله عليه»[١].

وفي دعاء الاستفتاح الذي كان النبيُّ ﷺ يستفتحُ به: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَه إِلَّا أنتَ، ظَلَمْتُ نفسِي واعْتَرَفْتُ بذَنْبِي فاغْفِرْ لي إِنَّه لا يغفرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»[٢].

وفي الدُّعاءِ الذي علَّمه النبيُّ ﷺ للصدِّيق أنْ يقولَه في صلاته: «اللهمَّ إني ظَلَمْتُ نَفْسِي ظلمًا كثيرًا ولا يغفرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ؛ فاغفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وارْحَمْنِي، إِنَّك أنتَ الغفورُ الرَّحيمُ»[٣].

وفي حديث شداد بن أوس، عن النبي ﷺ: «سيِّدُ الاستغفارِ أَنْ يقولَ العَبْدُ: اللهمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إلهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وأَنا على عهدِك وَوَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أعوذُ بكَ من شرِّ ما صنعتُ، أَبُوءُ بنعمتكَ عليَّ، وأبوءُ بِذَنْبِي، فاغْفِرْ لِي، إنَّه لا يغفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»[٤]. الاعترافُ يمحو الاقترافَ، كما قيل:

فـإنَّ اعْـتِرَافَ المـرءِ يَمْحُـو اقتِرَافَـهُ ... كـما أنَّ إنْكَـارَ الـذُّنُوبِ ذُنُـوبُ

قال بعضُ السلف: آدمُ أُخرِجَ مِنَ الجَنَّةِ بِذَنْبٍ واحِدٍ، وأنتُم تَعمَلُون الذنوبَ وتُكْثِرُون منها، وتُرِيدونَ أن تدخلوا بها الجَنَّةَ! كَمَا قِيل:

تَصِلُ الذُّنوبَ إلى الـذُّنوبِ وتَرْتَجِي ... دَرَجَ الجنـان بهـا وفـوزَ العابِـدِ
وَنَسِـيتَ أنَّ الله أخـرَجَ آدمًـا ... منهـا إلى الـدُّنيا بـذَنْبٍ واحِـدِ

العَجَبُ مِمَّن عَرَفَ ربَّه ثم عصاهُ، وعَرَفَ الشيطانَ ثم أطاعه، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وصلتْ إليكم مَعْشَرَ الأُمَّةِ رسالةٌ من أبيكُم إبراهيمَ مع نبيِّكم محمد عليهما السلامُ، قال رسولُ الله ﷺ: «رأيتُ ليلةَ أُسري بي إبراهيمَ، فقال: يا محمدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مني السَّلامَ وأخبرْهُم أنَّ الجَنَّةَ عَذبةُ الماءِ، طيبةُ التُّربةِ، وأنها قِيعانٌ[٥]، وأنَّ غِراسَها:

---

(١) البخاري (٤٠٢٥)؛ ومسلم (٢٧٧٠).
(٢) مسلم (١٧٧١).
(٣) البخاري (٨٣٤)؛ ومسلم (٢٧٠٥).
(٤) مسلم (٦٣٠٦).
(٥) قيعان: أرض مستوية مطمئنة.

سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[١].

وخَرَّجَ النسائي، والترمذي، عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ «**من قال سبحانَ الله العظيم وبحمده، غُرِسَتْ له نَخْلَةٌ في الجَنَّةِ**»[٢].

▪▣▪▣▪

## المجلس الثالث: في قدوم الحاج

في (الصحيحينِ) عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ حَجَّ هذا البيت فَلَمْ يَرْفُثْ، ولم يَفْسُقْ، رَجَعَ من ذنوبِه كيومِ وَلَدَتْه أُمُّه**»[٣].

مباني الإسلام الخمسُ؛ كلُّ واحدٍ منها يُكَفِّرُ الذنوبَ والخطايا ويَهدِمُهَا، ولا إله إلَّا الله لا تُبقي ذنبًا ولا يسبِقُها عَمَلٌ؛ و«**الصَّلَواتُ الخمسُ؛ والجُمُعَةُ إلى الجُمعةِ، ورمَضَانُ إلى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بينَهُنَّ ما اجْتُنِبتِ الكبائرُ**»[٤]؛ والصَّدَقَةُ تُطفِئُ الخطيئةَ كما يُطْفِئُ الماءُ النَّارَ»[٥]؛ والحجُّ الذي لا رَفَثَ فيه ولا فُسُوقَ، يرجِعُ صاحبُه من ذنوبِهِ كيومِ ولَدَتْه أمُّه.

وقد استنبطَ معنى هذا الحديث من القرآنِ طائفةٌ من العلماء، وتأوَّلُوا قولَ الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة:٢٠٣]، بأنَّ مَن قَضَى نُسُكَهُ ورَجَعَ منه فإنَّ آثامَه تَسْقُطُ عنه إذا اتَّقَى الله ﷻ في أداءِ نُسُكِهِ، وسواءٌ نَفَرَ في اليوم الأوَّلِ من يَوْمَي النَّفْرِ متعجِّلًا، أو تأَخَّر إلى اليوم الثاني.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ، قال: «**الحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلا الجنةُ**»[٦] وفي صحيح مسلم عنه ﷺ قال: «**الحجُّ يهدِمُ ما قبلَه**»[٧]. فالحجُّ المبرورُ يُكفِّرُ السيئاتِ ويُوجِبُ دُخُولَ الجنَّاتِ. وقد رُوِي أنَّه ﷺ سُئِلَ عن بِرِّ الحجِّ، فقال: «**إطعام الطعامِ،**

(١) الترمذي (٣٤٦٢).
(٢) الترمذي (٣٤٦٤)؛ والنسائي (٦/ ٢٠٧).
(٣) البخاري (١٨١٩)؛ ومسلم (١٣٥٠).
(٤) مسلم (٢٣٣).
(٥) أحمد (١٤٨٦٠)؛ والترمذي (٦١٤)؛ وابن ماجه (٤٢١٠).
(٦) البخاري (١٧٧٣)؛ ومسلم (١٣٤٩).
(٧) مسلم (١٢١).

وطيبُ الكلام»[١].

**فالحجُّ المبرورُ ما اجتمع فيه فِعْلُ أعمالِ البرِّ مع اجتناب أعمال الإثم**، فما دعا الحاجُّ لنفسِهِ ولا دعا له غيرُهُ بأحسَنَ من الدُّعَاءِ بِأَنْ يكونَ حجُّهُ مبرورًا.

**للحجِّ المبرورِ علاماتٌ لا تخفَى:**

**قيل للحسن:** الحجُّ المبرورُ جزاؤه الجنة. قال: آيةُ ذلك أن يرجِعَ زاهدًا في الدنيا راغبًا في الآخرة. وقيل له: جزاءُ الحجِّ المبرور المغفرةُ. قال: آيةُ ذلك أن يَدَعَ سيِّئَ ما كان عليه من العملِ.

قبيحٌ بمن كَمَّلَ القِيَامَ بمباني الإسلام الخَمْسِ أن يشرَعَ في نَقْضِ ما بَنَى بالمعاصي.

علامةُ قَبُولِ الطَّاعَةِ أن تُوصَلَ بطاعَةٍ بعدَها، وعلامَةُ ردِّها أن تُوصَلَ بمعصيةٍ.

ما أحسنَ الحسنةَ بعد الحسنةِ، ما أوحشَ ذُلَّ المعصيةِ بعدَ عِزِّ الطاعة!

ارْحَمُوا عزيزَ قومٍ بالمعاصِي ذلَّ، وغنِيَّ قومٍ بالذُّنوبِ افتقَرَ. سَلُوا الله الثباتَ إلى المماتِ، وتعوَّذُوا من الحَوْرِ بعدَ الكَوْرِ. كان الإمامُ أحمدُ يدعو ويقولُ: اللهمَّ أعِزَّنِي بطاعَتِكَ ولا تُذِلَّنِي بمعصيتِكَ.

**ألا إنَّمَا التَّقْوَى هِيَ العِزُّ والكَرَمْ ... وحبُّكَ للدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ والسَّقَمْ**
**وليسَ على عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقِيصَةٌ ... إذا حَقَّقَ التَّقْوَى وإنْ حَاكَ أو حَجَمْ**

قيل لابن عمرَ: ما أكثرَ الحاجَّ! قال: ما أقلَّهُم! وقال: الرَّكْبُ كثيرٌ، والحاجُّ قليلٌ.

**قال بعضُ السَّلف في دعائه بعرفةَ:** اللهم إن كنتَ لم تَقْبَلْ حَجِّي وتَعَبِي ونَصَبِي، فلا تَحْرِمْنِي أجرَ المُصِيبةِ على تركِكَ القَبُولَ مِنِّي.

قُدُومُ الحاجِّ يُذكِّرُ بالقُدُومِ على الله ﷻ.

**قال بعضُ الملوك لأبي حازم:** كيفَ القُدُومُ على الله تعالى؟ فقال أبو حازم: أمَّا قُدُومُ الطَّائِعِ على الله تعالى فكَقُدُومِ الغائبِ على أهلِه المشتاقين إليه، وأمَّا قُدُومُ العاصي فكَقُدوم العبدِ الآبقِ على سيِّدِه الغضبان.

(١) المستدرك (١/ ٦٥٨)؛ والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢٦٢).

## وظيفة شهر صفر

### الإيمان بالقدر والأخذ بأسباب السلامة:

في (الصحيحينِ) عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ، أنَّه قال: «**لَا عَدْوَى ولا هَامَةَ ولا صَفَرَ**». فقال أعرابي: يا رسولَ الله، فما بالُ الإبل تكونُ في الرَّملِ كأنَّها الظِّبَاءُ فيخالطُها البَعيرُ الأجرَبُ فيُجْرِبُها؟ فقال رسولُ الله: «**فمن أعْدَى الأوَّل**»[1]؟

أما **العَدْوَى**: فمعناها أنَّ المرضَ يتعدَّى من صاحبِه إلى مَنْ يُقارِبُه مِنَ الأصحَّاءِ فيمرضُ بذلك. وكانت العرَبُ تعتقِدُ ذلك في أمراضٍ كثيرةٍ منها الجَرَبُ، ولذلك سأل الأعرابيُّ عن الإبلِ الصحيحةِ يُخالِطُها البعيرُ الأجرَبُ فتجربُ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**فَمَنْ أعْدَى الأوَّل؟**» ومُرادُه أنَّ الأوَّلَ لم يجرَبْ بالعَدْوَى، بل بقضاءِ اللهِ وقدَرِه، فكذلك الثاني وما بعدَه.

وقد ورَدَتْ أحاديثُ أشكَلَ على كثيرٍ من الناس فهمُها، حَتَّى ظَنَّ بعضُهم أنها ناسخةٌ لقوله: «**لَا عَدْوَى**»، مثل ما في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**لا يُورِدُ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ**»[2].

**والمُمرِضُ**: صاحبُ الإبلِ المريضةِ، والمُصِحُّ: صاحبُ الإبلِ الصَّحيحةِ. والمرادُ النَّهيُ عن إيرادِ الإبلِ المريضةِ على الصحيحةِ. ومثل قوله ﷺ: «**فِرَّ من المَجْذُوم فرارَكَ من الأسدِ**»[3]. وقوله ﷺ في الطاعون: «إذا سمعتم به بأرضٍ فلا تدخلُوها»[4].

**والصحيح الذي عليه جُمهورُ العلماءِ أنَّه لا نَسْخَ في ذلك كلِّه**، ولكن اختلفوا في معنى قوله «**لا عدوى**»، وأظهرُ ما قيل في ذلك أنه نَفِيٌ لما كان يعتقدُه أهلُ الجاهلية مِن أنَّ هذه الأمراضِ تُعْدِي بطبعها من غير اعتقادِ تقديرِ اللهِ لذلك، ويدُلُّ على هذا قولُه: «**فمن أعْدَى الأوَّل**»، يشير إلى أنَّ الأوَّل إنما جَرِبَ بقضاءِ الله وَقَدَرِهِ، فكذلك الثاني وما بعده.

---

(١) البخاري (٥٧١٧)؛ ومسلم (٢٢٢٠).
(٢) البخاري (٥٧٧١)؛ ومسلم (٢٢٢١).
(٣) أحمد (٩٤٢٩).
(٤) البخاري (٥٧٢٨)؛ ومسلم (٢٢١٨).

وخرَّجَ الإمامُ أحمد والترمذي من حديث ابنِ مسعود، قال: قال رَسُول الله ﷺ: «**لا يُعدِي شيءٌ شيئًا**» قالها ثلاثًا. فقال أعرابي: يا رسولَ الله! النُّقْبَةُ[1] مِنَ الجَرَبِ تكونُ بِمِشْفَرِ البَعيرِ أو بِذَنَبِهِ في الإبل العظيمةِ، فَتَجْرَبُ كلُّها. فقال رسولُ الله ﷺ: «**فما أَجْرَبَ الأوَّلَ؟ لَا عَدْوَى ولا هَامَةَ ولا صَفَرَ، خَلَقَ الله كلَّ نَفْسٍ وَكَتَبَ حياتَها ومُصَابَهَا وَرِزْقَهَا**»[2]. فأخبرَ أنَّ ذَلِكَ كلَّه بقضاءِ الله وَقَدَرِهِ، كما دَلَّ عليه قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد:٢٢].

فأما نهيُهُ ﷺ عن إيرادِ المُمْرِضِ على المُصِحِّ، وأمرُه بالفرارِ من المَجْذُوم، ونهيُهُ عن الدخولِ إلى موضعِ الطَّاعونِ، فإنَّه من باب اجتنابِ الأسبابِ التي خَلَقَهَا الله تعالى، وجعلَها أسبابًا للهلاكِ أو الأذَى. **والعبدُ مأمورٌ باتقاء أسبابِ البَلاءِ إذا كان في عافيةٍ منها**، فكما أنه يُؤمَرُ أن لا يُلْقِيَ نفسَه في الماءِ، أو في النارِ، أو يدخُلَ تحتَ الهَدْمِ ونحوِهِ، مِمَّا جرتْ به العادَةُ بأنَّه يَهْلكُ أو يُؤْذى، فكذلك اجتنابُ مقاربَةِ المريضِ كالمجذومِ، أو القُدومِ على بلدِ الطاعون؛ فإنَّ هذه كلَّها أسبابٌ للمرضِ والتَّلَفِ؛ واللهُ تعالى هو خالِقُ الأسبابِ ومُسَبّباتها، لا خالِقَ غيرُه، ولا مقدِّرَ غيرُه.

**والأسبابُ نوعان:**

* **أحدهما:** أسبابُ الخير، فالمشروع أنَّه يفرَحُ بها، ويستبشِرُ، ولا يَسْكُنُ إليها، بل إلى خالِقِها ومسبِّبها، وذلك هو تحقيقُ التوكُّلِ على اللهِ والإيمان بِهِ، كما قال تعالى في الإمدادِ بالملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:١٠].

* **والنوع الثاني:** أسبابُ الشرِّ، فلا تُضافُ إلَّا إلى الذُّنوبِ، لأنَّ جميعَ المصائبِ إنما هي بسببِ الذُّنوبِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، فَلَا تُضافُ إلى شيءٍ من الأسبابِ سِوى الذنوب، كالعَدْوَى أو غيرها.

والمشروعُ: **اجتنابُ ما ظهرَ منها واتقاؤه بقدْرِ ما وَرَدَتْ به الشريعةُ**، مثلُ اتقاءِ

(١) **النقبة:** هي أولُ جَرَبٍ يبدو وجمعه نُقَب.
(٢) أحمد (٤١٨٦)؛ والترمذي (٢١٤٣).

المجذوم والمريضِ، والقُدُوم على مكانِ الطاعون. وأما ما خفي منها فلا يُشْرَعُ اتقاؤه واجتنابُه، فإنَّ ذلك مِنَ الطِّيَرَةِ المَنْهِيِّ عنها.

**النهي عن الطيرة:**

والطِّيَرَةُ من أعمالِ أهلِ الشِّرْكِ والكُفْرِ، وقد حكاها الله تعالى في كتابه عن قوم فرعونَ وقومِ صالحٍ وأصحابِ القَريةِ التي جاءها المرسلون. وقد ثبتَ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا طِيَرَةَ**»[1].

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ من حديثِ عروةَ بنِ عامرٍ القرشيِّ، قال: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عند رسولِ الله ﷺ فقال: «**أحسَنُها الفَأْلُ، ولا تَرُدُّ مسلمًا، فإذا رأى أحدُكم ما يكرهُ فليقُلْ: اللهمَّ لا يأتي بالحسناتِ إلا أنتَ، ولا يدفعُ السيئاتِ إلَّا أنت، ولا حَوْلَ ولا قَوَّةَ إلا بكَ**»[2].

وفي صحيحِ ابن حِبَّانَ عن أنسٍ ﵁، عن النبي ﷺ قال: «**لَا طِيَرَةَ، والطَّيَرَةُ على مَنْ تَطيَّرَ**»[3]. وقال النَّخعِيُّ: قال عبد الله بن مسعود: لا تضرُّ الطِّيَرَةُ إلَّا من تطيَّر. ومعنى هذا أنَّ من تطيَّر تطيُّرًا منهيًّا عنه، وهو أن يعتمِدَ على ما يسمعُه أو يراهُ مما يُتطيَّرُ به حَتَّى يمنَعَهُ مِمَّا يُريدُ من حاجتِه، فإنَّه قد يُصيبُه ما يكرهُه. فأمَّا من توكَّلَ على الله، ووثِقَ به، بحيثُ علَّقَ قلبه بالله خوفًا ورجاءً، وقطعَهُ عن الالتفاتِ إلى هذه الأسباب المخوفةِ، وقال ما أُمِرَ به من هذه الكلماتِ، ومَضَى، فإنَّه لا يضرُّه ذلك.

وقد رُوِيَ عن ابن عباس ﵄ أنَّه كان إذا سمعَ نَعْقَ الغُرابِ قال: اللهم لا طَيْرَ إلَّا طيرُكَ، ولا خَيْرَ إلَّا خَيْرُكَ.

وكذلك أمرَ النبيُّ ﷺ عند انعقاد أسبابِ العذابِ السَّماويةِ المخُوفةِ، كالكسُوفِ، بأعمالِ البِرِّ؛ من الصلاة، والدُّعَاءِ، والصَّدَقَةِ، والعِتْقِ، حتى يُكشَفَ ذلك عن الناس. وهذا كلُّه مما يدُلُّ على أنَّ الأسبابَ المكروهةَ إذا وُجِدَتْ فإنَّ المَشروعَ الاشتغالُ بما يُرْجَى به دَفْعُ العذابِ المخُوفِ منها؛ من أعمالِ الطَّاعاتِ، والدُّعَاءِ، وتحقيقِ التوكُّلِ على

---

(١) البخاري (٥٧٥٤)، ومسلم (٢٢٢٣).

(٢) أبو داود (٣٩١٩).

(٣) ابن حبان (١٣، ٤٩٢).

الله والثقةِ به، فإنَّ هذه الأسبابَ كلَّها مُقْتضياتٌ لا مُوجِباتٌ، ولها موانعُ تمنعُها. فأعمالُ البرِّ والتَّقْوَى والدُّعَاءُ والتوكُّلُ من أعظم ما يُستدفعُ به.

**العمل عند انعقاد أسباب العذاب والرحمة:**

**وأما اعتقادُ المسلمين أنَّ الله وحدَه هو الفاعلُ لما يشاءُ، ولكنَّه يعقِدُ أسبابًا للعذاب، وأسبابًا للرَّحمةِ**؛ فأسبابُ العذابِ يُخوِّفُ اللهُ بها عبادَه ليتوبوا إليه ويتضرَّعوا إليه، مثلُ كُسوفِ الشمس والقمر؛ فإنَّهما آيتانِ من آيات الله يخوِّفُ الله بهما عبادَه؛ لينظرَ من يحدثُ له توبةً، فدَلَّ على أنَّ كسوفَهما سببٌ يُخشى منه وُقوعُ عذابٍ.

وقد أمرَ عائشةَ رضي الله عنها أن تستعيذَ من شرِّ القَمَرِ، وقال: «**هو الغاسِقُ إذا وَقَبَ**»[1]. وقد أمرَ اللهُ تعالى بالاستعاذةِ من شرِّ غاسقٍ إذا وَقَبَ، وهو الليلُ إذا أظلم؛ فإنه ينتشر فيه شياطينُ الجنِّ والإنس.

وَأَمَرَ إذا اشتَدَّتِ الرِّيحُ أن يُسألَ اللهُ خيرَها وخيرَ ما أُرْسِلَتْ به، ويُستعاذَ به من شرِّها وشَرِّ ما أرسلَتْ به[2]. وقد كان النبيُّ ﷺ إذا رأى ريحًا أو غيمًا تغيَّر وجْهُهُ، وأقبلَ وأدْبَرَ، فإذا مَطَرَتْ سُرِّيَ عنه، ويقول: «**قد عُذِّبَ قومٌ بالرِّيح، ورأى قومٌ السَّحابَ، فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾**»[3] [الأحقاف:٢٤].

**وأسبابُ الرحمةِ يُرجّي بها عبادَهُ**، مثلُ الغيمِ الرطبِ والريحِ الطيبة، ومثلُ المطرِ المعتادِ عند الحاجة إليه، ولهذا يقال عند نزوله: اللهم سُقْيَا رحمةٍ ولا سُقْيَا عذابٍ.

وأمَّا من اتَّقى أسبابَ الضَّرَرِ بعدَ انعقادِها بالأسباب المنهيِّ عنها، فإنه لا ينفعُه ذلك غالبًا، كمن ردَّتْهُ الطِّيَرَةُ عن حاجته خشيةَ أن يُصيبَهُ ما تَطَيَّرَ به، فإنَّه كثيرًا ما يُصاب بما خشي منه، كما قاله ابنُ مسعودٍ، ودَلَّ عليه حديثُ أنسٍ المتقدِّم.

**إبطال اعتقادات أهل الجاهلية:**

وأمَّا قولُه ﷺ: «**لا هامَةَ**» فهو نفيٌ لِما كانَتِ الجاهليةُ تعتقدُه أنَّ الميت إذا ماتَ صارَتْ روحُه، أو عظامُه، هامةً، وهو طائرٌ يطير. وهو شبيه باعتقادِ أهلِ التناسخ؛ أن

---

(١) أحمد (٢٥٤٦٩)؛ والترمذي (٣٣٦٦).

(٢) مسلم (٨٩٩).

(٣) البخاري (٤٨٢٩)؛ ومسلم (٨٩٩).

أرواحَ الموتى تنتقلُ إلى أجسادِ حيواناتٍ من غير بَعثٍ ولا نُشورٍ، وكلُّ هذه اعتقاداتٌ باطلةٌ جاءَ الإسلامُ بإبطالِها وتكذيبِها.

**وأمَّا قولُه ﷺ**: «**وَلَا صَفَرَ**» فاختُلف في تفسيره؛ فقال كثيرٌ من المتقدمين: الصَّفَرُ: داءٌ في البطن، يقال: إنه دُودٌ فيه كبارٌ كالحيَّاتِ، وكانوا يعتقدون أنَّه يُعْدِي، فنفَى ذلك النبيُّ ﷺ.

**وقالت طائفةٌ**: بلِ المرادُ «بصفر» شهرُ صفرَ، ثم اختلفوا في تفسيره، على قولين:

* **أحدُهما**: أنَّ المرادَ نفيُ ما كانَ أهلُ الجاهلية يفعلونه في النَّسيء، فكانوا يُحِلُّون المُحَرَّمَ ويُحَرِّمُونَ صَفَرَ مكانَه؛ وهذا قولُ مالكٍ.

* **والثاني**: أنَّ المرادَ أنَّ أهلَ الجاهلية كانوا يَسْتشئِمُونَ بصفَرَ ويقولون: إنَّه شهرٌ مشؤوم، فأبطلَ النَّبيُّ ﷺ ذلك؛ وكذلك تشاؤم أهلِ الجاهليةِ بشوَّالٍ في النكاح فيه خاصَّةً. وقد قيل: إنَّ أصلَه أنَّ طاعونًا وَقَعَ في شوالٍ في سنةٍ من السنين، فمات فيه كثيرٌ من العرائسِ، فتشاءم بذلك أهل الجاهلية.

وقد وَرَدَ الشَّرْعُ بإبطالِه، قالت **عائشةُ** رضي الله عنها: «تزوَّجَني رسولُ الله ﷺ في شوَّالٍ، وبَنَى بي في شَوَّال، فأيُّ نسائِه كانَ أحظَى عندَه منّي! وكانت عائشةُ تَسْتَحِبُّ أنْ تُدْخِلَ نِسَاءَهَا في شَوَّال»[1]. وتزوَّجَ النبيُّ ﷺ أمَّ سَلَمَةَ في شَوَّالٍ أيضًا[2].

فأمَّا قولُ النبيِّ ﷺ «**لا عَدْوَى ولا طِيَرَة، والشؤمُ في ثلاثٍ؛ في المرأة، والدَّارِ، والدَّابَّةِ**»[3]، خرَّجاه في (الصحيحين) من حديث ابن عُمَرَ، عن النبي ﷺ، فقد اختلف الناس في معناه أيضًا.

### معنى «الشؤم في ثلاث»:

والتحقيقُ أنْ يقالَ في إثبات الشؤمِ في هذه الثلاثِ، ما ذكرناه في النَّهي عن إيراد المريضِ على الصحيحِ، والفرارِ من المجذوم، ومن أرضِ الطاعون؛ إنَّ هذه الثلاث أسبابٌ يقدِّرُ الله تعالى بها الشؤمَ واليُمْنَ ويَقْرِنُه بها، ولهذا يشرع لمن استفادَ زوجةً، أو

(١) مسلم (١٤٢٣).
(٢) ابن ماجه (١٩٩١).
(٣) البخاري (٥٧٥٣)؛ ومسلم (٢٢٢٥).

أَمَةً، أو دابَّةً أنْ يسألَ الله تعالى من خيرِها وخيرِ ما جُبِلتْ عليه، ويستعيذَ به من شرِّها وشرِّ ما جُبِلَتْ عليه.

وكذا ينبغي لمن سكن دارًا أن يفعلَ ذلك. وقد أمرَ رسولُ الله ﷺ قومًا سكنوا دارًا فقلَّ عددُهم، وقلَّ مالهم أن يتركوها ذَميمةً.

فترْكُ ما لا يجدُ الإنسانُ فيه بركةً من دارٍ أو زوجةٍ أو دابَّةٍ غيرُ منهيٍّ عنه.

**وأمَّا تخصيصُ الشؤمِ بزمانٍ دونَ زمانٍ، كشهر صَفَرَ أو غيره، فغيرُ صحيحٍ**، وإنَّما الزَّمانُ كلُّه خلقُ الله تعالى، وفيه تقعُ أفعالُ بني آدم. فكلُّ زمانٍ شَغَلَه المؤمنُ بطاعةِ الله، فهو زمانٌ مبارَكٌ عليه، وكُلُّ زمانٍ شَغَلَه العبدُ بمعصيةِ الله تعالى فهو مشؤومٌ عليه. فالشؤمُ في الحقيقة هو مَعْصِيةُ الله تعالى، كما قال ابنُ مسعود ﷺ: إنَّ كان الشؤمُ في شيءٍ ففيما بين اللّحْيين، يعني اللسان.

وفي الجملة: فلا شُؤمَ إلَّا المعاصي والذنوب؛ فإنَّها تُسخِطُ الله ﷻ، فإذَا سخِطَ الله ﷻ على عبدِه شقيَ في الدنيا والآخرةِ، كما أنه إذا رضي عن عبدِه سَعِدَ في الدنيا والآخرة.

وكذلك أماكنُ المعاصي وعقوباتُها يتعيَّن البُعْدُ عنها، والهربُ منها، خشيةَ نزولِ العذاب، كما قال النبيُّ ﷺ لأصحابِه لمَّا مَرَّ على ديارِ ثمود بالحِجْرِ: «**لا تَدْخُلُوا على هؤلاء المعذَّبين، إلَّا أن تكونوا باكينَ؛ خشيةَ أن يُصيبكم ما أصابَهُم**»[1].

▪◘▪◘▪

(١) البخاري (٤٣٣)؛ ومسلم (٢٩٨٠).

# وظائف شهر ربيع الأول

وفيه مجالس:

**المجلسُ الأوَّل: في ذكرِ مولدِ رسولِ الله ﷺ**

خرَّج الإمام أحمدُ من حديث العِرْبَاض بنِ ساريَةَ السُّلَمِي رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إنِّي عِنْدَ اللهِ في أمِّ الكتاب، لَخَاتمُ النبيين، وإنَّ آدمَ لَمُنْجَدِلٌ في طينتِهِ، وسوف أنبئكم بتأويل ذلك: دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبِشَارَةُ عيسى قَوْمَه، ورؤيا أمِّي التي رأتْ، أنَّه خَرَجَ منها نورٌ أضاءَتْ له قُصُورُ الشَّام، وكذلك أمَّهاتُ النبيينَ يَرَيْنَ**»[1]. وخرَّجه الحاكمُ، وقال: صحيحُ الإسنادِ.

المقصودُ من هذا الحديث أنَّ نبوَّةَ النبيِّ ﷺ كانتْ مذكورةً معروفةً من قبلِ أن يخْلُقَه اللهُ ويُخرِجَه إلى دار الدُّنيا حيًّا، وأنَّ ذلك كان مكتوبًا في أمِّ الكتاب من قبلِ نَفْخِ الرُّوحِ في آدمَ، عليه السلام. وفُسِّرَ «أمُّ الكتاب» باللَّوحِ المحفوظِ، وبالذِّكرِ، في قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩].

وفي (صحيح مسلم) عن عَبْدِ الله بنِ عَمْرِو بن العَاصِ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ الله كَتَبَ مَقَادِيرَ الخلائقِ قبلَ أن يخلُقَ السماواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، وكان عرشُهُ على الماءِ**»[2].

ومن جُمْلَةِ ما كَتَبَهُ في هذا الذِّكرِ وهو «أمُّ الكتاب» أنَّ محمدًا خاتَمُ النبيِّينَ، ومن حينئذ انتقلتِ المخلوقاتُ من مرتبةِ العلم إلى مرتبة الكتابةِ.

وفي (الصحيحين) عن جَابرٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**مَثَلِي ومَثَلُ الأنبياءِ كمثلِ رجلٍ بَنى دارًا فأكمَلَها وأحسَنَها، إلَّا موضِعَ لَبِنَةٍ، فجَعَلَ الناسُ يدخُلُونَها ويَعجَبُون منها، ويقولون: لولا مَوضِعُ اللَّبِنَةِ**»[3]. زاد مسلم، قال: «**فجئتُ فختمْتُ الأنبياء**».

---

(١) أحمد (١٦٧١٢).

(٢) مسلم (٢٦٥٣).

(٣) البخاري (٣٥٣٤)؛ ومسلم (٢٢٨٧).

وفيهما أيضًا: عن أبي هريرة ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ معناه. وفيه: «**فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفونَ به ويقولون: هلَّا وُضِعَتِ اللبَنةُ؟ فأنا اللَّبِنَةُ، وأنا خاتَمُ النَّبِيِّين**»(١). وقد استدلَّ الإمامُ أحمد بحديث العِرْبَاضِ هذا على أنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يَزَلْ على التوحيدِ منذ نَشَأ. وَرَدَّ بذلك على مَنْ زَعَمَ غيرَ ذلك.

**من دلائل نبوة النبي محمد ﷺ:**

ثم استدلَّ ﷺ على سَبْقِ ذِكْرِه، والتنويه باسْمِهِ، ونبوَّتِهِ، وشَرَفِ قَدْرِهِ لِخُروجِهِ إلى الدُّنيا، بثلاثِ دَلائلَ؛ وهو مرادُه بقوله: «**وسأنبئكم بتأويلِ ذلك**».

* **الدَّليلُ الأوَّلُ:** دعوةُ أبيه إبراهيمَ ﷺ؛ وأشارَ بذلك إلى ما قَصَّ اللهُ في كتابه عن إبراهيمَ وإسماعيلَ أنَّهما قالا عند بناءِ البيتِ الذي بمكة: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧-١٢٩].

فاستجابَ اللهُ دُعاءَهُما وبَعَثَ في أهلِ مكَّةَ منهم رسُولًا بهذه الصِّفةِ من ولدِ إسماعيل الذي دَعَا مع أبيه إبراهيم ـ عليهما السلامُ ـ بهذا الدُّعاءِ. وقد امتنَّ اللهُ تعالى على المؤمنين بِبَعْثِ هذا النَّبِيِّ فيهم على هذه الصِّفة التي دعا بها إبراهيمُ وإسماعيلُ.

**قال تعالى:** ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

**وقال سبحانه:** ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة:٢-٤].

ومَعْلُومٌ أنَّه لم يُبْعَثْ في مكَّةَ رسولٌ منهم بهذه الصفةِ غيرُ محمدٍ ﷺ، وهو مِنْ وَلَدِ إسماعيلَ، كما أنَّ أنبياءَ بني إسرائيل مِن ولَدِ إسحاق.

(١) البخاري (٣٥٣٥)؛ ومسلم (٢٢٨٦).

وقوله: ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ ـ والمرادُ بهم العَرَبُ ـ تنبيهٌ لهم على قَدْرِ هذه النِّعمةِ وعِظَمِها، حيثُ كانوا أميِّينَ لا كِتَابَ لهم، وليسَ عندَهم شيء من آثارِ النُّبوَّاتِ، كما كان عندَ أهلِ الكتاب، فمنَّ اللهُ عليهم بهذا الرسولِ وبهذا الكتاب، حتى صاروا أفْضَلَ الأمم وأعلمَهم، وعَرَفُوا ضلالَةَ من ضَلَّ من الأمم قَبلَهم.

وقوله: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني يتلُو عليهم ما أنزل اللهُ عليه من آياتِه المتلُوَّةِ، وهو القرآنُ، وهو أعظَمُ الكُتب السَّماوِيَّةِ، وقد تضمَّنَ من العلوم والحِكَم، والمواعِظِ، والقَصَصِ، والترغيبِ والترهيب، وذكرِ أخبارِ مَنْ سَبَقَ، وأخبارِ ما يأتي مِنَ البَعْثِ والنُّشورِ والجنَّةِ والنَّارِ، ما لم يشتمِلْ عليه كتابٌ غيرُهُ.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١]. فلو لم يَكُنْ لِمحمَّدٍ ﷺ مِنَ الْمُعجزاتِ الدَّالَّةِ على صدقِهِ غيرُ هذا الكتاب لكفَاهُ، فكيفَ وله من الْمُعجِزاتِ الأرضِيَّةِ والسَّماويَّةِ ما لا يُحْصَى. وقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: يعني أنَّه يُزكِّي قلوبَهُم ويُطَهِّرُهَا من أدناسِ الشِّرْكِ والفُجورِ والضَّلالِ.

وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، يعني بالكتابِ: القرآنَ، ويعني بالحكمةِ: فَهْمَ معاني القرآنِ والعَمَلَ بما فيه.

ومَنْ قال: الحِكْمَةُ السُّنَّةُ، فقولُه حقٌّ؛ لأنَّ السُّنَّةَ تفسِّرُ القرآنَ وتُبيِّنُ معانيَهُ وتحضُّ على اتِّباعِهِ والعَمَلِ بِهِ.

وقوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، إشارة إلى ما كان النَّاسُ عليه قبلَ إنزالِ هذا الكتاب من الضلال، فإنَّ الله تعالى نَظَرَ حينئذٍ إلى أهلِ الأرضِ، فمقتَهُمْ، عربَهُم وعجَمَهُم، إلَّا بقايا من أهلِ الكتاب تمسَّكُوا بدينهم الذي لم يُبدَّلْ ولم يُغيَّرْ، وكانوا قليلًا جدًّا.

* الثاني: بِشَارَةُ عيسى بِهِ، وعيسى آخِرُ أنبياءِ بني إسرائيلَ، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

وقد كان المسيحُ عليه السلام يَحُضُّ على اتِّباعِهِ، ويقولُ: إنَّه يُبْعَثُ بالسَّيْفِ، فَلَا يمنعنَّكُمْ ذلك منه.

* **الثالث: مِمَّا دل على نُبوَّتِهِ ﷺ قَبْلَ ظُهورِهِ:** رُؤيا أمِّه التي رأَتْ أنَّهُ خَرَجَ منها نورٌ أضاءَتْ لهُ قُصُورُ الشَّام، وذَكَرَ أنَّ أمَّهَاتِ النَّبِيِّينَ كذلك يَرَيْنَ. والرؤيا هنا إنْ أُرِيدَ بها رُؤيا المَنَامِ، فَقَدْ رُوِيَ أنَّ آمِنَةَ بنتَ وَهْبٍ رَأَتْ في أوَّلِ حَمْلِها بالنَّبِيِّ ﷺ أنَّها بُشِّرَتْ بأنَّه يَخْرُجُ مِنها عندَ وِلادَتِها نورٌ تُضِيءُ له قُصُورُ الشَّامِ.

وخُروجُ هذا النُّورِ عندَ وَضْعِهِ إشارَةٌ إلى ما يَجِيءُ به مِنَ النُّورِ الذي اهْتَدَى به أهلُ الأرضِ، وزالت به ظلمةُ الشِّرْكِ منها، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

**إخواني!** مَنْ كان من هذه الأمة فهو من خيرِ الأمم عندَ الله ﷻ. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]. وقال النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنْتُمْ تُوفُّونَ سَبعِينَ أُمَّةً، أنتُمْ خيرُها وأكرَمُها على الله ﷻ**»(١).

خيرُ هَذِهِ الأُمَّةِ أوَّلُها قَرْنًا، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «**خيرُ القُرونِ قَرْنِي، ثم الذين يَلُونَهُم، ثم الذين يلُونهم**»(٢).

كم قَدْ جاءَ مَدْحُ أصحابه في كتابه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]. ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]. وخصَّ الصِّدِّيقَ من بينهم بالصُّحْبَةِ بقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

مِنْ أينَ في الأُمَمِ مثلُ أبي بكرٍ الصِّدِّيق، أو عُمَرَ الذي ما سَلَكَ طريقًا إلَّا هَرَبَ الشَّيْطَانُ من ذلك الطريق، أو عثمان الصابر على مُرِّ الضيق، أو عليٌّ بحرِ العلم العميق،

---

(١) أحمد (١٩٥٢٥).

(٢) البخاري (٢٦٥١)؛ ومسلم (٢٥٣٥).

أو حمزةَ والعَبَّاسِ؟ أفيهم مثلُ طلحةَ والزُّبَيْرِ القَرينين، أو مثلُ سعدٍ وسعيدٍ، هيهات!! مِنْ أين!؟ أو مثلُ ابنِ عَوْفٍ وأبي عُبيدَةَ، ومن مثلُ الاثنين، إن شَبَّهْتُم بهم فقد أبعدتُم القِيَاسَ.

لَاحَ شَيْبُ الرَّأسِ مِنِّي فَنَصَحْ ... بَعْدَ لهوٍ وَشَبَابٍ وَمَرَحْ
إِخْوَتِي تُوبُوا إلى اللهِ بِنَا ... قَدْ لَهَوْنَا وَجَهِلْنَا مَا صَلَحْ
نَحْنُ في دارٍ نَرَى المَوْتَ بِهَا ... لَمْ يَدَعْ فيها لِذِي اللُّبِّ فَرَحْ
يا بني آدمَ صُونُوا دِينَكُمْ ... يَنْبَغِي للدِّين أَلَّا يُطَّرَحْ
واحْمَدُوا الله الَّذِي أَكْرَمَكُمْ ... بنبيٍّ قامَ فيكُمْ فَنَصَحْ

▪▣▪▣▪

## المجْلسُ الثاني: في ذكرِ المولد أيضًا

خرَّج مسلم من حديثِ أبي قَتَادَةَ الأنصاريِّ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئِلَ عَن صِيامِ يومِ الاثنينِ، فقال: «**ذلك يَوْمٌ وُلِدْتُ فيه، وأُنْزِلَتْ عليَّ فيه النُّبُوَّةُ**»[١].

أمَّا وِلَادَةُ النَّبيِّ ﷺ يومَ الاثنينِ فَكَالُمجْمَعِ عليه بين العُلَماءِ، وقد قالَهُ ابنُ عَبَّاسٍ وغيرُه.

**وأمَّا شهرُ ولادتِهِ فقد اخْتُلِفَ فيه**، فقيل: في شهر رمضانَ، رُوِيَ عن عبدِ الله ابن عمرو بإسنادٍ لا يَصِحُّ. وقيل: في رَجَبٍ، ولا يَصِحُّ. وقيل: في ربيع الأَوَّلِ، وهو المشهورُ بين النَّاسِ، حتَّى نَقَلَ ابنُ الجوزيِّ وغيرُه عليه الاتِّفاقَ، ولكنَّهُ قولُ جُمْهُورِ العلماءِ.

ثم اخْتَلَفُوا في أيِّ يومٍ كانَ مِنَ الشهرِ، فمنهم مَنْ قال: هو غَيْرُ مُعيَّنٍ، وإنما وُلِدَ في يومِ الاثنين من رَبيع الأول من غير تعيينٍ لعددِ ذلك اليوم مِنَ الشهرِ.

**والجمهور على أنَّه يومٌ مُعيَّنٌ منه**، ثم اختلَفُوا، فقيل: لِليلَتَيْن خلتا منه. وقيل: لِثمانٍ خَلَتْ منه. وقيل: لِعَشْرٍ. وقيل: لاثنتي عَشْرةَ. وقيل: لِسبعَ عَشْرةَ.

والمشهورُ الذي عليه الجُمهورُ أَنَّهُ وُلِدَ يومَ الاثنين ثاني عشرَ رَبيعٍ الأوَّلِ، وهو قولُ ابنِ إسحاقَ وغيره.

---

(١) مسلم (١١٦٢).

وأمَّا عامُ ولادتِهِ ﷺ فالأكثرُونَ على أنَّه عامُ الفِيلِ.

**وقال خليفةُ بنُ خَيَّاطٍ:** هذا هو المُجمَعُ عليه. وكانت قصَّةُ الفيلِ توطِئةً لنبوَّتِهِ وتقدِمَةً لِظُهورِهِ وبعْثَتِهِ ﷺ. وقد قصَّ الله تعالى ذلك في كتابه فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل:١-٥].

**فقوله:** ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ استفهامُ تقريرٍ لِمَنْ سَمِعَ هذا الخطابَ، وهذا يَدُلُّ على اشتِهارِ ذلك بينهم ومعرفتِهم به، وأنَّه مِمَّا لا يَخْفَى علمُه على العربِ، خصوصًا قريشًا وأهلَ مكَّةَ.

**النبيّ ﷺ بعث بتعظيم مكة والبيت الحرام:**

وفي هذه القصة ما يدُلُّ على تعظيمِ مكَّةَ، واحترامِها واحترامِ بيتِ اللهِ الذي فيها. وولادَةُ النبيِّ ﷺ عقيبَ ذلك تدُلُّ على نبوَّتِه ورسالتِه؛ فإنَّه ﷺ بُعِثَ بتعظيم هذا البيتِ وحجِّه والصلاةِ إليه، وكانَ هذا البَلَدُ هو موطِنَه ومولدَه، فاضطرَّه قومُهُ عندَ دعوتِهم إلى الله تعالى إلى الخُروجِ منه كُرْهًا بما نَالوه منه مِنَ الأذَى، ثم إنَّ الله تعالى ظَفَّرَهُ بهم، وأدخَلَهُ عليهم قهرًا، فمَلَكَ البَلَدَ عَنْوَةً، ومَلَكَ رِقَابَ أهلِهِ، ثمَّ مَنَّ عليهم وأطلقَهم وعَفَا عنهم، فكانَ في تسليطِ نبيِّه ﷺ على هذا البلدِ وتمليكِهِ إيَّاه ولأمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ ما دَلَّ على صِحَّةِ نبوَّتِهِ، فإنَّ الله حَبَسَ عنه مَنْ يُريدُه بالأَذَى وأهلَكَهُ، ثم سَلَّطَ عليه رَسُولَهُ وأمَّتَهُ كما قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ حَبَسَ عن مَكَّةَ الفِيلَ وسَلَّطَ عليها رَسُولَهُ والمؤمنين**»(١).

فإنَّ الرسولَ ﷺ وأُمَّتَه إنَّما كان قصدُهم تعظيمَ البيت وتكريمَهُ واحترامَهُ، ولهذا أنكَرَ النَّبيُّ ﷺ يومَ الفَتْحِ على مَنْ قال: اليومَ تُستحلُّ الكَعْبَةُ، وقال: «**اليومَ تُعظَّمُ الكَعْبَةُ**»(٢). وقد كان أهلُ الجاهلية غيَّروا دِينَ إبراهيمَ وإسماعيلَ بما ابتدعوه مِنَ الشِّرْكِ وتغيير بعضِ مناسِكِ الحجِّ، فَسَلَّط اللهُ رَسُولَهُ وأُمَّتَه على مَكَّةَ فطهَّرُوها مِن ذلك كلِّه، وردُّوا الأمرَ إلى دينِ إبراهيم الحنيفِ.

---

(١) البخاري (٢٤٣٤)؛ ومسلم (١٣٥٥).

(٢) البخاري (٤٢٨٠).

وأَمَّا تسليطُ القَرامِطَةِ على البيت بعد ذلك، فإنَّما كانَ عُقُوبَةً بسببِ ذُنُوبِ النَّاسِ، ولم يَصِلُوا إلى هَدْمِه ونَقْضِهِ وَمَنْعِ النَّاسِ مِن حَجِّهِ وزيارتِهِ، كما كان يَفعَلُ أصحابُ الفيلِ لو قَدَرُوا على هَدْمِهِ وصَرْفِ النَّاسِ عن حَجِّهِ.

والقرامِطَةُ أخذُوا الحَجَرَ والبَابَ، وَقَتَلوا الحاجَّ وسَلَبُوهم أموالَهم، ولم يتمكَّنُوا من منعِ النَّاسِ من حجِّهِ بالكُلِّيَّةِ، ولا قَدَرُوا على هَدْمِهِ بِالْكُلِّيَّةِ، كما كان أصحابُ الفيلِ يقصِدُونَهُ. ثم أَذَلَّهم اللهُ بعدَ ذلكَ وَخَذَلَهم وهَتَكَ أستارَهُم، وكَشَفَ أسرارَهُم.

**والبيتُ المُعظَّمُ باقٍ على حالِهِ مِنَ التَّعْظيم، والزِّيارةِ، والحَجِّ، والاعتمارِ، والصَّلاةِ إليه، لم يَبْطُلْ شيءٌ من ذلك عنه بحمد الله ومَنِّهِ**[1]. وغايةُ أَمرِهِم أنَّهم أخافُوا حاجَّ العِراقِ حتَّى انقَطَعُوا بعضَ السِّنين، ثم عادُوا.

ولم يَزِلِ اللهُ يمتحِنُ عبادَهُ المؤمنين بما يشاءُ مِن المِحَن، ولكنَّ دِينه قائمٌ محفوظٌ لا يَزالُ تقومُ به أُمَّةٌ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لا يضرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهم حتَّى يَأتِيَ أمْرُ الله وهُمْ على ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٢-٣٣].

وأَمَّا دخولُه المدينةَ ووفاتُه ﷺ فكانا في ربيعٍ الأوَّلِ بغيرِ خِلافٍ، مع الاختلافِ في تعيين ذلك اليومِ من أيَّام الشهرِ.

وفي قولِ النبيِّ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عن صيامِ يومِ الاثنين: «**ذاكَ يومٌ وُلِدْتُ فيه، وأُنْزِلَتْ عليَّ فيه النُّبُوَّةُ**»، إشارةٌ إلى استِحبابِ صِيامِ الأيَّامِ التي تتجدَّدُ فيها نِعمُ اللهِ على عبادِهِ.

فإنَّ النَّعْمَةَ على الأُمَّةِ بإرساله أعَظمُ مِنَ النِّعْمَةِ عليهم بإيجادِ السَّماءِ، والأرضِ، والشَّمْسِ، والقَمَرِ، والرِّياحِ، والليلِ، والنَّهارِ، وإنزالِ المطرِ، وإخراجِ النباتِ، وغير ذلكَ، فصيامُ يوم تجدَّدَتْ فيه هذه النِّعَمُ مِنَ الله على عبادِهِ المؤمنينَ حَسَنٌ جَمِيلٌ، وهو من بابِ مقابلةِ النِّعمِ في أوقاتِ تجدُّدِها بالشكرِ.

**ونظيرُ هذا صيامُ يومِ عاشوراءَ** حَيثُ أنجَى الله فيه نوحًا مِنَ الغَرَقِ، ونَجَّى فيه

(١) وهو كذلك إلى يومنا هذا ولله الحمد والمنة.

موسى وقَوْمَهُ من فرعونَ وجنودِهِ، وأغرقَهُمْ في اليمِّ، فصامَهُ نوحٌ وموسى شكرًا لله، فصامَهُ رسولُ الله ﷺ متابعةً لأنبياءِ الله، وقال لليهودِ: «**نحنُ أَحَقُّ بموسَى منكُمْ**»، فَصَامَه وأَمَرَ بِصِيَامِهِ[١].

وقد رُوِيَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يتحرَّى صيامَ يومِ الاثنين ويومِ الخميس، رُوِي ذلك عنه من حديث عائشةَ، وأبي هُرَيْرَة، وأسامة بن زيد. وفي حديث أُسامَةَ أَنَّه سأَلَهُ عن ذلك، فقال ﷺ: «**إنَّهما يومان تُعْرَضُ فيهما الأعمالُ على رَبِّ العالمين، فأحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وأنا صائم**»[٢].

كان بعضُ التابعينَ يَبْكِي إلى امرأتِهِ يومَ الخميس وتبكِي إليه، ويقول: اليومَ تُعْرَضُ أعمالُنا على الله، ﷻ.

يا من يُبْهرِجُ بعملِهِ، على مَنْ تُبَهْرِجُ، والناقِدُ بَصِيرٌ؟. يا مَنْ يُسوِّفُ بتطويلِ أَمَلِهِ، إلى كَمْ تسوِّفُ والعُمُرُ قصير؟

▪▣▪▣▪

## المجلس الثالث: في ذكر وفاةِ النبيِّ ﷺ

خرَّجا في (الصحيحين) من حديث أبي سعيدٍ الخدريِّ ﷺ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ جَلَسَ على المِنْبَرِ، فقال: «**إنَّ عَبْدًا خيَّرَهُ اللهُ بينَ أنْ يؤتيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنيا ما شاءَ، وبينَ ما عندَهُ، فاخْتَارَ ما عندَه**». فبَكَى أبو بكر وبَكَى، وقال: يا رسولَ الله، فديناكَ بآبائنا وأمَّهاتنا، قال: فعجِبْنَا، وقال النَّاسُ: انظُروا إلى هذا الشيخ! يُخبِرُ رَسُولُ الله ﷺ عن عبدٍ خيَّرَهُ الله بين أنْ يؤتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنيا ما شاءَ، وبينَ ما عندَ الله، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأُمَّهاتِنا.

قال: فكان رَسُولُ اللهِ ﷺ هو المخيَّرُ، وكان أبو بكرٍ هو أعلمَنا به. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ مِن أمنِّ الناسِ عليَّ في صُحْبَتِهِ ومالِهِ أبو بكرٍ، ولو كُنْتُ متَّخِذًا من أهلِ الأرْضِ خليلًا لاتَّخذْتُ أبا بكرٍ خليلًا، ولكنْ أُخوَّةُ الإسلامِ، لا تَبْقَى في المَسْجِدِ خَوْخَةٌ**

(١) البخاري (٢٠٠٤)؛ ومسلم (١١٣٠).
(٢) أحمد (٢١٢٤٦).

إلَّا سُدَّتْ، إلَّا خَوْخَةُ أبي بكرٍ»(١) رضي الله عنه.

اعلم أنَّ الموتَ مكتوبٌ على كل حيٍّ من الأنبياء والرُّسلِ وغيرِهم. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]. وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤-٣٥] الآية. وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤].

أوَّلُ ما أُعلِمَ النَّبيُّ ﷺ من انقضاءِ عُمُرِهِ باقترابِ أجلِهِ بنزولِ سورةِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر:١].

**قال ابنُ عبَّاس:** لَمَّا نزلَتْ هذه السورةُ نُعِيَتْ لرسولِ الله ﷺ نفسُهُ، فَأَخَذَ في أشدِّ ما كان اجتهادًا في أَمْرِ الآخِرةِ.

وكان يَعْرِضُ القرآنَ كلَّ عامٍ على جِبريلَ مَرَّةً، فعرَضَهُ ذلك العامَ مَرَّتين، وكان يعتكِفُ العشرَ الأواخِرَ من رَمَضانَ كلَّ عامٍ، فاعتكَفَ في ذلك العام عشرين، وأكثَرَ مِنَ الذِّكْرِ والاستغفارِ.

وما زَالَ ﷺ يُعَرِّضُ باقترابِ أجَلِهِ في آخِرِ عُمُرِهِ، فإنَّه لَمَّا خَطَبَ في حَجَّةِ الوَدَاعِ، قال للنَّاسِ: «**خُذُوا عَنِّي مناسِكَكُمْ، فَلَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا**»(٢).

وطفِقَ يُوَدِّعُ النَّاسَ، فقالوا: هذه حَجَّةُ الوَدَاعِ. فلمَّا رَجَعَ مِن حجَّتِهِ إلى المدينة جَمَعَ النَّاسَ بماءٍ يُدْعَى خُمًّا في طريقِه بينَ مَكَّةَ والمدينةِ، فخَطَبَهُم وقال: «**أيُّها النَّاسُ: إنَّما أنا بَشَرٌ، يُوشِكُ أنْ يأتِيَنِي رسولُ رَبِّي فأُجِيبَ**»(٣) ثُمَّ حَضَّ على التَّمسُّكِ بكتاب الله، ووصَّى بأهلِ بيتِه.

ثمَّ إنَّه لَمَّا بَدَأ بِهِ مَرَضُ المَوْتِ خُيِّرَ بينَ لِقَاءِ اللهِ ﷻ وبينَ زَهْرَةِ الدُّنْيا والبقاءِ فيها ما شاءَ الله، فاختَارَ لِقَاءَ الله، وخَطَبَ النَّاسَ وأَشَارَ إليهم بذلك إشارةً مِن غيرِ تَصْرِيحٍ.

---

(١) مسلم (٢٣٨٢).
(٢) مسلم (١٢٩٧).
(٣) مسلم (٢٤٠٨).

**ابتداءُ مرض النبي ﷺ ومدته وشدته:**

وكان ابتداءُ مَرَضِهِ في أواخِرِ شَهْرِ صَفَرَ، وكَانَتْ مُدَّةُ مَرَضِهِ ثلاثَةَ عَشَرَ يومًا في المشهور.

وفي المسند عن أبي مُوَيْهِبَة، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ ليلةً إلى البقيع، فاسْتَغْفَرَ لأهلِ البقيع، وقال: «**لِيَهْنِكُم ما أصْبَحْتُم فيه مِمَّا أصبَحَ فيه النَّاسُ، أقبلتِ الفِتَنُ كقِطَعِ اللَّيل المُظلِم، يتبعُ بعضُها بعضًا، يتبعُ آخرُها أوَّلَهَا، الآخرةُ شرٌّ من الأُولى**». ثمَّ قال: «**يا أبا مُويْهِبَة! إنِّي قد أُعطِيتُ خَزَائِنَ الدُّنيا والخُلدَ ثم الجَنَّةَ، فخُيِّرتُ بينَ ذلك وبينَ لِقَاءِ رَبِّي، فاخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي والجنَّةَ**»[1]، ثمَّ انْصَرَفَ. فابتدأهُ وجعُه الذي قَبَضَهُ الله فيه.

وكانَ أوَّلَ ما ابتُدِئَ به رسولُ الله ﷺ من مرضِهِ وَجَعُ رأسِه، ولهذا خَطَبَ وقد عَصَبَ رأسَهُ بِعصابَةٍ دَسْمَاءَ[2]، وكان صُدَاعُ الرَّأسِ والشَّقِيقةُ يعترِيه كثيرًا في حياته، ويتألَّم منه أيامًا.

وفي المسند عن عائشة رضي الله عنها قالت: رَجَعَ إليَّ رسولُ الله ﷺ ذاتَ يومٍ من جنازةٍ بالبَقِيعِ، وأنا أجِدُ صُدَاعًا في رأسِي، وأنا أقولُ: وارأساه! قال: «**بل أنا وارأساه!**»، ثمَّ قال: «**ما ضَرَّكِ لو مُتِّ قبْلي فغسَّلتُكِ وكفَّنْتُكِ، ثم صلَّيْتُ عليكِ ودفنْتُكِ؟**»، فقلْتُ: لكأنِّي بكَ والله لو فعلْتَ ذلك، لَقَدْ رَجَعْتَ إلى بيتِي فأعْرَسْتَ فيه ببعضِ نسائِكَ، فتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ ثمَّ بُدِئَ في وَجَعِهِ الذي ماتَ فيه[3].

فقد تبيَّن أنَّ أوَّلَ مَرَضِهِ كانَ صُدَاعَ الرأسِ، والظَّاهِرُ أنَّهُ كانَ مَعَ حُمَّى، فإنَّ الحُمَّى اشتدَّتْ بِهِ في مرضِهِ، فكان يجلس في مِخْضَبٍ[4]، وَيُصَبُّ عليه الماءُ من سَبْعِ قِرَبٍ، لم تُحْلَلْ أَوْكِيتُهُنَّ[5]؛ يتبرَّدُ بذلك. وكانَ عليه قَطِيفةٌ، فكانتْ حَرارَةُ الحُمَّى تُصِيبُ مَنْ وَضَعَ يَدَهُ عليه من فوقِهَا، فقيلَ له في ذلك، فقال: «**إنَّا كذَلِكَ يُشَدَّدُ علينا البلاءُ**

---

(١) أحمد (١٥٥٦٧).

(٢) دسماء: سوداء.

(٣) أحمد (٢٥٣٨٠).

(٤) مخضب: الإجانة التي تغسل فيها الثياب.

(٥) أوكيتهن: جمع وكاء، وهو ما يُشدّ به رأس القربة.

**ويضاعفُ لنا الأجْرُ**»[١]. وقال: «**إِنِّي أُوعَكُ كما يُوعَكُ رجلانِ منكم**»[٢].

ومِنْ شِدَّةِ وَجَعِهِ كانَ يُغْمَى عليه في مرضِهِ، ثم يفيقُ، وَحَصَلَ له ذلكَ غيرَ مرَّةٍ، فأُغْمِيَ عليه مرَّةً وظنُّوا أنَّ وَجَعَهُ ذاتُ الجَنْبِ[٣]، فَلَدُّوهُ[٤]، فلمّا أَفاقَ أَنْكَرَ ذَلِكَ، وأَمَرَ أنْ يُلَدَّ مَنْ لَدَّهُ، وقال: «**إنَّ الله لم يَكُنْ لِيُسَلِّطَهَا عليَّ**» يعني ذاتَ الجَنْبِ، «**ولكنَّهُ من الأَكْلَةِ الَّتِي أكلْتُهَا يومَ خَيْبَرَ**»[٥]، يعني أنَّه نَقَضَ عليه سَمُّ الشَّاةِ التي أهدَتْهَا له اليهوديَّةُ، فَأَكَلَ منها يومئذٍ، فكانَ ذَلِكَ يَثُورُ عليه أحيانًا، فقال في مرضِ موتِهِ: «**ما زَالَتْ أَكْلَةُ خَيْبَرَ تُعَاوِدني، فهذا أوانُ انقطاعِ أَبْهَرِي**»[٦]. وكان ابنُ مسعودٍ وغيرُه يقولون: إنَّه ماتَ شهيدًا من السّمِّ.

ودخلَتْ عليه فاطِمَةُ ﵂ في مرضِهِ، فسارَّها بشيءٍ فَبَكَتْ، ثم سارَّها فضحكَتْ، فسُئِلَتْ عن ذَلِكَ، فقالت: لا أُفشي سِرَّ رَسولِ الله ﷺ. فلمّا تُوفِّي سُئِلَتْ، فقالت: أخبرني أنَّه يموتُ في مرضِهِ، فَبَكيتُ، ثمَّ أَخبرَنِي أنِّي أوَّلُ أَهْلِهِ لُحُوقًا به، وأنِّي سيِّدةُ نِساءِ العَالَمِينَ، فضحِكْتُ[٧]. فلمّا احتُضِرَ رسولُ الله ﷺ اشتدَّ به الأمْرُ، فقالت عائشة: ما أَغْبِطُ أحدًا يُهَوَّنُ عليه الموتُ بعدَ الذي رأيْتُ مِن شدَّة موتِ رَسولِ الله ﷺ.

قالت: وكان عندَه قَدَحٌ من ماءٍ، فيُدْخِلُ يدَهُ في القَدَحِ، ثمَّ يَمْسَحُ وَجْهَهُ بالماءِ، ويقول: «**اللهمَّ، أعِنِّي على سَكَرَاتِ الموتِ**»[٨]، قالت: وَجَعَلَ يقولُ: «**لا إلهَ إلَّا الله، إنَّ للموتِ لَسَكراتٍ**»[٩].

ولم يُقْبَضْ ﷺ حتَّى خُيِّرَ مرَّةً أُخْرَى بينَ الدُّنْيَا والآخِرَة؛ قالَتْ عائشةُ: كان النَّبيُّ

---

(١) المستدرك (١/ ٩٩).

(٢) البخاري (٥٦٤٨)؛ ومسلم (٢٥٧١).

(٣) **ذات الجنب**: الدُّبَيْلة والدمّل الكبيرة التي تظهر في باطن الجنب.

(٤) **فلدّوه**: **اللدُّ**: وضع الدواء في جانب الفم بغير اختيار المريض.

(٥) أبو داود (٤٥١٢)، والبخاري معلقًا (٤٤٢٨) بنحوه.

(٦) **والأبهر**: عرق مستبطن القلب إذا انقطع مات الإنسان.

(٧) البخاري (٣٦٢٤)؛ ومسلم (٢٤٥٠).

(٨) أحمد (٢٣٨٣٥)؛ والترمذي (٩٧٨).

(٩) البخاري (٤٤٤٩).

ﷺ يقولُ: «إنَّه لم يُقْبَضْ نبيٌّ قطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، ثمَّ يُخَيَّرُ»[1]. فلمَّا نزَلَ به ورأسُهُ على فَخِذِي، غُشِيَ عليه ساعةً، ثُمَّ أفاقَ، فأشخصَ بصرَهُ إلى سَقْفِ البيت، ثم قال: «اللهم الرفيقَ الأعلى». فقلت: الآن لا يختارنا، وعلمت أنه الحديثُ الذي كان يُحدِّثناهُ، وهو صَحِيحٌ. وكانَتْ تِلك آخرَ كلمةٍ تكلَّم بها.

وفي روايةٍ أنَّه قال: «اللهمَّ اغفِرْ لي وارْحَمْني، وأَلْحِقْني بِالرَّفيق الأَعْلَى»[2] وفي روايةٍ أنه أصابَهُ بُحَّةٌ شَديدةٌ، فسمِعتُه يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، قالتْ: فَظَنَنْتُ أنَّه خُيِّرَ حينئذٍ. وهذه الرِّواياتُ مخرَّجَةٌ في صحيح البخاري وغيره.

وكانَتْ وفاته ﷺ في يوم الاثنين في شهرِ ربيع الأوَّلِ. بغيرِ خِلافٍ، وكان قَدْ كَشَفَ السِّتْرَ في ذلك اليومِ والنَّاسُ في صلاةِ الصُّبْحِ خَلْفَ أبي بكرٍ، فهَمَّ المسلمون أن يُفْتَتَنُوا من فَرَحِهم برؤيتِهِ ﷺ، حينَ نظروا إلى وجهِهِ كأنَّه وَرَقَةُ مُصحفٍ، وَظَنُّوا أنَّهُ يخرُجُ للصَّلاةِ، فأشار إليهم: «أنْ مكانكُمْ»، ثم أَرْخَى السِّتْرَ.

وتوفي ﷺ من ذلك اليومِ، وظَنَّ المسلمون أنَّه ﷺ قَدْ بَرِئَ مِن مَرَضِهِ لَّما أصبحَ يومَ الاثنين مفِيقًا، فَخَرَجَ أبو بكرٍ إلى منزِله بالسُّنْحِ[3] خارجَ المدينة، فلما ارتفعَ الضُّحى من ذلك اليوم تُوفِي رسولُ الله ﷺ. وقيل: توفي حين زاغَتِ الشَّمْسُ. والأوَّل أصَحُّ، أنه توفي حِينَ اشتَدَّ الضُّحَى من يومِ الاثنين في مثلِ الوقتِ الذي دَخَلَ فيه المدينةَ حينَ هَاجَرَ إليها.

## حال المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ:

ولَمَّا توفي ﷺ اضطرب المسلمون؛ فمنهم مَنْ دُهِشَ فَخُولِطَ؛ ومنهم مَنْ أُقعِدَ فلم يُطقِ القِيَامَ؛ ومنهم من اعتُقِلَ لسانُه فلم يُطِقِ الكلامَ، ومنهم مَنْ أنكرَ موتَهُ بالكُلِّيَةِ، وقال: إنَّما بُعِثَ إليه كما بُعِثَ إلى موسى، وكان من هؤلاء عُمَرُ، وبَلَغَ الخبرُ أبا بكرٍ، فأقبَلَ مُسْرِعًا حَتَّى دَخَلَ بيتَ عائِشَةَ ورسولُ الله ﷺ مُسجَّى، فكَشَفَ عن وجهِهِ

(١) البخاري (٤٤٣٧)؛ ومسلم (٢٤٤٤).
(٢) البخاري (٥٦٧٤)؛ ومسلم (٢٤٤٤).
(٣) السُّنح: موضع بعوالي المدينة.

الثَّوْبَ وأكبَّ عليه، وقبَّلَ وجهَهُ مرارًا وهو يبكي، ويقولُ: وانبيَّاه! واخليلاه! واصفياه! وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ماتَ والله رسولُ الله ﷺ. وقال: والله لا يجمَعُ الله عليكَ مَوْتَتينِ، أمَّا الموتةُ التي كُتبت عليكَ فقَدْ مُتَّها.

ثُمَّ دَخَلَ المسجدَ وعُمَرُ يكلِّمُ النَّاسَ، وهم مجتمعُون عليه، فتكلَّمَ أبو بكر وتشهَّدَ، وحمِدَ الله، فأقبلَ النَّاسُ إليه، وتَرَكُوا عُمَرَ. فقال: **مَنْ كانَ يعبُدُ محمَّدًا فإنَّ محمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كان يعبُدُ الله، فإنَّ الله حَيٌّ لا يَمُوتُ**، وتلا: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ** ﴾ [آل عمران:١٤٤] الآية. فاستيقَنَ النَّاسُ كلُّهم بموتِهِ، وكأنَّهُمْ لم يَسْمَعُوا هذه الآيةَ مِن قبلِ أَنْ يَتلُوَها أبو بكرٍ، فتلقَّاها النَّاسُ منه، فما يُسْمَعُ أحدٌ إلَّا يَتْلُوهَا[1].

▪ ▣ ▪ ▣ ▪

(١) البخاري (٤٤٥٤).

## وظيفة شهر رجب

خرَّجَا في (الصحيحين) من حديث أبي بَكْرَةَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ خَطَبَ في حَجَّةِ الوداعِ، فقال في خُطبتِهِ: «**إنَّ الزَّمَانَ قد اسْتَدَارَ كهيئتِهِ يومَ خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ، السَّنةُ اثنا عشرَ شهرًا؛ منها أربعةٌ حرمٌ: ثلاثةٌ متوالياتٌ: ذو القَعْدَةِ، وذو الحِجَّةِ، والمحرَّمُ، ورجَبُ مُضَرَ الذي بين جُمَادَى وشَعبانَ**»[1] وذكَرَ الحديثَ. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التوبة:٣٦].

فالسنةُ في الشرعِ مُقدَّرةٌ بسيرِ القمرِ وطلوعِهِ، لا بسَيْرِ الشمسِ وانتقالِها، كما يفعلُه أهلُ الكتابِ.

وجَعَلَ اللهُ تعالى من هذه الأشهرِ أربعةَ أشهرٍ حُرُمًا، وقد فَسَّرهَا النبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ، وَذَكَرَ أنَّهَا ثلاثةٌ متوالياتٌ؛ ذو القَعْدَةِ، وذو الحِجَّةِ، والمُحَرَّمُ، وواحدٌ فردٌ، وهو شهرُ رَجَب.

### إبطال الشيء الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه:

وقوله ﷺ: «**إنَّ الزَّمَانَ قد اسْتَدَارَ كهيئتِهِ يومَ خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ، السنةُ اثنا عشرَ شهرًا**» مُرادُه بذلك إبطالُ ما كانتِ الجاهليةُ تفعلُه من النَّسيءِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٣٧]. وقد اختُلِفَ في تفسيرِ النَّسيءِ، فقالت طائفة: كانوا يُبدِلُون بعضَ الأشهرِ الحُرُمِ بغيرِها مِنَ الأشهرِ، فيحرِّمُونها بدلَها، ويُحِلُّون ما أرادُوا تحليلَه من الأشهرِ الحُرُمِ إذا احْتَاجُوا إلى ذلك، ولكن لا يَزيدُون في عَددِ الأشهر الهلالية شيئًا.

**وقالت طائفةٌ أخرى**: بَلْ كانوا يَزيدونَ في عددِ شهورِ السَّنَةِ، وظاهِرُ الآيةِ يُشْعِرُ بذلك، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا﴾ [التوبة:٣٦] فذَكَرَ هذا توطئةً لِهَدْمِ النَّسِيءِ وإبطالِهِ.

(١) البخاري (٤٦٦٢)؛ ومسلم (١٦٧٩).

**حكم القتال في الأشهر الحرم:**

وقد شَرَعَ الله في أوّلِ الإسلام تحريمَ القتالِ في الشهرِ الحرام، قال تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة:٢]. وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة:٢١٧].

وقد اختلفَ العلماءُ في حُكمِ القتالِ في الأشهر الحُرُمِ؛ هل تحريمُهُ باقٍ أم نُسِخَ؛ فالجمهورُ على أنَّه نُسِخَ تحريمُه، ونصَّ على نسخِهِ الإمامُ أحمدُ وغيرُه من الأئمة. وذهب طائفةٌ من السَّلَف، منهم عطاءٌ، إلى بقاءِ تحريمِهِ، ورجَّحَهُ بعضُ المتأخِّرين واستدلُّوا بآية المائدةِ، والمائدةُ من آخرِ ما نَزَلَ من القرآنِ.

**من أحكام شهر رجب:**

**ويتعلَّقُ بشهر رجبَ أحكامٌ كثيرةٌ:**

**فمنها ما كان في الجاهليةِ، واختَلَفَ العلماءُ في استمراره في الإسلام،** كالقتالِ وقد سبق ذكرُه، وكالذَّبائحِ، فإنَّهم كانوا في الجاهلية يذبَحون ذبيحةً يسمُّونها العتيرةَ. واختلفَ العلماءُ في حكمِها في الإسلام؛ فالأكثرون على أن الإسلامَ أبطَلَها. وفي (الصحيحين) عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لا فَرَعَ[1] ولا عَتِيرَةَ**».

**ومن أحكام رجبٍ:** ما وَرَدَ فيه مِنَ الصَّلاةِ والزَّكَاةِ والصِّيامِ والاعتمار: **فأما الصَّلاةُ:** فلم يصحَّ في شهرِ رجبٍ صلاةٌ مخصوصَةٌ تختصُّ به، والأحاديث المرويَّةُ في فضل صلاةِ الرغائب في أولِ ليلةِ جمعةٍ من شهرِ رجبٍ كذبٌ وباطلٌ لا تصحُّ، وهذه الصَّلاةُ بِدْعَةٌ عند جُمهورِ العلماء.

**وأما الصِّيامُ:** فلم يصحَّ في فضلِ صومِ رجبٍ بخصوصِه شيءٌ عن النبي ﷺ، ولا عن أصحابِهِ.

**وأمَّا الزَّكاة:** فقد اعتادَ أهلُ هذه البلادِ إخراجَ الزَّكاةِ في شهرِ رجب، ولا أصلَ لذلك في السُّنَّةِ، ولا عُرِفَ عن أحدٍ من السَّلَفِ.

---

(١) الفَرَع: أول نتاج الإبل والغنم، وكان أهل الجاهلية يذبحونه تقربًا لأصنامهم وآلهتهم، فأبطل الإسلام ذلك. البخاري (٥٤٧٣)؛ ومسلم (١٩٧٦).

وأما الاعتمارُ في رجبٍ فقد رَوَى ابنُ عُمَرَ، رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ ﷺ اعتمَرَ في رجبٍ، فأنكَرتْ ذلك عائشةُ عليه، وهو يسمَعُ، فسكَتَ.

▪▣▪▣▪

# وظائف شهر شعبان

ويشتملُ على مجالس:

## المجلسُ الأول: في صيامِه

خرَّج الإمامُ أحمدُ والنّسائيُّ من حديث أسامَةَ بن زيد، قال: كان رسولُ الله ﷺ يَصُومُ الأَيَّامَ يَسرُدُ حتى نقولَ لا يُفطِرُ، ويُفطِرُ الأَيَّامَ حتَّى لا يكادُ يَصُومُ، إلَّا يومين من الجمُعةِ إن كانا في صيامه، وإلَّا صَامَهُمَا. ولَمْ يَكُنْ يَصُومُ مِن الشهور ما يَصُومُ من شعبانَ. فقلتُ: يا رسولَ الله، إنَّك تصومُ لا تكادُ تُفْطِرُ، وتُفطِرُ حتَّى لا تكادُ تَصُومُ إلَّا يومين إن دخلا في صيامِكَ وإلا صمتَهُما. قال: «**أيُّ يومين**»؟ قال: يومُ الاثنينِ، ويومُ الخميس. قال: «**ذانك يومانِ تُعرَضُ فيهما الأعمالُ على ربِّ العالمين، وأحِبُّ أن يُعرضَ عملي وأنا صائمٌ**». قُلْتُ: ولم أركَ تصومُ من الشهور ما تَصومُ مِن شعبانَ؟ قال: «**ذاك شهرٌ يَغْفُلُ الناسُ عنه بينَ رَجَبٍ ورمضانَ، وهو شهرٌ تُرفَعُ فيه الأعمالُ إلى ربِّ العالمين ﷻ، فأحبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَملي وأنا صائم**»[1].

### هدي النبي ﷺ في الصيام:

قد تضمَّنَ هذا الحديثُ ذكْرَ صيامِ رسولِ الله ﷺ من جميعِ السَّنةِ، وصيامَه من أيام الأسبوع، وصيامَهُ من شهورِ السَّنة.

**فأمَّا صيامُهُ من السنة** فكان يَسْرُدُ الصُّومَ أحيانًا والفِطْرَ أحيانًا، فيصومُ حتَّى يقالَ لا يُفطِرُ، ويُفطِرُ حتَّى يقالَ لا يَصُومُ. وقد رَوَى ذلك أيضًا عائشةُ وابنُ عباس وأنسٌ وغيرُهم. ففي (الصحيحين) عن عائشة ﵂، قالت: «**كان رسولُ الله ﷺ يصومُ حتَّى نقولَ: لا يُفْطِرُ، ويُفْطِرُ حتَّى نقولَ لا يَصُومُ**»[2].

وقد كان رسولُ الله ﷺ يُنكِرُ على مَنْ يَسْرُدُ صَوْمَ الدَّهْرِ ولا يُفطِرُ منه، ويخبرُ عن نفسه أنَّه لا يفعلُ ذلك. ففي (الصحيحين) عن عبد الله بن عمرٍو أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «**أتصومُ النَّهارَ وتقومُ اللَّيلَ**؟ قال: نعم، فقال النبيُّ ﷺ: **لكنِّي أصُومُ وأُفْطِرُ، وأصلِّي**

(١) أحمد (٢١٢٤٦)؛ والنسائي (٢٣٥٧).
(٢) البخاري (١٩٦٩)؛ ومسلم (١١٥٦).

**وأنامُ، وأَمَسُّ النِّسَاءَ، فمن رَغِبَ عن سُنَّتِي فليسَ مِنِّي»**[١].

فَمَنْ عذَّبَ نَفْسَهُ بأنْ حَمَّلَها ما لا تُطِيقُهُ من الصِّيام ونحوِه، فربَّما أَثَّرَ ذلك في ضَعْفِ بَدَنِهِ وعَقْلِهِ، فيفوتُهُ من الطَّاعاتِ الفاضِلَةِ أكثرُ ممَّا يحصُلُ له بتعذِيبه نفسَه بالصِّيامِ.

وكان النبيُّ ﷺ يتوسَّطُ في إعطاءِ نفسِه حقَّها ويَعدِلُ فيها غايَةَ العَدْلِ؛ فيصومُ ويُفطِرُ، ويَقُومُ ويَنامُ، وينكِحُ النِّسَاءَ، ويأكل ممَّا يَجِدُ مِنَ الطَّيِّباتِ، كالحلْواءِ، والعسَلِ ولحمِ الدَّجَاجِ. وتارةً يَجوعُ حتَّى يَربِطَ على بطنِهِ الحَجَرَ.

وقال ﷺ: «**أَحَبُّ العَمَلِ إلى اللهِ أَدْومُهُ، وإنْ قَلَّ**»[٢]. فمن عَمِلَ عملًا يَقْوَى عليه بَدنُهُ في طولِ عُمرِه، في قُوَّتِهِ وضَعفِهِ، اسْتَقَامَ سَيْرُهُ. وَمَنْ حَمَلَ مَا لَا يُطِيقُ؛ فإنَّه قد يَحدُثُ له مَرَضٌ يمنعُهُ مِنَ العَمَلِ بالكليَّةِ، وقد يَسْأَمُ وَيَضْجَرُ فيقطَعُ العَمَلَ، فيصيرُ كالمُنْبَتِّ[٣] لا أرضًا قَطَعَ ولا ظهرًا أبقَى.

**وأمَّا صيامُ النبي ﷺ من الأيام**، أعني أيامَ الأسبوع، فكانَ يتحرَّى صيامَ الاثنين والخميسِ. وكذا رُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ كان يتحرَّى صيامَ الاثنين والخميسِ[٤]. خرَّجَه الإمامُ أحمدُ، والنّسائيُّ، وابنُ ماجه، والترمذي وحسَّنَهُ.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرةَ مرفوعًا: «**تُفْتَحُ أبوابُ الجنَّةِ يومَ الاثنينِ ويومَ الخميسِ، فيُغفَرُ لِكُلِّ عبدٍ لا يُشْرِكُ بالله شيئًا، إلَّا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شَحْنَاءُ، يقولُ: أنظِرُوا هذين حتَّى يصطَلِحَا**»[٥].

وكان إبراهيمُ النَّخعِيُّ يبكي إلى امرأته يومَ الخميسِ وتبكي إليه، ويقولُ: اليومَ تُعْرَضُ أعمالُنا على الله عز وجل.

فهذا عَرْضٌ خاصٌّ في هذين اليومين غيرُ العَرْضِ العامِّ كلَّ يومٍ، فإنَّ ذلك عَرْضٌ دائمٌ كل يوم بُكْرَةً وعشِيًّا. ويدُلُّ على ذلك ما في (الصحيحين) عن أبي هريرة

---

(١) البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) مسلم (٧٨٢).

(٣) المنبت: المقطع في طريق السفر.

(٤) أحمد (٢٤٠٦٣)؛ والنسائي (٢٣٦٠).

(٥) مسلم (٢٥٦٥).

عن النبي ﷺ، قال: «يتعاقَبُونَ فيكم ملائكةٌ باللَّيْلِ، وملائكةٌ بالنَّهَارِ، فيجتمِعونَ في صلاةِ الصُّبحِ، وصَلاةِ العَصْرِ، فيسأَلُ الذين باتوا فيكم، وهو أعلمُ: كيفَ تركْتُم عِبادِي؟ فيقولون: أتيناهُم وهم يُصَلُّون، وتركْنَاهُم وهم يُصَلُّون»[١].

وفي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعريِّ، قال: «قام فينا رسولُ الله ﷺ بخمسِ كلماتٍ، فقال: إنَّ الله لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرفَعُه، يُرفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيلِ قبلَ النَّهَارِ، وعملُ النَّهارِ قبلَ اللَّيلِ، حجابُه النُّورُ، لو كَشَفَه لأحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وجهِهِ، ما انتهَى إليه بَصَرُه من خَلْقِه»[٢].

وأَمَّا صيامُ النبيِّ ﷺ من أشهرِ السَّنةِ؛ فكانَ يَصُومُ من شعبانَ ما لا يَصُومُ من غيرِهِ مِنَ الشهورِ. وفي الصحيحين عن عائشة ﵂ قالت: ما رأيْتُ رسولَ الله ﷺ استكمَلَ صيامَ شهرٍ قطُّ إلَّا رمضانَ، وما رأيتُه في شهرٍ أكثَرَ صيامًا منهُ في شَعْبَانَ[٣]. زاد البخاريُّ في رواية «كان يصُومُ شعبَانَ كلَّه»[٤] ولمسلمٍ في روايةٍ «كان يصومُ شعبانَ كلَّه، كانَ يَصُومُ شعبانَ إلَّا قليلًا»[٥]. وفي رواية للنسائي عن عائشة، قالت: كان أحبَّ الشُّهورِ إلى رَسولِ الله ﷺ أنْ يَصُومَ شعبانُ، كان يَصِلُه برمضَانَ[٦].

وقد رَجَّحَ طائفةٌ مِنَ العلماء؛ منهم ابنُ المبارك وغيرُهُ أنَّ النبيَّ ﷺ لم يستكمِلْ صِيامَ شعبانَ، وإنَّما كانَ يَصُومُ أكثرَهُ. ويشهدُ له ما في صحيح مسلمٍ عن عائشة ﵂، قالت: «ما علمته ـ يعني النبي ﷺ ـ صَامَ شهرًا كلَّه إلَّا رمضانَ»[٧].

وفي الصَّحيحين عن ابن عباسٍ، قال: «مَا صَامَ رسولُ الله ﷺ شهرًا كاملًا غيرَ رمضانَ»[٨]. وكان ابنُ عباس يكرَهُ أن يَصُومَ شهرًا كاملًا غيرَ رمضانَ.

---

(١) البخاري (٥٥٥)؛ ومسلم (٦٣٢).
(٢) مسلم (١٧٩).
(٣) البخاري (١٩٦٩)؛ ومسلم (١١٥٦).
(٤) البخاري (١٩٧٠).
(٥) مسلم (١١٥٦).
(٦) أحمد (٢٥٠٢١)؛ وأبو داود (٢٤٣١)؛ والنسائي (٢٣٥٠).
(٧) مسلم (١١٥٦).
(٨) البخاري (١٩٧١)؛ ومسلم (١١٥٧).

وقد ذَكَرَ النبيُّ ﷺ في حديثِ أسامةَ معنيين.

**أحدهما: أَنَّه شهرٌ يغفُلُ النَّاسُ عنه بينَ رجب ورمضانَ**؛ يُشير ﷺ إلى أنَّه لَمَّا اكتَنَفَه شهرانِ عظيمانِ؛ الشهرُ الحَرَامُ، وشهرُ الصِّيام، اشتَغَلَ النَّاسُ بهما عنه، فصارَ مغفولًا عنه. وكثيرٌ مِنَ النَّاسِ يَظُنُّ أنَّ صِيَامَ رجبٍ أفضَلُ من صيامِهِ لأَنَّه شهر حرام، وليس كذلك.

**وفيه دليلٌ على استحبابِ عمارةِ أوقاتِ غَفْلَةِ النَّاسِ بالطَّاعَةِ**، وأنَّ ذلك محبوبٌ لله ﷻ، كما كان طائفةٌ مِنَ السَّلَفِ يَستحبُّونَ إحياءَ ما بينَ العِشَاءَيْنِ بالصَّلاةِ، ويقولون: هي ساعةُ غَفْلَةٍ.

**وفي إحياءِ الوقتِ المَغْفُولِ عنه بالطَّاعَةِ فوائد:**

منها: **أَنَّه يكونُ أخفَى**، وإخفاءُ النَّوافِلِ وَإِسْرَارُها أفضَلُ، لا سيَّما الصيامُ؛ فإنَّه سِرٌّ بينَ العَبْدِ ورَبِّه، ولهذا قيل: إنه ليس فيه رياءٌ.

وكانوا يَستحِبُّون لمن صَامَ أن يُظهرَ ما يخفي به صيامَه. فعن ابن مسعودٍ أَنَّه قال: إذا أصبحتُم صيامًا فأصبِحُوا مُدَّهِنين. وقال قتادةُ: يُستحبُّ للصائم أنْ يدَّهِنَ حتَّى تذهَبَ عنه غُبْرَةُ الصِّيامِ.

ومنها: **أَنَّه أَشَقُّ على النُّفوسِ؛ وأفضَلُ الأعمالِ أشقُّها على النُّفُوسِ**، وسببُ ذلك أنَّ النُّفوسَ تتأسَّى بما تُشاهِدُه من أحوالِ أبناءِ الجنسِ، فإذا كَثُرَتْ يقظةُ النَّاسِ وطاعاتُهم كَثُرَ أهلُ الطَّاعَةِ؛ لكثرةِ المقتدينَ بهم، فسَهُلَتِ الطَّاعاتُ. وإذا كَثُرَتِ الغَفْلاتُ وأهلُها تأَسَّى بهم عُمومُ النَّاسِ، فَيَشُقُّ على نُفوسِ المتيقظينَ طاعاتُهم؛ لقلَّةِ مَن يَقْتَدُونَ بهم فيها.

وفي صحيح مسلم من حديث مَعْقِلِ بن يَسارٍ، عن النبي ﷺ قال: «**العِبَادَةُ في الهَرْجِ كالهجرةِ إليَّ**»[1].

ومنها: **أنَّ المنفردَ بالطَّاعةِ بين أهلِ المعاصي والغَفْلَةِ قد يُدْفَعُ به البَلاءُ عنِ النَّاسِ كُلِّهم**، فكأنَّه يحميهم ويُدافِعُ عنهم.

---

(١) مسلم (٢٩٤٨).

قال بعضُ السَّلف: ذاكِرُ الله في الغافلينَ كمثلِ الذي يَحمِي الفئةَ المنهزمَةِ، ولولا مَن يذكرُ الله في غَفْلَةِ النَّاسِ لهَلَكَ النَّاسُ.

ولَمَّا كانَ شعبانُ كالمقدِّمَةِ لرمضانَ شُرِعَ فيه ما يُشرَعُ في رمضانَ من الصِّيامِ وقراءةِ القرآنِ؛ ليحصُلَ التَّأهُّبُ لتلَقِّي رمضانَ، وترتاضَ النُّفوسُ بذلك على طاعةِ الرَّحمنِ.

مَضَى رَجَبٌ وما أحْسَنْتَ فيهِ ... وَهَذا شَهْرُ شَعْبَانَ المُبَارَكْ
فيا مَنْ ضَيَّعَ الأوقاتَ جَهْلًا ... بِحُرْمَتِها أفِقْ واحْذَرْ بَوَارَكْ
فسَوفَ تُفارِقُ اللذَّاتِ قَهْرًا ... ويُخْلِي الموتُ كُرْهًا منكَ دَارَكْ

▪▣▪▣▪

## المجلس الثاني: في ذكرِ نصفِ شعبانَ

خرَّجَ الإمامُ أحمدُ وأبوداودَ والترمذيُّ والنّسائيُّ وابنُ ماجه وابنُ حِبانَ في (صحيحه) والحاكمُ مِن حديث العَلاءِ بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «**إذا انتَصَفَ شعبانُ فَلَا تَصُوموا حتى رمضان**»[1]، وصحَّحه الترمذيُّ وغيرُه.

واختلفَ العلماءُ في صحةِ هذا الحديثِ، ثمَّ في العملِ به؛ فأمَّا تصحيحُهُ فصحَّحَهُ غيرُ واحدٍ، منهم الترمذيُّ وابنُ حِبانّ والحاكمُ والطَّحاوِيُّ وابنُ عبدِ البر، وتكلَّم فيه مَنْ هو أكبرُ من هؤلاء وأعلَمُ، وقالوا: هو حديثٌ مُنْكَرٌ؛ منهم عبدُ الرحمن بنُ مَهْدِي، والإمامُ أحمدُ، وأبو زُرعةَ الرازيُّ، والأثرمُ. وقال الإمامُ أحمدُ: لم يَرْوِ العلاءُ حديثًا أنكرَ منه، وردَّهُ بحديثِ «**لا تَقَدَّمُوا رَمضَانَ بِصومِ يوم أو يومين**»[2] فإنَّ مفهُومَه جوازُ التَّقدُّم بأكثَرَ مِن يومين. وقال الأثرمُ: الأحاديثُ كُلها تخالِفُهُ؛ يُشيرُ إلى أحاديثِ صِيامِ النبيِّ ﷺ شعبَانَ كلَّه وَوَصْلِهِ برمضانَ، ونهيِهِ عن التقدُّم على رمضانَ بيومين، فصارَ الحديثُ حينئذ شاذًّا مخالفًا للأحاديثِ الصَّحيحةِ. وقال الطَّحَاوِيُّ: هو منسوخٌ، وحكَى الإجماعَ على تركِ العَمَلِ بِهِ. وأكثرُ العلماءِ على أنَّه لا يُعمَلُ بِهِ، وقد أَخَذَ به آخرون؛ منهم

(١) أبو داود (٢٣٣٧)؛ والترمذي (٧٣٨).
(٢) البخاري (١٩١٤)؛ ومسلم (١٠٨٢).

الشافعيُّ وأصحابُه، ونَهَوْا عن ابْتِدَاءِ التطوُّعِ بالصِّيامِ بعدَ نصفِ شعبانَ لِمَنْ ليسَ لَهُ عادةٌ، ووافَقَهُم بعضُ المتأخرين مِن أصحابنا.

**ثمَّ اختلَفُوا في عِلَّةِ النَّهْيِ**؛ فمنهم من قال: خشيةَ أنْ يُزَادَ في صيام رَمضانَ ما ليسَ منه، وهذا بعيدٌ جدًّا فيما بعدَ النِّصْفِ، وإنَّما يُحتمَلُ هذا في التَّقدمِ بيومٍ أو يومين.

**ومنهم من قال:** النهيُ للتَّقوِّي على صيامِ رَمضانَ شفقةً أن يضعفَه ذلك عن صيامِ رَمضانَ.

فأمَّا صيامُ يوم النِّصف منه فغيرُ منهِيٍّ عنه، فإنَّه من جُملة أيَّام البيضِ الغُرِّ المندُوبِ إلى صيامِها مِن كُلِّ شهرٍ.

وفي فضلِ ليلة نصفِ شعبانَ أحاديثُ أُخَرُ متعدِّدَةٌ، وقد اختُلفَ فيها، فضعَّفَها الأكثرون.

### الذنوب تمنع المغفرة:

ويتعيَّن على المسلم أن يجتنبَ الذنوبَ التي تمنعُ من المغفرة وقبولِ الدعاء في كل وقتٍ كالشركِ، وقتلِ النفس، والزِّنا؛ وهذه الثلاثةُ أعظمُ الذنوب عندَ الله ﷻ، كما في حديث ابن مسعود المتَّفق على صحته، أنَّه سأل النبيَّ ﷺ: أيُّ الذَّنبِ أعظمُ؟ قال: «**أنْ تجعَلَ لله نِدًّا وهو خَلَقَك**». قال: ثم أيٌّ؟ قال: «**أن تقتُلَ ولدَكَ خَشْيَةَ أن يَطْعَمَ معك**». قال: ثم أيٌّ؟ قال: «**أن تُزانِيَ حَليلةَ جارِك**»[1]. فأنزلَ الله تعالى تصديقَ ذلك ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] الآية.

**ومن الذنوب المانعةِ من المغفرة أيضًا:** الشحناءُ، وهي حقدُ المسلم على أخيه بُغْضًا له؛ لهوى نفسِهِ، وذلك يمنعُ أيضًا من المغفرة في أكثر أوقاتِ المغفرةِ والرحمةِ؛ كما في (صحيح مسلم) عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**تُفتَحُ أبواب الجنَّةِ يومَ الاثنين والخميس، فيُغفَرُ لكُلِّ عبدٍ لا يُشْرِكُ بالله شيئًا، إلَّا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شَحْناءُ، فيقول: أنْظِروا هذين حتَّى يَصْطَلِحا**»[2].

---

(١) البخاري (٤٤٧٧)؛ ومسلم (٨٦).

(٢) مسلم (٢٥٦٥).

**سلامة الصدر من أفضل الأعمال:**

**فأفضلُ الأعمال:** سلامةُ الصَّدْرِ من أنواعِ الشَّحْنَاءِ كلِّها، **وأفضلُها السَّلامةُ من شحناءِ أهلِ الأهواءِ والبِدَعِ التي تقتضي الطَّعنَ على سَلَفِ الأمَّةِ، وبغضَهم والحقدَ عليهم، واعتقادَ تكفيرِهم أو تبديعِهم وتضليلِهم؛** ثم يلي ذلك سلامةُ القلب من الشَّحناءِ لعمومِ المسلمين، وإرادةُ الخيرِ لهم، ونصيحتُهم، وأن يُحبَّ لهم ما يُحِبُّ لنفسه.

وقد وَصَفَ اللهُ تعالى المؤمنين عمومًا بأنَّهم يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وفي (المسند) عن أنسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ، قال لأصحابه ثلاثةَ أيامٍ «**يطلُعُ عليكم الآن رَجُلٌ من أهلِ الجنَّةِ**» فيطلُعُ رجُلٌ واحدٌ، فاستضافَهُ عبدُ الله بنُ عمرٍو، فنامَ عندَه ثلاثًا لينظرَ عملَه، فلم يرَ له في بيته كبيرَ عملٍ، فأخبره بالحال، فقال له: هو ما ترى، إلَّا أني أبيتُ وليس في قلبي شيءٌ على أحدٍ من المسلمين. فقال عبدُ الله: بهذا بلغَ ما بَلَغَ[1]. وفي سُنن ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو، قال: «قيل: يا رسولَ اللهِ! أيُّ الناسِ أفضلُ؟ قال: «**كُلُّ مَخْمُومِ القَلْبِ، صدوقِ اللِّسانِ**». قالوا: صَدوقُ اللسانِ نعرفُه، فما مَخْمُومُ القَلْبِ؟ قال: «**هو التَّقِيُّ النَّقِيُّ الذي لا إثمَ فيه، ولا بَغْيَ، ولا غِلَّ، ولا حَسَدَ**»[2].

**قال بعضُ السَّلَفِ:** أفضلُ الأعمالِ سلامةُ الصُّدُورِ، وسخاوةُ النُّفوسِ، والنَّصِيحةُ للأمَّةِ؛ وبهذه الخصال بَلَغَ مَنْ بَلَغَ، لا بكثرةِ الاجتهادِ في الصَّوم والصَّلاةِ.

إخواني! اجتنبوا الذُّنوبَ التي تَحرِمُ العبدَ مغفرةَ مولاهُ الغفَّارِ في مواسمِ الرَّحمةِ والتوبةِ والاستغفار.

* **أمَّا الشِّرْكُ:** فإنَّه ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

* **وأما القتلُ:** فلو اجتمَعَ أهلُ السَّماواتِ وأهلُ الأرضِ على قتلِ رجلٍ مسلمٍ بغيرِ حقٍّ لأكَبَّهم اللهُ جميعًا في النارِ.

---

(١) أحمد (١٢٢٨٦).

(٢) ابن ماجه (٤٢١٦).

* وأمَّا الزِّنا: فَحَذارِ حَذارِ من التعرُّضِ لِسَخَطِ الجبَّارِ. الخَلْقُ كلُّهم عبيدُ الله وإماؤه، واللهُ تعالى يغارُ، لا أحَدَ أغيَرَ مِنَ الله أن يزنِيَ عبدُه أو تزنِيَ أمَتُه، فمن أجلِ ذلك حرَّم الفواحِشَ وأمَرَ بِغَضِّ الأبصار.

* وأمَّا الشَّحناءُ: فيا مَنْ أَضمَرَ لأخيهِ السُّوءَ وقَصَدَ له الإضرارَ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم:٤٢] يكفيكَ حِرمانُ المغفرةِ في أوقاتِ مَغفرة الأوزارِ.

قال بعضُ السَّلف: كم من مُستقبلٍ يومًا لا يستكملُه، ومن مُؤمّلٍ غدًا لا يدركُه، إنَّكم لو رأيتم الأجلَ ومسيرهُ لأبغضتُمُ الأمَلَ وغُرورَهُ.

## المجلس الثالث: في صيام آخر شعبان

ثبت في الصحيحين عن عمرانَ بن حُصين: أنَّ النبيَّ ﷺ قال لرجل: «هل صُمْتَ من سَرَرِ هذا الشهرِ شيئًا؟ قال: لا، قال: فإذا أفطرْتَ فَصُمْ يومين»[1]. وفي رواية للبخاري: أظنه يعني رمضانَ. وفي رواية لمسلم، وعلَّقها البخاري: «هَلْ صُمْتَ مِن سَرَرِ شعبانَ شيئًا؟». وفي رواية: «فإذا أفطرْتَ مِن رمضانَ فصُمْ يومين مكانه». وفي روايةٍ: يومًا أو يومين، شَكَّ شعبةُ.

وقد اختُلِفَ في تفسير السّرار، والمشهور أنَّه آخِرُ الشَّهرِ، وأشكَلَ هذا على كثيرٍ من العلماء؛ فإنَّ في (الصحيحين) أيضًا، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «لا تَقدَّموا رمضانَ بيومٍ أو يومين، إلَّا مَنْ كان يَصُومُ صومًا فليصُمْهُ»[2].

فقال كثيرٌ من العلماء، كأبي عبيد، ومن تابعَهُ، كالخطَّابي، وأكثرُ شُرَّاحِ الحديثِ: إنَّ هذا الرجلَ الذي سأله النبيُّ ﷺ كان يعلم أنَّ له عادةً بصيامِه، أو كان قد نَذَرَهُ، فلذلك أمرَهُ بقضائه. وقالت طائفة: حديثُ عِمرانَ يَدُلُّ على أنَّه يجوزُ صيامُ يومِ الشكِّ وآخِرِ شعبانَ مطلقًا، سواء وافقَ عادةً أو لم يوافق. وإنما يُنهَى عنه إذا صامَهُ بنيَّةِ الرَّمضانيةِ احْتِياطًا، وهذا مذهبُ مالك.

(١) البخاري (١٩٨٣)؛ ومسلم (١١٦١).
(٢) مسلم (١٠٨٢).

وأكثرُ العلماءِ على أَنَّه نَهْيٌ عن التقدُّمِ إِلَّا مَنْ كانت له عادةٌ بالتطوُّعِ فيه، وهو ظاهرُ الحديث. ولم يذكر أكثرُ العلماءِ في تفسيرِه بذلك اختلافًا، وهو الذي اختارَهُ الشافعيُّ في تفسيرِه ولم يرجِّحْ ذلك الاحتمالَ المتقدِّمَ. وعلى هذا فيرجَّحُ حديثُ أبي هريرةَ على حديثِ عِمرانَ؛ فإنَّ حديثَ أبي هريرةَ فيه نهيٌ عامٌّ للأمَّةِ عُمومًا، فهو تَشريعٌ عامٌّ للأمَّةِ، فيُعمَلُ به.

وأمَّا حديثُ عمرانَ فهي قضيَّةُ عينٍ في حقِّ رَجُلٍ مُعَيَّنٍ، فيتعيَّنُ حَمْلُهُ على صورة صيامٍ لا يُنهى عن التقدُّم به جمعًا بينَ الحديثين. وأحسنُ ما حُمِلَ عليه أنَّ هذا الرَّجُلَ الذي سأله النبيُّ ﷺ كان قد عِلِمَ منه ﷺ، أَنَّه كان يَصُومُ شعبانَ أو أكثَرَهُ موافقةً لِصيامِ النبيِّ ﷺ، وكان قد أفطَرَ فيه بعضَه، فسأله عن صيامِ آخِره، فلمَّا أخبَرَهُ أَنَّه لم يَصُمْ آخِرَه أمَرَه بأن يَصُومَ بَدَلَه بعدَ يومِ الفطرِ؛ لأنَّ صيامَ أوَّلِ شوالٍ كصيامِ آخِرِ شعبانَ، وكلاهما حَريمٌ[1]، لرمضانَ. وفيه دليلٌ على استحباب قضاءِ ما فاتَ من التطوُّعِ بالصيامِ، وأن يكونَ في أيامٍ مُشابهةٍ للأيَّامِ التي فات فيها الصِّيامُ في الفَضْلِ.

وفي الجملة فحديثُ أبي هريرة هو المعمولُ به في هذا الباب عندَ كثيرٍ من العلماءِ، وأَنَّه يُكره التقدُّمُ قبلَ رمضانَ بالتطوُّعِ بالصيامِ بيومٍ أو يومين لمن ليس له به عادةٌ، ولا سَبَقَ منه صيامٌ قبلَ ذلك في شعبانَ متصلًا بآخِرِه.

### أسباب النهي عن تقدم رمضان بالصيام:

ولكراهة التقدُّم ثلاثةُ معانٍ:

* أحدها: أَنَّه على وجهِ الاحتياطِ لرمضانَ، فيُنهى عن التقدُّمِ قبلَه؛ لئلَّا يزادَ في صيامِ رمضانَ ما ليس منه، كما نُهِي عن صيامِ يومِ العيدِ لهذا المعنى، حَذَرًا مِمَّا وَقَعَ فيه أهلُ الكتابِ في صيامهم، فزادوا فيه بآرائهم وأهوائهم.

ومع هذا فكان من السَّلفِ مَنْ يتقَدَّمُ للاحتياطِ، والحديثُ حجَّةٌ عليه، ولهذا نُهِي عن صيامِ يوم الشكِّ. قال عمَّار: مَنْ صامَهُ فقد عَصَى أبا القاسم ﷺ.

ويومُ الشكِّ: هو اليومُ الذي يُشَكُّ فيه؛ هل هو من رمضانَ أو غيره؟

---

(١) حريم لرمضان: أي ملازم له.

**فأمَّا يومُ الغيمِ**: فمِنَ العُلماءِ مَنْ جَعَلَه يومَ شكٍّ ونهى عن صيامِهِ، وهو قولُ الأكثرينَ.

* **والمعنى الثاني: الفَصْلُ بين صيام الفرض والنَّفْل**؛ فإنَّ جنسَ الفصلِ بينَ الفرائض والنَّوافِلِ مشروعٌ، ولهذا حَرُمَ صِيامُ يومِ العيد.

* **المعنى الثالث: أنَّه أمرَ بذلك؛ للتقوِّي على صيامِ رمضانَ**؛ فإنَّ مُواصَلَةَ الصِّيامِ قد تُضعِفُ عن صيامِ الفَرْضِ، فإذا حصل الفِطرُ قبلَه بيوم أو يومين كان أقربَ إلى التقوِّي على صيام رَمضانَ. وفي هذا التعليل نظرٌ، فإنَّه لا يُكرَهُ التقدُّمُ بأكثرَ من ذلك، ولا لمن صام الشهر كلَّه، وهو أبلغُ في معنى الضَّعف، لكنَّ الفطر بنيَّةِ التقوِّي لصيام رمضانَ حَسَنٌ لمن أضعفَه مُواصلَةُ الصيامِ، كما كان عبدُالله بن عمرو بن العاص يسرُدُ الفِطرَ أحيانًا، ثم يسرُدُ الصَّوْمَ ليتقوَّى بفطرِه على صَوْمِهِ. ومنه قولُ بعضِ الصَّحابة: إنِّي أحتسِبُ نَوْمَتِي كما أحتسِبُ قَوْمتِي.

**قال بعضُ السَّلف**: صُمِ الدُّنيا واجْعَلْ فِطرَكَ الموتَ. الدُّنيا كلُّها شهرُ صيام المتقينَ، يَصُومون فيه عن الشَّهواتِ المُحرَّماتِ، فإذا جاءَهُم الموتُ فقد انقضى شهرُ صيامِهم واستهلُّوا عيدَ فطرِهم.

بُلوغُ شهرِ رمضانَ وصيامُه نِعمةٌ عظيمةٌ على مَن أَقدَرَهُ اللهُ عليه، ويدُلُّ عليه حديثُ الثلاثةِ الذين اسْتُشْهِدَ اثنان منهم، ثم مات الثالثُ على فراشِهِ بعدَهما، فرؤي في المنام سابقًا لهما، فقال النبيُّ ﷺ: «**أليس صَلَّى بعدَهما كذا وكذا صلاةً، وأدرَكَ رمضانَ فصامَه، فوالذي نفسي بيده، إنَّ بينَهما لأبعدَ مِمَّا بينَ السَّماءِ والأرضِ**»[1]. خرَّجه الإمامُ أحمدُ وغيرُه.

مَن رُحِمَ في شهر رمضانَ فهو المرحومُ، ومَنْ حُرِمَ خيرُه فهو المحرومُ، وَمَنْ لم يتزوَّدْ فيه لِمَعَادِهِ فهو ملوم.

أَتَى رَمَضَانُ مَزْرَعَةُ العِبَادِ ... لِتطهيرِ القُلُوبِ مِنَ الفَسَادِ
فَأَدِّ حُقُوقَهُ قَوْلًا وفِعْلًا ... وَزَادَكَ فاتَّخِذْهُ لِلْمَعَادِ
فَمَنْ زَرَعَ الحُبُوبَ وَمَا سَقَاهَا ... تَأَوَّه نادِمًا يَوْمَ الحَصَادِ

---

(١) أحمد (١٤٠٦).

# وظائف شهر رمضان المعظم

وفيه مجالس:

## المجلسُ الأول: في فضلِ الصيامِ

ثبتَ في (الصحيحين) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ، قال: «كلُّ عَمَلِ ابنِ آدمَ له؛ الحسنةُ بِعَشْرِ أمثالِها إلى سَبعمائةِ ضِعْفٍ، قال الله ﷻ: إلَّا الصِّيَامَ فإنَّه لي وأنا أَجْزي به، إنَّه تَرَكَ شهوتَه وطعامَه وشرابَه من أجلي. للصَّائمِ فرحتانِ: فَرْحَةٌ عند فطرِه، وَفَرْحَةٌ عندَ لِقَاءِ ربِّه، ولَخُلُوفُ فَمِ الصائمِ أطيبُ عندَ الله من ريحِ المِسْكِ»[1].

**أسباب مضاعفة الأجر للأعمال:**

واعلَمْ أنَّ مضاعفةَ الأجرِ للأعمالِ تكونُ بأسبابٍ؛ منها: **شَرفُ المكانِ المعمولِ** فيه ذلك العملُ، كالحَرَم. ولذلك تُضَاعَفُ الصَّلاةُ في مسجدَيْ مكَّةَ والمدينةِ. كما ثَبَتَ ذلك في الحديث الصحيح عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: «**صلاةٌ في مَسْجِدِي هذا خيرٌ من ألفِ صَلاةٍ فيما سِواهُ مِنَ المساجدِ إلَّا المَسْجِدِ الحَرَامَ**»[2].

ومنها: **شرفُ الزمانِ**، كشهر رمضانَ وعشر ذي الحجة.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ، قال: «**عُمْرَةٌ في رمضانَ تَعْدِلُ حجَّةً**»[3]، أو قال: «**حَجَّةً معي**».

فلمَّا كانَ الصِّيامُ في نفسِهِ مضاعَفًا أجرُهُ بالنسبة إلى سائرِ الأعمالِ، كانَ صِيامُ شهرِ رَمَضانَ مُضَاعَفًا على سائرِ الصِّيام؛ لِشَرفِ زَمَانِهِ، وكونِهِ هو الصَّومُ الذي فَرَضَهُ اللهُ على عبادِهِ، وجَعَلَ صيامَهُ أحَدَ أركانِ الإسلامِ التي بُني الإسلامُ عليها.

وقد يُضاعَفُ الثَّوابُ بِأَسبابٍ أُخَرَ؛ منها: **شرفُ العامِلِ عندَ الله وقُرْبُهُ منه**، وكثرةُ تَقواهُ، كما ضُوعِفَ أجرُ الأمَّةِ على أجورِ مَنْ قبلَهم من الأممِ، وأُعْطُوا كِفْلَيْنِ مِنَ الأجْرِ.

---

(١) البخاري (١٩٠٤)؛ ومسلم (١١٥١).
(٢) البخاري (١١٩٠)؛ ومسلم (١٣٩٤).
(٣) البخاري (١٨٦٣)؛ ومسلم (١٢٥٦).

**علة تخصيص الله تعالى الصيام بإضافته إلى نفسه:**

**وأما قوله:** «فإنَّه لي»، فإنَّ الله خَصَّ الصِّيامَ بإضافته إلى نفسِهِ دونَ سائرِ الأعمالِ، وقد كَثُر القولُ في معنى ذلك من الفقهاءِ والصُّوفية وغيرهم، وذَكَروا فيه وُجوهًا كثيرةً. ومن أحسنِ ما ذُكِرَ فيه وجهان:

* أحدُهما: **أنَّ الصِّيامَ هو مُجَرَّدُ تَرْكِ حُظُوظِ النَّفْسِ وَشَهَواتِها الأصليةِ** التي جُبِلَتْ على الميل إليها لله ﷻ، ولا يوجدُ ذلك في عبادةٍ أخرى غير الصِّيام؛ لأنَّ الإحرامَ إنَّما يُترَكُ فيه الجماعُ ودواعيهِ من الطِّيبِ دونَ سائرِ الشَّهواتِ؛ من الأكل والشربِ، وكذلك الاعْتِكافُ مع أنَّه تابعٌ للصِّيام.

**وأمَّا الصَّلاةُ** فإنَّه وإنْ تَرَكَ المصلِّي فيها جميعَ الشهواتِ إلَّا أنَّ مدَّتها لا تَطولُ، فلا يَجِدُ المصلِّي فَقْدَ الطَّعامِ والشرابِ في صلاتِهِ، بل قد نُهِيَ أنْ يُصَلِّي ونفسُه تتوقُ إلى طعامٍ بحضرتِهِ حتى يتناولَ منه ما يُسَكِّنُ نَفْسَه، ولهذا أُمِرَ بتقديمِ العَشاءِ على الصَّلاةِ.

**وهذا بخلافِ الصِّيام؛ فإنَّه يَسْتَوعِبُ النَّهارَ كُلَّه**، فيجِدُ الصَّائمُ فَقْدَ هذه الشهواتِ، وتتوقُ نفسُه إليها، خصوصًا في نهارِ الصَّيفِ؛ لشدَّةِ حرِّهِ وطُولِه، فإذا اشتدَّ توقانُ النَّفْسِ إلى ما تشتهيه مع قدرتها عليه، ثم تركَتْهُ لله ﷻ في موضعٍ لا يَطَّلِعُ عليه إلا اللهَ، كانَ ذلك دليلًا على صحَّةِ الإيمانِ؛ فإنَّ الصَّائمَ يعلَمُ أنَّ له ربًّا يَطَّلِعُ عليه في خَلْوته، وقد حرَّم عليه أن يتناولَ شهواتِه المجبولَ على الميلِ إليها في الخَلوةِ، فأطاعَ ربَّه، وامْتَثَلَ أمرَهُ، واجْتَنَبَ نهيَهُ خوفًا من عقابه، ورَغبةً في ثوابِهِ، فشَكَرَ اللهُ تعالى له ذلك، واخْتَصَّ لنفسِه عملَهُ هذا من بين سائرِ أعمالِهِ؛ ولهذا قال بعد ذلك: «**إنَّه إنَّما تَرَكَ شهوتَهُ وطعامَهُ وشَرَابَهُ من أَجْلِي**». قال بعضُ السَّلَف: طُوبَى لمن تَرَكَ شهوةً حاضِرَةً لموعِدِ غيبٍ لم يَرَهُ.

**ولهذا أكثر المؤمنين لو ضُرِبَ على أن يُفطِرَ في شهرِ رَمَضَانَ لغير عُذْرٍ لم يفعَلْ؛ لعلمه بكراهةِ اللهِ لفطره في هذا الشهر**، وهذا من علاماتِ الإيمانِ أن يكرَهَ المؤمنُ ما يلائمُهُ مِنْ شهواتِهِ إذا عَلِمَ أنَّ الله يكرهَهُ، فتصيرُ لَذَّتُه فيما يُرضي مَولاهُ وإنْ كانَ مخالفًا لِهواهُ، ويكونُ أَلَمُهُ فيما يَكرهُهُ مولاهُ، وإن كان موافقًا لِهواهُ، وإذا كان هذا فيما حُرِّمَ لِعَارِضِ الصَّومِ مِنَ الطَّعَامِ والشرابِ ومباشرةِ النساءِ، فينبغي أنْ يتأكَّدَ ذلك فيما حُرِّمَ على الإطلاقِ، كالزِّنَا، وشُرْبِ الخمر، وأخذِ الأموالِ أو الأَعْراضِ بغيرِ حَقٍّ، وسَفْكِ

الدِّمَاء المحرَّمةِ؛ فإنَّ هذا يُسْخِطُ اللهَ على كُلِّ حالٍ وفي كلِّ زُمانٍ ومكانٍ، فإذا كَمُلَ إيمانُ المؤمنِ كَرِهَ ذلك كُلَّه أعظَمَ مِن كراهتِهِ للقتلِ والضَّرْبِ، ولهذا جَعَلَ النبيُّ ﷺ من علاماتِ وُجودِ حَلَاوةِ الإيمان: «**أَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَرجعَ إلى الكُفْرِ بعدَ أَنْ أنقذَهُ الله، كما يَكرَهُ أَنْ يُلْقَى في النَّار**»(١).

وقال يوسفُ عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣].

* **الوجه الثاني: أنَّ الصِّيامَ سِرٌّ بينَ العبد وربِّه لا يَطَّلِعُ عليه غيرُه**؛ لأنه مُركَّبٌ من نِيَّةٍ باطنةٍ لا يطَّلِعُ عليها إلَّا اللهُ، وتركٍ لتناولِ الشهواتِ التي يُستخفَى بتناولها في العادة، ولذلك قيلَ: لا تكتبه الحَفَظَةُ. وقيل: إنَّه ليس فيه رياءٌ، كذا قاله الإمامُ أحمدُ وغيرُه.

واللهُ تعالى يُحِبُّ مِن عبادِهِ أَنْ يَعَامِلُوه سرًّا بينَهم وبينَه، وأهلُ محبَّتِه يُحِبُّون أَنْ يُعامِلُوه سرًّا بينَهم وبينَه، بحيثُ لا يطَّلِعُ على معاملتهم إيَّاه سواهُ، حتَّى كان بعضُهم يَوَدُّ لو تمكَّنَ من عبادةٍ لا تشعرُ بها الملائكةُ الحَفَظَةُ.

**وفي التقرُّبِ بتركِ هذه الشهوات بالصيامِ فوائد:**

١- منها: **كسرُ النفْس**؛ فإنَّ الشِّبَعَ والرِّيَّ ومباشَرَةَ النِّسَاءِ تحمِلُ النفسَ على الأَشَرِ وَالبَطَرِ والغَفْلَةِ.

٢- ومنها: **تَخلِّي القلبِ للفكرِ والذِّكْرِ**؛ فإنَّ تناولَ هذه الشهوات قد تُقسِّي القَلْبَ وتُعمِيه، وتَحُولُ بينَ العبدِ وبينَ الذِّكْرِ والفِكْرِ، وتستدعِي الغَفْلَةَ. وخُلوُّ الباطِنِ من الطعامِ والشرابِ يُنَوِّرُ القلبَ ويُوجِبُ رِقَّتَه ويُزِيلُ قَسْوَتَه ويُخليه للذكرِ والفكرِ.

٣- ومنها: **أنَّ الغنيَّ يَعرِفُ قَدْرَ نعمةِ اللهِ عليه بإِقْدارِهِ** له على ما منعه كثيرًا من الفقراءِ من فُضُولِ الطَّعامِ والشراب والنِّكاحِ.

٤- ومنها: **أنَّ الصِّيامَ يُضَيِّقُ مَجارِيَ الدَّم** التي هي مَجاري الشيطانِ من ابنِ آدمَ؛ فتسكنُ بالصِّيامِ وَسَاوسُ الشَّيْطانِ، وتنكسِرُ سَوْرَةُ الشهوةِ والغَضَبِ.

**وجوب ترك المحرمات:**

واعْلَمْ أنَّه لا يَتِمُّ التقرُّبُ إلى الله تعالى بترْكِ هذه الشهواتِ المباحةِ في غيرِ حالةِ

(١) البخاري (٢١)؛ ومسلم (٤٣).

الصِّيامِ إلا بعدَ التقرُّب إليه بتركِ ما حرَّمه اللهُ في كُلِّ حالٍ؛ مِن الكذبِ والظلمِ والعدوانِ على الناس في دمائهم وأموالِهم وأعراضِهم، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ والعَمَلَ به، فليسَ لله حاجةٌ في أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وشَرَابَهُ**»(١). خرَّجَه البخاريُّ. وفي حديث آخرَ: «**ليسَ الصِّيامُ مِنَ الطَّعامِ والشرابِ، إنَّما الصِّيام من اللغو والرَّفث**»(٢). قال الحافظ أبو موسى المديني: هو على شرط مسلم.

**قال بعضُ السَّلف:** أهونُ الصِّيام تركُ الشراب والطعام.

**وقال النبيُّ ﷺ: «ربَّ صائمٍ حظُّه مِن صيامِه الجوعُ والعطشُ، ورُبَّ قائمٍ حظُّه من قيامِهِ السَّهَرُ»**(٣).

## فرحتا الصائمين:

**وقوله ﷺ: «وللصَّائم فَرْحَتَانِ: فرحةٌ عند فِطْرِهِ، وفَرْحَةٌ عند لقاء رَبِّه»: أَمَّا فَرْحَةُ الصَّائم عند فطرِهِ**، فإن النفوس مجبُولةٌ على الميل إلى ما يلائمها من مطعَمٍ ومشربٍ ومنكحٍ، فإذا مُنِعَتْ من ذلك في وقتٍ من الأوقات، ثم أُبيحَ لها في وقتٍ آخر، فرِحَتْ بإباحةِ ما مُنِعت منه، خصوصًا عند اشتداد الحاجة إليه؛ فإنَّ النفوسَ تفرحُ بذلك طبْعًا.

**وأَمَّا فرحُهُ عند لقاءِ رَبِّه**، ففيما يجدُه عند اللهِ من ثوابِ الصِّيام مُدَّخرًا، فيجدُه أحوجَ ما كان إليه، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل:٢٠]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران:٣٠]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧].

## الصائمون على طبقتين:

**إحداهما:** مَنْ تَركَ طعامَهُ وشرابَهُ وشهوتَه لله تعالى، يرجو عندَه عِوَضَ ذلك في الجنة، فهذا قد تاجَرَ مع الله وعامَلَهُ، واللهُ تعالى لا يُضيع أَجْرَ من أحسَنَ عملًا، ولا يخيبُ معه مَن عامله، بل يربحُ عليه أعظمَ الرِّبْح. وقال رسولُ الله ﷺ لرجُلٍ: «**إنَّك لن**

(١) البخاري (١٩٠٣).
(٢) المستدرك (١/ ٥٩٥).
(٣) أحمد (٨٦٣٩)؛ وابن ماجه (١٦٩٠).

تدعَ شيئًا اتِّقاءَ اللهِ إلَّا آتاك الله خيرًا منه»(١) خرَّجه الإمام أحمد. فهذا الصَّائمُ يُعطَى في الجنة ما شاءَ الله من طعامٍ وشرابٍ ونساءٍ، قال الله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤]. قال مجاهد وغيرُه: نزلَتْ في الصائمين.

وفي (الصحيحين) عن النَّبِيِّ ﷺ، قال: «**إنَّ في الجنَّة بابًا يُقال له: الرَّيَّانُ، يدخُلُ منه الصَّائمون، لا يدخُلُ منه غَيْرُهُم**»(٢). وفي رواية: «**فإذا دَخَلُوا أُغْلِقَ**»(٣).

* **الطبقة الثانية من الصائمين**: مَن يصومُ في الدنيا عمَّا سِوى الله، فيحفظ الرأس وما حَوَى، ويحفظ البطنَ وما وَعَى، ويذكر الموتَ والبِلَى، ويريد الآخرة فيترك زينة الدنيا. فهذا عيدُ فطره يومَ لقاء رَبِّه وفرحه برؤيته.

قوله ﷺ: «**ولَخُلوفُ فمِ الصَّائم أطيبُ عند الله من ريح المِسْكِ**»، خُلُوفُ الفم: رائحةُ ما يتصاعَدُ منه من الأبخرةِ؛ لخلوِّ المِعدَة من الطعامِ بالصِّيام. وهي رائحةٌ مستكرهةٌ في مشامِّ النَّاس في الدُّنيا، لكنَّها طيِّبةٌ عندَ الله، حيثُ كانت ناشئةً عن طاعتِه، وابتغاءِ مرضاتِه. كما أنَّ دَمَ الشهيد يجيء يومَ القيامة يَثْعَبُ دمًا(٤)، لونُه لونُ الدَّم، وريحُه ريحُ المِسْكِ.

▪ ▣ ▪ ▣ ▪

## المجلسُ الثاني: في فضل الجودِ في رمضان، وتلاوة القرآن

في (الصحيحين) عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: «**كان النَّبِيُّ ﷺ أجوَدَ النَّاسِ، وكان أجوَدَ ما يكونُ في رَمَضَانَ حين يلقاهُ جِبريلُ فيدارِسُهُ القرآنَ، وكان جِبريلُ يلقاهُ في كُلِّ ليلةٍ من رَمَضَانَ فيدارِسُهُ القرآن؛ فلَرَسُولُ الله ﷺ حين يلقاهُ جبريلُ أجوَدُ بالخَيْرِ من الرِّيح المُرْسَلَة**»(٥).

فالله سبحانه وتعالى أجودُ الأجودين، وجُودُهُ يتضاعَفُ في أوقاتٍ خاصَّةٍ، كشهرِ

---

(١) أحمد (٢٠٢٢٢).

(٢) البخاري (١٨٩٦)؛ ومسلم (١١٥٢).

(٣) البخاري (١٨٩٦).

(٤) يثعب دمًا: أي يسيل.

(٥) البخاري (٦)؛ ومسلم (٢٣٠٨).

رمضانَ، وفيه أُنْزِلَ قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

وفي الحديث الذي خرَّجه الترمذيُّ وغيرُه «**أنَّه يُنادِي فيه منادٍ: يا باغيَ الخَيْرِ هَلُمَّ، ويا باغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، ولله عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ، وذلك كُلَّ ليلةٍ**»[١].

**أنواع جود النبي ﷺ:**

**وكان جودُهُ ﷺ بجميع أنواعِ الجُودِ،** مِنْ بذْلِ العِلْمِ والمالِ، وبذْلِ نفسِه لله تعالى في إظهارِ دينه وهدايةِ عِباده، وإيصال النفع إليهم بكُلِّ طريقٍ؛ من إطعام جائعهم، ووعظ جاهِلِهم، وقضاءِ حوائجهم، وتحمُّلِ أثقالهم.

**ولم يزَلْ ﷺ على هذه الخصال الحميدة منذ نَشَأَ،** ولهذا قالت له خديجةُ في أوَّلِ مبعثِه: والله، لا يُخزيك الله أبدًا، إنَّك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتحمِلُ الكَلَّ[٢]، وتُكسِبُ المَعدومَ[٣]، وتُعِينُ على نوائب الحَقِّ[٤].

ثم تزايَدَتْ هذه الخصال فيه بَعْدَ البعثةِ وتضاعَفَتْ أضعافًا كثيرةً.

وفي (الصحيحين) عن أنس، قال: «**كان رسولُ الله ﷺ أحسَنَ النَّاسِ، وأَشْجَعَ النَّاسِ، وأَجْوَدَ الناس**»[٥]. وفي (صحيح مسلم) عنه، قال: «ما سُئِلَ رسُولُ اللهِ ﷺ على الإسلام شيئًا إلَّا أَعْطَاهُ، فجاءَهُ رَجُلٌ فأعطاه غَنَمًا بين جبَلين، فَرَجَعَ إلى قَوْمِهِ، فقال: يا قومِ، أَسْلِموا؛ فإنَّ محمَّدًا يُعطِي عَطَاءَ مَنْ لا يَخْشَى الفَاقَةَ»[٦].

وفيهما عن جابرٍ، قال: «**ما سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ شيئًا فقال: لا**»[٧].

وكان يؤثر على نفسه وأهلِهِ وأولادِهِ، فيعطي عطاءً يعجِزُ عنه الملوكُ مثل كسرى وقيصر، ويعيشُ في نفسه عيشَ الفقراءِ، فيأتي عليه الشهرُ والشهران لا يوقَدُ في بيته نارٌ،

---

(١) الترمذي (٦٨٢).

(٢) **تحمل الكلّ:** تنفق على الضعيف واليتيم.

(٣) **تكسب المعدوم:** تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك.

(٤) **تعين على نوائب الحق:** تعين الناس في كوارثهم ومصائبهم.

(٥) البخاري (٢٨٢٠)؛ ومسلم (٢٣٠٧).

(٦) مسلم (٢٣١٢).

(٧) البخاري (٦٠٣٤)؛ ومسلم (٢٣١١).

وكان جودُه ﷺ يتضاعَفُ في شهر رمضان على غيره من الشهور، كما أنَّ جُودَ رَبِّه يتضاعَفُ فيه أيضًا، فإنَّ الله جَبَلَه على ما يُحبُّه من الأخلاق الكريمة، وكان على ذلك من قبل البعثة.

وفي تضاعُفِ جُودِهِ ﷺ في شهر رمضان بخصوصِه فوائدُ كثيرة:

* **منها: شرفُ الزمان، ومضاعفَةُ أجرِ العَمَلِ فيه.** وفي الترمذي عن أنس مرفوعًا: «**أفضَلُ الصَّدَقَةِ صَدَقَةٌ في رمضان**»[1].

* **ومنها: إعانة الصَّائمين والقائمين والذَّاكرين على طاعاتهم،** فيستوجبُ المعينُ لهم مثلَ أجرِهم، كما أنَّ مَنْ جهَّز غازيًا فقد غَزَا، ومَن خَلَفَهُ في أهله فقد غزا.

وفي حديث زيد بن خالد عن النبي ﷺ، قال: «**مَنْ فَطَّرَ صائمًا فلهُ مِثْلُ أجْرِهِ، من غير أن يَنْقُصَ من أجرِ الصَّائم شيءٌ**»[2]. خرَّجه الإمام أحمد، والنسائيُّ، والترمذيُّ، وابن ماجه.

* **ومنها: أنَّ شهرَ رمضانَ شهرٌ يجودُ الله فيه على عبادِه بالرَّحمة والمغفرةِ** والعِتْقِ من النار، لا سيما في ليلة القَدْرِ. والله تعالى يرحَمُ من عبادهِ الرُّحَماءَ، كما قال ﷺ: «**إنَّما يرحَمُ اللهُ مِن عبادِهِ الرُّحَماء**»[3]. فمَن جاد على عبادِ الله جادَ الله عليه بالعطاءِ والفضلِ؛ والجزاءُ مِن جنسِ العمَلِ.

* **ومنها: أنَّ الجمعَ بين الصِّيام والصَّدقةِ من موجباتِ الجنَّةِ،** كما في حديثِ عليٍّ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ في الجنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظُهُورُها من بُطونِها، وبطونُها من ظُهورِها**». قالوا: لمن هي يا رسولَ الله؟ قال: «**لمن طيَّب الكلام، وأطعَمَ الطَّعامَ، وأدامَ الصِّيام، وصلَّى بالليل والنَّاسُ نيام**»[4].

وهذه الخصال كلُّها تكون في رمضانَ، فيجتمع فيه للمؤمن الصِّيامُ، والقيامُ؛ والصَّدَقةُ، وطيبُ الكلام؛ فإنَّه يُنهى فيه الصَّائمُ عن اللَّغْوِ والرَّفَثِ.

---

(١) الترمذي: (٦٦٣).
(٢) أحمد (١٦٥٨٥)؛ والترمذي (٨٠٧).
(٣) البخاري (١٢٨٤)؛ ومسلم (٩٢٣).
(٤) أحمد (١٣٤٠)؛ والترمذي (١٩٨٤).

* **ومنها: أنَّ الجمعَ بين الصِّيامِ والصَّدقة أبلغُ في تكفيرِ الخطايا واتقاءِ جهنَّم والمباعدةِ عنها،** وخُصُوصًا إن ضَمَّ إلى ذلك قيام الليل. فقد ثَبَتَ عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**الصِّيامُ جُنَّةٌ**»[١]. وفي رواية: «**جُنَّةُ أحدِكُم مِن النَّارِ كَجُنَّتِهِ مِنَ القِتال**»[٢]. وفي حديث معاذٍ عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**الصَّدَقَةُ تُطفِئُ الخطِيئةَ كما يُطفئُ الماءُ النَّارَ. وقيامُ الرَّجُلِ من جَوْفِ الليل**»[٣]، يعني أنه يطفئُ الخطيئةَ أيضًا.

* **ومنها: أنَّ الصِّيام لا بدَّ أن يقَعَ فيه خلَلٌ ونَقْصٌ**؛ وتكفيرُ الصِّيام للذنوب مشروطٌ بالتحفُّظ مِمَّا ينبغي التحفُّظُ منه؛ وعامَّةُ صيامِ النَّاسِ لا يجتمعُ في صومه التحفُّظُ كما ينبغي، فالصَّدَقَةُ تجبرُ ما فيه من النقصِ والخللِ، ولهذا وجَبَ في آخِرِ شهرِ رمضانَ زكاةُ الفِطْرِ طُهرةً للصَّائم من اللغو والرَّفَثِ.

* **ومنها: أنَّ الصَّائم يَدَعُ طعامَه وشرابَه لله، فإذا أعان الصَّائمين على التقوِّي على طعامهم وشرابهم كان بمنزلة مَن تَرَكَ شهوةً لله، وآثر بها، أو واسَى منها.** ولهذا يُشْرَع له تفطيرُ الصُّوَّام مَعَهُ إذا أفطَرَ؛ لأنَّ الطَّعام يكون محبوبًا له حينئذ، فيواسي منه، حتى يكونَ ممن أطعَمَ الطَّعام على حبِّه، ويكونُ في ذلك شكرٌ لله على نعمةِ إباحة الطَّعامِ والشَّرَابِ له، وَرَدِّه عليه بَعْدَ منعه إيَّاهُ؛ فإنَّ هذه النِّعمةَ إنما عُرِفَ قدرُها عند المَنْعِ منها.

* **وسئل بعضُ السَّلف:** لِمَ شُرِعَ الصِّيام؟ قال: ليذوقَ الغنيُّ طعمَ الجُوعِ فلا ينسى الجائعَ.

وكان ابنُ عُمَرَ يصومُ، ولا يُفطِرُ إلَّا مع المساكين، فإذا منعهم أهلُه عنه، لم يتعشَّ تلك الليلةَ.

وجاء سائلٌ إلى الإمام أحمدَ، فدفع إليه رغيفينِ كان يُعِدُّهما لفطرِه، ثم طَوَى[٤] وأصبَحَ صائمًا.

(١) أحمد (١٣٤٠)؛ والترمذي (١٩٨٤).
(٢) البخاري (١٨٩٤)؛ ومسلم (١١٥١).
(٣) أحمد (٢١٦٢٨)؛ والترمذي (٢٦١٦).
(٤) طوى: بات جائعًا.

قال الشافعي ﷺ: أُحِبُّ للرجُلِ الزِّيادَةَ بالجُودِ في شهرِ رمضانَ اقتداءً برسولِ الله ﷺ، ولحاجةِ النَّاسِ فيه إلى مصالِحِهم، ولتشاغُلِ كثيرٍ منهم بِالصَّوْمِ والصَّلاة عن مكاسِبِهم.

وفي حديث فاطمةَ عليها السلام عن أبيها ﷺ أنَّه أخبرَها: «**أنَّ جبريلَ عليه السلام كان يعارِضُه القرآن كُلَّ عامٍ مَرَّةً، وأنَّه عارضَه في عامِ وفاتِه مَرَّتينِ**»[1]. وفي حديث ابن عباس: أنَّ المدارسةَ بينَهُ وبينَ جبريلَ كانت ليلًا، فَدَلَّ على استحبابِ الإكثارِ من التِّلاوةِ في رمضانَ ليلًا؛ فإنَّ الليل تنقطِعُ فيه الشواغلُ، وتجتمع فيه الهمم، ويتواطأ فيه القلبُ واللِّسانُ على التدبُّر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:٦]. وشهر رمضانَ له خصوصيةٌ بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة:١٨٥]. وقد قال ابن عباسٍ ﷺ: إنَّه أُنزل جملةً واحدَةً من اللوح المحفوظ إلى بيت العِزَّةِ في ليلة القدر. ويشهدُ لذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر:١]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣].

وكان عُمَرُ قد أمر أُبَيَّ بن كعبٍ وتميمًا الدارِيَّ أن يَقوما بالنَّاسِ في شهر رمضانَ، فكان القارئُ يقرأ بالمئين في ركعةٍ، حتى كانوا يعتمدون على العِصِيِّ من طُول القيام، وما كانوا ينصرفون إلا عند الفجر.

**وكلامُ الإمام أحمدَ يدلّ على أنه يُراعَى في القراءة حالُ المأمومين، فلا يشقُّ عليهم.** وقاله أيضًا غيرُه من الفقهاء من أصحاب أبي حنيفةَ وغيرهم. وقد رُوِي عن أبي ذَرٍّ أنَّ النبيَّ ﷺ قام بهم لَيْلَةَ ثلاثٍ وعشرين إلى ثُلُثِ الليل، وليلةَ خمسٍ وعشرين إلى نِصْفِ الليل. فقالوا له: لو نَفَّلْتَنا بقيَّة ليلتنا؟ فقال: «**إنَّ الرجُلَ إذا صلَّى مَعَ الإمام حتَّى ينصرِفَ كُتِبَ له بقيَّةُ ليلته**»[2]. خرَّجَهُ أهلُ السُّنن، وحسَّنَهُ الترمذِيُّ.

وهذا يدلُّ على أنَّ قيامَ ثُلُثِ الليلِ ونِصْفِه يُكتبُ به قيامُ ليلةٍ، لكن مع الإمام.

وكان الإمام أحمدُ يأخذ بهذا الحديث ويُصلِّي مع الإمام حتى ينصرفَ، ولا ينصرِفُ حتى ينصرِفَ الإمام.

---

(١) البخاري (٦٢٨٥)، ومسلم (٢٤٥٠).

(٢) أبو داود (١٣٧٥)؛ والترمذي (٨٠٦).

ومَن أراد أن يزيدَ في القراءة ويُطيلَ، وكان يُصَلِّي لنفسه فليطوِّلْ ما شاء، كما قاله النبي ﷺ. وكذلك من صلَّى بجماعةٍ يرضَونَ بصلاتِه.

**السلفُ والقرآن في رمضان:**

وكان بعضُ السَّلف يختمُ في قيام رمضان في كُلِّ ثلاث ليال، وبعضُهم في كُلِّ سبْعٍ؛ منهم قتادَةُ، وبعضُهم في كُلِّ عشر؛ منهم أبو رَجاء العُطَارِدِيُّ.

وكان السَّلَفُ يتلون القرآنَ في شهر رمضان في الصلاة وغيرها؛ كان الأَسْوَدُ يقرأ القرآنَ في كُلِّ ليلتين في رمضان، وكان النَّخعِيُّ يفعلُ ذلك في العشر الأواخر منه خاصَّةً، وفي بقيَّةِ الشَّهْرِ في ثلاثٍ. وكان قتادة يختِمُ في كُلِّ سبْعٍ دائمًا، وفي رمضانَ في كُلِّ ثلاثٍ، وفي العشر الأواخِرِ كلَّ ليلةٍ.

وكان الزُّهْرِيُّ إذا دخل رمضانُ قال: فإنما هو تلاوةُ القرآن، وإطعام الطعام.

**وقال عبد الرزاق**: كان سفيانُ الثوريُّ إذا دَخَلَ رمضانُ ترَكَ جميعَ العبادةِ وأقبَلَ على تلاوةِ القرآنِ. وكانت عائشةُ ﵂ تقرأُ في المصحفِ أوَّلَ النهارِ في شهرِ رمضانَ، فإذا طلعت الشمس نامَتْ.

**جهاد المؤمن في رمضان:**

واعلم أنَّ المؤمن يجتمعُ له في شهرِ رمضانَ جهادانِ لنفسِه؛ جهادٌ بالنهارِ على الصِّيام، وجهادٌ بالليل على القيام. فمن جَمَعَ بين هذين الجهادين، ووفَّى بحقوقهما، وصبرَ عليهما، وُفِّيَ أجرُه بغير حساب.

**فأمَّا مَنْ ضيَّع صِيَامَهُ ولم يمنعْه ممَّا حرَّمه الله عليه، فإنَّه جديرٌ أن يُضربَ به وجهُ صاحبه؛ ويقولُ له: ضيَّعكَ الله كما ضيعتني.**

وكذلك القرآن إنما يشفَعُ لمن منعه من النوم بالليل، فإن مَنْ قرأ القرآن وقام به، فقد قام بحقِّه فيشفعُ له.

**قال ابنُ مسعودٍ**: ينبغي لقارئِ القرآنِ أن يُعرَفَ بليلِه إذا الناسُ ينامون، وبنهارِهِ إذا الناسُ يُفطِرون، وببكائِه إذا الناسُ يضحكون، وبورعِهِ إذا الناسُ يخلطون، وبصمْتِه إذا الناس يَخُوضون، وبخشُوعِهِ إذا الناسُ يختالون، وبحُزْنه إذا الناسُ يَفرُحون.

**فأَمَّا من كان معَهُ القرآنُ فنام عنه بالليلِ ولم يَعْمَلْ به بالنهارِ، فإنَّه ينتصبُ القرآنُ خَصْمًا له، يطالبُه بحُقوقِهِ التي ضيَّعها.** وخرَّج الإمام أحمد من حديث سَمُرَةَ: أنَّ النبيَّ ﷺ رأى في مَنَامِهِ رجلًا مستلقيًا على قَفَاهُ، ورجلٌ قائِمٌ بيدِه فِهْرٌ[1] أو صَخْرةٌ، فيشْدَخُ[2] بهِ رأسَه، فيتَدَهْدَهُ[3] الحَجَرُ، فإذا ذَهَبَ ليأْخُذَهُ عادَ رأسُهُ كما كان، فيَصْنَعُ به مثلَ ذلك، فسألَ عنه، فقيل له: «**هذا رَجُلٌ آتاهُ الله القرآن فنامَ عنه باللَّيْل، ولم يَعْمَلْ به بالنَّهارِ، فهو يُفْعَلُ به ذلك إلى يوم القيامة**»[4].

وقد خرَّجَهُ البخاريُّ بغير هذا اللفظ[5].

يا مَنْ ضيَّع عُمُرَهُ في غير الطاعة! يا مَنْ فَرَّط في شَهْرِه، بَلْ في دهرِه وأضَاعَه! يا مَنْ بضاعتُه التسويفُ والتفريطُ، وبئستِ البضاعَةُ! يا مَنْ جَعَلَ خَصْمَهُ القرآنَ وشَهْرَ رمضانَ، كيفَ ترجو مِمَّن جَعَلْتَه خَصْمَكَ الشَّفَاعَةَ؟!

▪▣▪▣▪

## المجلسُ الثالث:

## في ذكرِ العشرِ الأوسط من شهرِ رمضان وذكر نصفِ الشهرِ الأخير

في الصحيحينِ عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيّ رضي الله عنه، قال: كان رسولُ الله ﷺ يعتِكفُ في العَشْرِ الأَوْسَطِ من رمضانَ، فاعْتكَفَ عامًا، حتَّى إذا كانت ليلةُ إحدى وعشرينَ، وهي الليلةُ التي يخْرُجُ في صَبِيحتِها من اعْتِكافِه، قال: «**مَنْ كان اعْتكَفَ معي فَلْيَعْتكفِ العَشْرَ الأواخِرَ. وقد أُرِيتُ هذه الليلةَ ثم أُنسيتُها، وقد رأَيْتُني أَسْجُدُ في ماءٍ وَطِينٍ من صَبِيحتِها، فالتمِسُوها في العَشْرِ الأواخرِ، والتمِسُوها في كُلِّ وِتْرٍ**».

فَمَطَرَتِ السَّماءُ تلكَ الليلةَ، وكان المسجدُ على عَرِيشٍ، فَوَكَفَ المَسْجِدُ[6]،

(١) فِهْر: حَجَر ملء الكف.

(٢) يشدخ: يكسر ويشج.

(٣) يتدهده: يتدحرج.

(٤) أحمد (١٩٥٩٠).

(٥) البخاري (١٣٨٦).

(٦) فوكف المسجد: تقاطر الماء من سقفه.

فبصُرَت عيناي رسولَ الله ﷺ على جَبْهَتِهِ أَثَرُ الماءِ والطِّينِ من صُبْحِ إِحْدَى وعشرين[1].

هذا الحديثُ يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ كان يعتكِفُ العَشْرَ الأوسَطَ من شهرِ رمضانَ؛ لابتغاءِ ليلةِ القدرِ فيه. وهذا السِّياقُ يقتضي أنَّ ذلك تكرَّر منه ﷺ.

وفي روايةٍ في الصحيحينِ في هذا الحديثِ: «**أنه اعتكَفَ العَشْرَ الأوَّلَ، ثم اعتكَفَ العَشْرَ الأوْسَطَ، ثم قال: إني أُتيتُ، فقيل لي: إنها في العشرِ الأواخرِ. فمن أَحَبَّ منكم أن يعتكِفَ فليعْتكِفْ. فاعتكفَ الناسُ معه**»[2].

وهذا يدلُّ على أنَّ ذلك كان منه قبلَ أن يتبيَّن لَهُ أَنَّها في العَشْرِ الأواخرِ، ثم لمَّا تبيَّن له ذلك اعتكفَ العشرَ الأواخرَ حتَّى قبضَه الله ﷻ. كما رواه عنه عائشة وأبو هريرة وغيرُهما.

ورُوري أنَّ عُمَرَ ﷺ جمع جماعةً من الصحابةِ، فسألَهم عن ليلةِ القَدْرِ، فقال بعضُهم: كنَّا نراها في العشرِ الأوسطِ، ثم بلغنا أنَّها في العشرِ الأواخرِ. وسيأتي الحديثُ بتمامه في موضعٍ آخرَ إن شاء الله تعالى.

## مجمل أحداث غزوة بدر الكبرى:

**والمشهورُ عند أهلِ السِّيرِ والمغازي**: أنَّ ليلة بدْرٍ كانت ليلةَ سبعَ عَشْرَةَ، وكانت ليلةَ جُمُعَةٍ.

وصبيحتُها هو يومُ الفرقانِ، يومَ التقى الجمعانِ. وسُمي يوم الفرقانِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى فرَّق فيه بين الحقِّ والباطلِ، وأظهَرَ الحقَّ وأهلَهُ على الباطل وحِزْبِه، وعلَتْ كلمةُ اللهِ وتوحيدُه، وَذُلَّ أعداؤه مِن المشركينَ وأهلِ الكِتاب، وكان ذلك في السنةِ الثانيةِ من الهجرةِ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قَدِمَ المدينةَ في ربيعِ الأولِ في أوَّلِ سنةٍ من سِنِيِّ الهجرةِ، ولم يُفْرَضْ رمضانُ في ذلك العامِ. ثم صام عاشوراء، وفُرِضَ عليه رمضانُ في ثاني سنةٍ. فهو أوَّلُ رمضانَ صامَهُ وصامَه المسلمون معه.

ثم خَرَجَ النبيُّ ﷺ لطلبِ عِيرٍ من قريش قدِمَتْ من الشام إلى المدينةِ في يوم السبتِ لاثنتَيْ عشرَةَ ليلةً خلَتْ من رمضانَ، وأفطَرَ ﷺ في خروجِه إليها.

---

(١) البخاري (٢٠٢٧)؛ ومسلم (١١٦٧).

(٢) البخاري (٢٠٢٧)، ومسلم (١١٦٧)، واللفظ له.

وكان سببُ خروجِه حاجةَ أصحابِه، خصوصًا المهاجرين ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر:٨]. وكانت هذه العيرُ فيها أموالٌ كثيرةٌ لأعدائِهم الكفارِ الذين أَخرجوهم من ديارِهم وأموالِهم ظُلْمًا وعدُوانًا، كما قال اللهُ تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج:٣٩-٤٠]. **فقَصَدَ النَّبيُّ ﷺ أن يأخذ أموالَ هؤلاء الكفَّارِ الظالمينَ المعتدين على أولياءِ اللهِ وحزبِه وجندِه، فيردَّها على أولياءِ اللهِ وحزبِه المظلومينَ المخرَجينَ من ديارِهم وأموالِهم ليتقوّوا بها على عبادَةِ اللهِ وطاعَتِه وجهادِ أعدائه.** وهذا ممَّا أحلَّه الله لهذه الأمَّةِ؛ فإنَّه أَحَلَّ لهم الغنائِمَ، ولم تحلَّ لأحدٍ قبلَهم. وكان عِدَّةُ مَن مَعَهُ ثَلَثمائةٍ وبضعةَ عشَرَ، وكانوا على عدَّةِ أصحابِ طالُوتَ الذين جازوا معه النهرَ، وما جازَه معه إلَّا مؤمنٌ.

وكان أصحابُ النبيِّ ﷺ حين خرجوا على غايةٍ من قِلَّة الظهرِ والزَّاد؛ فإنَّهم لم يخرجوا مستعدِّين لحربٍ، ولا لقتالٍ، إنَّما خرجوا لطلبِ العيرِ، فكان معهم نحوُ سبعينَ بعيرًا يَعْتَقِبونها[1] بينهم، كُلُّ ثلاثةٍ على بعير. وكان للنبيِّ ﷺ زميلانِ، فكانوا يَعْتَقِبون على بعيرٍ واحدٍ.

وبلغ المشركين خروجُ النبيِّ ﷺ لطلبِ العيرِ، فأخذ أبو سُفيان بالعيرِ نحو الساحلِ، وبعث إلى أهل مكَّة يخبرهم الخبرَ، ويطلبُ منهم أن ينفروا لحمايةِ عيرِهم، فخرجوا مستصرخين، وخرج أشرافُهم ورؤساؤهم، وساروا نَحْوَ بدْرٍ. واستشار النبيُّ ﷺ المسلمينَ في القتالِ، فتكلَّم المهاجرون فسكتَ عنهم، وإنما كان قَصْدُه الأنصارَ؛ لأنه ظنَّ أنَّهم لم يبايعوه إلَّا على نُصْرتِه على من قَصَدَه في ديارِهم، فقام سَعْد بنُ عُبادَةَ، فقال: إيَّانا تريدُ، يعني الأنصار، والذي نفسي بيده، لو أَمَرْتَنا أن نُخِيضَها[2] البَحْرَ لأَخَضْناها، ولو أمَرْتَنا أن نضرِبَ أكبادَها إلى بَرْكِ الغِمَادِ[3] لَفَعَلْنا. وقال له المقدادُ: لا نَقُول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]،

---

(١) يعتقبونها: يتناوبون في الركوب هذا مرة وهذا مرة.

(٢) نُخيضها: أي نحمل الخيلَ على خوض البحر.

(٣) برك الغماد: موضع باليمن.

ولكنْ نقاتلُ عن يمينِك وشمالِك، وبين يديك، ومن خلفِكَ. فَسُرَّ النبيُّ ﷺ بذلك وأجمعَ على القتالِ.

وبات تلك الليلةَ ليلةَ الجمعةِ سابعَ عشَرَ رمضانَ قائمًا يُصلِّي ويبكي ويدعو الله ويستنصرُه على أعدائِه.

وأَمَدَّ اللهُ تعالى نبيَّهُ والمؤمنين بنَصْرٍ من عندِه وبجندٍ من جندِه، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [الأنفال:٩-١٠].

وفي (صحيح البخاريّ) أنَّ جبريلَ قال للنَّبيِّ ﷺ: «**ما تَعُدُّون أَهْلَ بدْرٍ فيكم؟** قال: **مِن أَفْضَلِ** المسلمينَ، أو كلمةً نَحْوَها. قال: **وكذلك مَن شهِدَ بدْرًا من الملائكة**»[1]. وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣]. وقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]. ورُوِي أنَّ النبيَّ ﷺ لما رآهم قال: «**اللهمَّ، إنَّ هؤلاءِ قُريشٌ قد جاءت بخُيَلائها يُكَذِّبون رسولَك، فأنجزْ لي ما وَعَدْتَني**». فأتاه جبريلُ، فقال: «**خُذْ قَبْضَةً مِن تُرابٍ فارْمِهِم بها، فأَخَذَ قَبْضَةً من حَصْبَاءِ الوادي فرمَى بها نحوَهم**»، وقال: «**شَاهَتِ الوُجُوه**» فلم يبقَ مُشْرِكٌ إلَّا دَخَلَ في عَيْنَيْهِ ومَنْخِرِه وفمِه شيءٌ، ثم كانت الهزيمة.

**وقال حكيمُ بنُ حزام**: سمِعْنا يومَ بَدْرٍ صوتًا وقَعَ من السَّماءِ كأنَّه صوتُ حَصَاةٍ على طَسْتٍ، فرمَى رسولُ الله ﷺ تِلك الرَّميَةَ، فانهزمْنا.

ولما قدِمَ الخَبَرُ على أهلِ مكةَ قالوا لمن أتاهم بالخبرِ: كيف حالُ الناسِ؟ قال: لا شيءَ، والله إن كان إلَّا أنْ لقيناهم فمنَحْنَاهم أكتافَنا، يقتلونا ويأسرونا كيف شاؤوا، وايْمُ اللهِ، مَع ذلك ما لمتُ النَّاسَ؛ لقينا رجالًا على خيلٍ بُلْقٍ[2] بين السَّماء والأرضِ ما يقومُ لها شيءٌ.

**وقَتَلَ اللهُ صناديدَ كفَّارِ قريشٍ يومئذٍ**؛ منهم عُتبةُ بنُ ربيعةَ، وشيبةُ، والوليدُ بنُ عتبةَ، وأبو جهلٍ، وغيرُهم. وأسَرُوا منهم سبعينَ. وقصَّة بدْرٍ يطولُ استقصاؤها، وهي

---

(١) البخاري (٣٩٩٢).

(٢) بلق: ما فيه سواد وبياض.

مشهورةٌ في التفسيرِ وكتبِ الصِّحَاحِ والسننِ والمسانيدِ والمغازي والتواريخِ وغيرِها. وإنما المقصودُ هاهنا التنبيهُ على بعضِ مقاصدِها.

**دور إبليس في تحريض الكفار على القتال:**

وكان عدوُّ الله إبليسُ قد جاء إلى المشركين في صورةِ سُرَاقَةَ بنِ مالكٍ، وكانت يدُهُ في يدِ الحارث بن هشامٍ، وجعل يُشجِّعهم ويعِدُهم ويمنِّيهم، فلمَّا رأى الملائكةَ هَرَبَ وألقى نفسَه في البحر. وقد أخبرَ الله عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٤٨].

**فإبليسُ عدوُّ اللهِ يَسعَى جهدَه في إطفاءِ نورِ اللهِ وتوحيدِه**، ويُغرِي بذلك أولياءَه من الكفَّار والمنافقين. فلمَّا عجز عن ذلك بنصر الله نبيَّه وإظهار دينِه على الدِّين كُلِّه، رضي بإلقاء الفتن بين المسلمين، واجْتَزَى[1] منهم بمحقَّرات الذنوبِ حيثُ عَجَزَ عن ردِّهم عن دينهم؛ كما قال النبي ﷺ: «**إنَّ الشيطان قد أيس أن يَعبُدَهُ المصلُّون في جزيرةِ العربِ، ولكنْ في التحريشِ بينهمْ**»[2]. خرَّجه مسلم من حديث جابر.

**ولا يزالُ إبليسُ يَرَى في مواسم المغفِرَة والعِتق من النارِ ما يَسُوؤهُ**؛ فيومُ عرفَةَ لا يُرَى أصغرَ ولا أحقرَ ولا أدحَر فيه منه؛ لِمَا يَرَى مِن تنزُّلِ الرَّحمةِ وتجاوُزِ اللهِ عن الذُّنوبِ العِظَامِ، إلا ما رؤي يومَ بَدْرٍ.

**وفي ليلة القدر تنتشِرُ الملائكةُ في الأرض**، فيبطُلُ سُلطانُ الشَّياطِين، كما قال الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر:٤-٥].

وقال مجاهِدٌ في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾، قال: سلامٌ أن يحدُثَ فيها داءٌ أو يستطيعَ شيطانٌ العَمَلَ فيها.

---

(١) واجتزى: اكتفى.
(٢) مسلم (٢٨١٢).

هذا ـ عبادَ الله ـ شهرُ رمضانَ قد انتصف، فمن منكم حاسب فيه نفسَه لله وانتصف؟ مَنْ منكم قام في هذا الشهر بحقِّه الذي عَرَفْ؟ من منكم عَزَمَ قبلَ غَلْقِ أبواب الجنَّة أن يبنِيَ له فيها غُرَفًا من فوقِها غُرَف؟ ألا إنَّ شهركم قد أخذ في النَّقصِ، فزيدوا أنتم في العملِ، فكأنكم به وقد انصَرَفَ. فكُلُّ شهرٍ فعسى أن يكون منه خَلَفٌ. وأمَّا شهرُ رمضانَ فمِن أينَ لكم منه خَلَف؟!

تَنَصَّفَ الشَّهْرُ والهفاهُ وانهَدَما ... واخْتُصَّ بالفَوْزِ بالجَنَّاتِ مَنْ خَدَما
وأصبَحَ الغافِلُ المِسْكينُ منكسِرًا ... مثلي فيا ويحَهُ يا عِظْمَ ما حُرِمَا
مَن فاته الزّرْعُ في وقتِ البِذارِ فما ... تراه يحصُدُ إلَّا الهَمَّ والنَّدما
طُوبَى لمن كانت التَّقْوى بضاعَتَهُ ... في شهرِهِ وبحبلِ الله مُعتصِما

▪▣▪▣▪

## المجلس الرابع: في ذكرِ العشر الأواخرِ من رمضانَ

في الصحيحينِ عن عائشةَ ﵂، قالت: «**كانَ رسولُ الله ﷺ إذا دخل العشرُ شدَّ مئزرَهُ، وأحيا ليلَهُ، وأيقَظَ أهلَه**»[(١)]. هذا لفظ البخاري. ولفظ مسلم: «**أحيا الليل، وأيقظ أهلَهُ، وجَدَّ، وشَدَّ المِئْزَرَ**»[(٢)]. وفي رواية لمسلم عنها، قالت: «**كان رسولُ الله ﷺ يجتهدُ في العشر الأواخر ما لا يجتهدُ في غيره**»[(٣)].

### الأعمال التي كان يخصّ بها النبي ﷺ العشر الأواخر:

كان النبي ﷺ يخصُّ العشرَ الأواخِرَ مِن رمضَانَ بأعمالٍ لا يعملُها في بقيَّةِ الشهر:

* **فمنها إحياءُ الليل**؛ فيحتمل أنَّ المرادَ إحياء الليل كلِّه. ويحتمل أن يريدَ بإحياء الليل إحياءَ غالبه. ويؤيِّدُه ما في (صحيح مسلم) عن عائشة، قالت: «ما أعلمهُ ﷺ قام ليلةً حتَّى الصباح»[(٤)].

---

(١) البخاري (٢٠٢٤)؛ ومسلم (١١٧٤).
(٢) مسلم (١١٧٤).
(٣) مسلم (١١٧٥).
(٤) مسلم (٧٤٦).

* ومنها: أنَّ النبي ﷺ كان يوقظُ أهلَه للصَّلاة في ليالي العشْر دونَ غيرِه من الليالي.

قال سفيانُ الثوري: أَحَبُّ إليَّ إذا دَخَلَ العشرُ الأواخرُ أن يتهجَّد بالليل، ويجتهدَ فيه، ويُنهِضَ أهلَه وولدَه إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك. وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه كان يطرقُ فاطمةَ وعليًّا ليلًا فيقولُ لهما: «ألا تقومانِ فَتُصَلِّيان»[(١)].

وورد الترغيبُ في إيقاظ أحدِ الزوجين صاحِبَه للصَّلاة، ونضح الماء في وجهه. وفي الموطأ أن عمرَ بنَ الخطابِ كان يُصَلِّي من الليلِ ما شاء اللهُ أن يُصلِّي، حتى إذا كان نِصْفُ الليل أيقَظَ أهلَه للصَّلاة، يقولُ لهم: الصَّلاةَ الصَّلاةَ، ويتلو هذه الآيةَ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٣٢] الآية.

* ومنها: أن النبيَّ ﷺ كان يَشُدُّ المئزَرَ. والصحيح أن المراد اعتزالُه للنساء، وبذلك فسَّره السَّلَفُ والأئمةُ المتقدِّمون؛ منهم سفيان الثوري. وقد ورد ذلك صريحًا من حديث عائشَةَ وأنس.

* ومنها: تأخيرُه للفطورِ إلى السَّحَرِ رُوِي عنه من حديث عائشةَ وأنسٍ أنَّه ﷺ كان في ليالي العَشْرِ يجعَلُ عَشَاءَهُ سَحُورًا.

وروى عاصمُ بن كليبٍ، عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: ما واصل النبيُّ ﷺ وصالكم قطُّ، غيرَ أنَّه قَدْ أخَّر الفِطْرَ إلى السَّحُور. وإسنادُه لا بأس به.

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيدٍ الخدري، عن النبي ﷺ، قال: «لا تواصِلوا، فأيُّكم أرادَ أن يواصِلَ فلْيُواصِلْ إلى السَّحَر. قالوا: فإنَّك تُواصِلُ يا رسولَ الله؟ قال: إنِّي لسْتُ كهيئتكم، إني أبيتُ لي مُطعِمٌ يُطعمُني وساقٍ يَسقيني»[(٢)]. وظاهرُ هذا يدلُّ على أنَّه ﷺ كان يواصل الليلَ كلَّه، وقد يكون ﷺ إنَّما فَعَلَ ذلك لأنَّه رآه أنشطَ له على الاجتهاد في ليالي العشر، ولم يكُنْ ذلك مضعِفًا له عن العَمل؛ فإنَّ الله كان يُطعمُهُ ويَسقيه. واختلف في معنى إطعامه؛ والصحيح أنَّه إشارةٌ إلى ما كان الله تعالى يفتحَهُ عليه في

(١) البخاري (١١٢٧)؛ ومسلم (٧٧٥).
(٢) البخاري (١٩٦٣).

صيامِه وخلوته بربِّه، لمناجاته وذِكْرِه من موادّ أنسِهِ ونَفَحَاتِ قُدْسِهِ، فكان يَرِدُ بذلك على قلبه من المعارف الإلهية والمنح الربَّانيةِ ما يغذِّيه ويُغنيه عن الطَّعام والشراب.

* **ومنها: الاعتكاف**: ففي (الصحيحين) عن عائشة ، «**أنَّ النبيَّ ﷺ كان يعتكِفُ العَشْرَ الأواخِرَ من رمضانَ حتَّى توفَّاه الله تعالى**»[1]. وفي (صحيح البخاري) عن أبي هريرة ، قال: «**كان رسولُ الله ﷺ يعتكِفُ في كُلِّ رمضان عشرَةَ أيامٍ. فلمَّا كان العامُ الذي قُبِضَ فيه اعتكَفَ عشرين**»[2]. وإنما كان يعتكِفُ النبي ﷺ في هذه العشر التي يُطلَبُ فيها ليلةُ القَدْرِ، قطعًا لأشغاله، وتفريغًا لباله، وتخلِّيًا لمناجاة رَبِّه وذِكْرِه ودعائه. وكان يحتجرُ حصيرًا يتخلَّى فيها عن الناس، فلا يخالِطُهم، ولا يشتغِلُ بهم؛ ولهذا ذَهَبَ الإمامُ أحمد إلى أن المعتكفَ لا يُسْتَحبُّ له مخالطةُ النَّاسِ، حتَّى ولا لتعليم علمٍ، وإقراء قرآنٍ، بل الأفضَلُ له الانفرادُ بنفسه والتخلِّي بمناجاةِ ربِّه وَذِكْرِهِ ودعائِه.

وهذا الاعتكافُ هو الخَلْوَةُ الشَّرعية، وإنما يكون في المساجد؛ لئلا يتركَ به الجُمَعَ والجماعاتِ؛ فإنَّ الخلوةَ القاطِعَةَ عن الجُمَعِ والجماعاتِ منهيٌّ عنها.

سُئل ابنُ عباسٍ عن رجلٍ يَصُومُ النَّهارَ ويقومُ الليلَ، ولا يَشْهَدُ الجُمُعَة والجَمَاعَةَ؟ قال: هو في النار.

**فمعنى الاعتكاف وحقيقتُه**: قطعُ العلائِقِ عن الخلائق للاتصال بخدمة الخالِق، وكلَّما قويتَ المعرفةُ بالله والمحبَّةُ له، والأنسُ به، أورثَتْ صاحبَها الانقطاعَ إلى الله تعالى بالكليةِ على كُلِّ حالٍ.

يا مَنْ ضَاعَ عُمُرُه في لا شيء، اسْتَدْرِكْ ما فاتَكَ في ليلة القَدْرِ؛ فإنَّها تحسبُ بالعُمرِ.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر:١-٣].

---

(١) البخاري (٢٠٢٦)، ومسلم (١١٧٢).
(٢) البخاري (٤٩٩٨).

وفي (الصحيحين) عن أبي هريرةَ ﵁، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**مَنْ قامَ ليلَةَ القَدْرِ إيمانًا واحْتِسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذَنْبِهِ**»[١].

إخواني! المعوَّل على القَبُولِ لا على الاجتهاد، والاعتبارُ ببرِّ القلوب لا بعمَلِ الأبدان.

لكنَّ العَبْدَ مأمورٌ بالسَّعي في اكتسابِ الخيراتِ والاجتهادِ في الأعمالِ الصالحاتِ؛ وكُلٌّ مَيَسَّرٌ لما خُلِقَ له. أمَّا أهلُ السعادة فييسَّرُونَ لِعَمَلِ أهلِ السعادة، وأمَّا أهلُ الشَّقَاوةِ فييسَّرون لعملِ أهلِ الشقاوة. ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠]. فالمبادرةَ المبادرةَ إلى اغتنامِ العَمَلِ فيما بقي من الشهر، فعسَى أن يُستدركَ به ما فات من ضياعِ العُمرِ.

▪▣▪▣▪

## المجلس الخامس: في ذكر السَّبع الأواخر من رمضان

في (الصحيحين) عن ابن عمرَ ﵄: أنَّ رجالًا من أصحابِ النبيِّ ﷺ أُرُوا ليلةَ القَدْرِ في المنام في السَّبْعِ الأواخِرِ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**أَرَى رؤياكم قد تَوَاطَأَتْ في السَّبعِ الأواخرِ، فمن كان مُتَحَرِّيها فَلْيَتَحَرَّها في السَّبعِ الأواخر**»[٢]. وفي صحيحِ مسلم عنه، عن النبي ﷺ قال: «**التمسُوها في العشرِ الأواخرِ، فإنْ ضَعُفَ أَحدُكم أو عَجزَ فلا يُغْلَبَنَّ على السَّبْعِ البَوَاقِي**»[٣]. قد ذكرنا فيما تقدَّم أنَّ النبيَّ ﷺ كان يجتهدُ في شهرِ رمضانَ على طلبِ ليلةِ القَدْرِ، وأنَّه اعتكَفَ مرَّةً العَشْرَ الأوَّل منه، ثم طلبها فاعتكفَ بعدَ ذلك العَشْرَ الأوسَط في طلبها، وأنَّ ذلك تكرَّر منه غَيْرَ مَرَّةٍ، ثم استقرَّ أمرُهُ على اعتكافِ العَشْرِ الأواخرِ في طلبها، وأَمَرَ بطلبها فيه. ففي (الصحيحين) عن عائشة ﵂ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**تحرَّوا ليلَةَ القَدْرِ في العَشْرِ الأواخِرِ مِن رمضانَ**»[٤].

---

(١) البخاري (١٩٠١)؛ ومسلم (٧٦٠).
(٢) البخاري (٢٠١٥)؛ ومسلم (١١٦٥).
(٣) مسلم (١١٦٥).
(٤) البخاري (٢٠٢٠)؛ ومسلم (١١٦٩).

وفي رواية للبخاري: «**في الوِتْر مِنَ العَشْر الأواخِرِ من رمضان**»[١].

وكان يأمُر بالتماسها في أوتار العَشْرِ الأواخرِ. ففي (صحيح البخاري) عن ابن عباسٍ ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «**التمسوها في العَشْرِ الأواخرِ من رمضان؛ في تاسعةٍ تَبْقَى، في سابعةٍ تَبْقَى، في خامسةٍ تَبْقَى**»[٢].

وخرَّج الإمامُ أحمدُ والنّسائي والترمذيّ من حديث أبي بَكْرَةَ، قال: ما أنا بملتمِسِها لشيءٍ سمِعْتُه من رسولِ الله ﷺ إلَّا في العَشْرِ الأواخر؛ فإنِّي سَمِعْتُهُ يقول: «**التمسُوها في تِسْعٍ يَبْقَيْن، أو سَبْعٍ يَبْقَيْن، أو خَمْسٍ يَبْقَيْن، أو ثلاثٍ يبقَيْن، أو آخرِ ليلةٍ**»[٣]. وكان أبو بَكْرَة يصلِّي في العشرين مِن رمضانَ كصلاتِه في سائر السَّنَةِ، فإذا دَخَلَ العَشْرُ اجتهدَ.

وقد اختلف الناس في ليلة القَدْرِ اختلافًا كثيرًا، وقال الجمهور: هي منحصرةٌ في العشر الأواخر، واختلفوا في أيِّ ليالي العشر أرجَى؛ فحُكِي عن الحسن ومالك أنَّها تُطلَبُ في جميع ليالي العشر؛ أشفاعِه، وأوتارِهِ، ورجَّحَه بعضُ أصحابنا، وقال: لأنَّ قولَ النبي ﷺ: «**التمِسُوها في تاسعةٍ تبقى، أو سابعةٍ تبقَى، أو خامسةٍ تبقَى**» إنْ حملْنَاهُ على تقدير كمالِ الشهر، كانت أشفاعًا، وإنْ حملْنَاهُ على ما يبقى منه حقيقةً كان الأمر موقوفًا على كمالِ الشهر، فلا يُعلم قبلَه. فإنْ كان تامًّا كانت الليالي المأمور بطلبها أشفاعًا، وإن كان ناقصًا كانت أوتارًا. فيوجِبُ ذلك الاجتهاد في القيام في كلا الليلتين؛ الشَّفْعِ منها والوتْر.

**وقال الأكثرون**: بل بعضُ لياليه أَرْجَى من بعضٍ، وقالوا: الأوتارُ أرجَى في الجملةِ.

### أنواع العبادة في ليلة القدر:

وأما العملُ في ليلة القَدْر فقد ثبتَ عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**مَن قام ليلةَ القَدْرِ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ لَهُ ما تقدَّم من ذنبه**»[٤].

---

(١) البخاري (٢٠١٧).

(٢) البخاري (٢٠٢١).

(٣) أحمد (١٩٨٩١).

(٤) البخاري (١٩٠١)؛ ومسلم (٧٦٠).

وقيامُها إنَّما هو إحياؤها بالتهجُّد فيها والصَّلاةِ، وقد أمَرَ عائشة بالدُّعاءِ فيها أيضًا.

**قال سفيان الثوريُّ**: الدُّعاء في تلك الليلة أحبُّ إليَّ من الصَّلاة. قال: وإذا كان يقرأ وهو يدعو ويرغبُ إلى الله في الدُّعاء والمسألة لعله يوافِقُ. انتهى. ومرادُه أنَّ كثرَةَ الدُّعاءِ أفضلُ من الصَّلاةِ التي لا يكثُر فيها الدُّعاء، وإن قرأ ودَعَا كان حسنًا.

**وقد كان النبي ﷺ يتهجَّدُ في ليالي رمضانَ، ويقرأ قراءةً مرتَّلةً،** لا يمرُّ بآيةٍ فيها رحمةٌ إلا سأل، ولا بآيةٍ فيها عذابٌ إلَّا تعوَّذَ، فيجمعُ بينَ الصَّلاةِ والقراءةِ والدُّعاءِ والتفكُّرِ. وهذا أفضلُ الأعمالِ وأكملُها في ليالي العَشْرِ وغيرِها، والله أعلم. وقد قال الشعبيُّ في ليلة القدر: ليلُها كنهارِها.

**وقال الشافعي في «القديم»**: أَستَحِبُّ أن يكونَ اجتهادُهُ في نهارها كاجتهادِهِ في ليلها. وهذا يقتضي استحبابَ الاجتهادِ في جميعِ زمان العَشْر الأواخر، ليلِه ونهارِه، والله أعلم.

قالت عائشة رضي الله عنها للنبيّ ﷺ: أرأيتَ إنْ وافقْتُ لَيْلَةَ القَدْرِ، ما أقولُ فيها؟ قال: قولي: «**اللهم، إنَّك عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فاعْفُ عَنِّي**»[1]. العَفُوُّ مِن أسماءِ الله تعالى، وهو المتجاوز عن سيِّئاتِ عبادِهِ، الماحِي لآثارِها عنهم. وهو يُحِبُّ العَفْوَ؛ فيُحِبُّ أن يَعْفُوَ عن عبادِهِ، ويُحِبُّ مِن عِبادِهِ أن يَعْفُوَ بعضُهُم عن بعضٍ؛ فإذا عَفَا بعضُهم عن بَعْضٍ عاملَهم بِعَفْوِهِ، وعَفْوُه أَحَبُّ إليه من عُقُوبَتِهِ.

وكان النبي ﷺ يقول: «**أعوذُ بِرِضَاكَ من سَخَطِكَ، وبعفوِكَ من عُقُوبَتِكَ**»[2].

وإنما أمر بسؤالِ العَفْوِ في لَيْلَةِ القَدْرِ بعدَ الاجتهادِ في الأعمال فيها وفي ليالي العشر؛ لأنَّ العارفين يجتهدون في الأعمال، ثم لا يروْنَ لأنفسهم عملًا صالحًا، ولا حالًا ولا مقالًا، فيرجعون إلى سؤالِ العَفْوِ، كحالِ المُذْنِبِ المقصِّرِ. قال يحيى بنُ معاذٍ: ليس بعارفٍ مَن لم يكنْ غايةُ أملِهِ من الله العَفْوَ.

▪▣▪▣▪

(١) أحمد (٢٤٨٥٦)؛ والترمذي (٣٥١٣).

(٢) مسلم (٤٨٦).

## المجلسُ السادسُ: في وداع رمضانَ

في (الصحيحين) من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «من صَامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ لَهُ ما تقدَّم من ذَنْبِهِ، ومَن قام ليلَةَ القَدْرِ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»[١]. وفيهما من حديث أبي هريرة أيضًا ﷺ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «مَنْ قام رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم مِنْ ذَنْبِهِ»[٢].

**شروط تكفير الذنوب بصيام رمضان:**

والتكفيرُ بصيامه قد وَرَدَ مشروطًا بالتحُّفظِ مِمَّا ينبغي أن يُتحفَّظَ منه. ففي (المسند) و(صحيح ابن حِبَّان) عن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «من صام رمضانَ فعَرَفَ حُدُودَه وتحفَّظ مِمَّا ينبغي له أن يُتحفَّظَ منه، كفَّر ذلك ما قبلَه»[٣]. والجمهور على أن ذلك إنَّما يكفِّر الصغائرَ، ويَدُلُّ عليه ما خرَّجه مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «الصَّلواتُ الخمسُ، والجُمُعَةُ إلى الجُمُعَةِ، ورَمضانُ إلى رمضانَ، مكفِّراتٌ لِمَا بينهنَّ، ما اجتُنِبَتِ الكبائر»[٤].

والجمهورُ على أنَّ الكبائرَ لا بُدَّ لها من توبةٍ نَصُوحٍ.

فَدَلَّ حديثُ أبي هريرةَ ﷺ على أنَّ هذه الأسبابَ الثلاثةَ كُلُّ واحدٍ منها مكفِّرٌ لِمَا سَلَفَ من الذُّنوبِ، وهي صيامُ رمضانَ، وقيامُهُ، وقيامُ ليلَةِ القَدْرِ. فقيامُ ليلَةِ القَدْرِ بمجردِهِ يكفِّر الذنوبَ لمن وَقَعَتْ له.

وأمَّا صيامُ رمضانَ وقيامُه، فيتوقَّفُ التكفيرُ بهما على تمام الشهرِ، فإذا تمَّ الشَّهْرُ فقد كَمُلَ للمؤمنِ صيامُ رَمَضَانَ وقيامُه، فيترتَّبُ له على ذلك مغفِرةُ ما تقدَّم من ذَنْبِهِ بتمام السَّببين، وهما صيامُ رمضان وقيامُه.

كان السَّلفُ الصَّالحُ يجتهدون في إتمام العمَل وإكمالِه وإتقانِه، ثم يهتمُّون بعد ذلك بقَبولِه، ويخافون من رَدِّه، وهؤلاء الذين ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠].

---

(١) البخاري (١٩٠١)؛ ومسلم (٧٦٠).
(٢) البخاري (٣٧).
(٣) أحمد (١١١٣٠)، وابن حبان (٨/ ٢٢٨).
(٤) مسلم (٢٣٣).

رُوِي عن عليٍّ ﵁، قال: كونوا لقَبُولِ العَمَلِ أشدَّ اهتمامًا منكم بالعمل، ألم تسمَعُوا اللهَ ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]. وعن فَضَالَةَ بنِ عُبيدٍ قال: لأنْ أكونَ أعلَمُ أنَّ الله قد تقبَّل مِنِّي مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها؛ لأنَّ الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قال بعضُ السَّلف: كانوا يدعُون الله ستَّةَ أشهرٍ أن يُبلِّغهم شَهْرَ رمضان، ثم يدعون الله ستَّةَ أشْهُرٍ أن يتقبَّلَهُ منهم.

وعن ابن مسعودٍ أنه كان يقول: مَن هذا المقبُولُ منَّا فنُهنِّيه؟ ومن هذا المحرومُ منَّا فنعزِّيه؟. أيُّها المقبولُ هنيئًا لكَ، أيُّها المردود جَبَرَ اللهُ مُصيبتَك!

**من أسباب المغفرة في رمضان:**

**شهرُ رمضانَ تكثُر فيه أسبابُ الغفران؛ فمن أسباب المغفرة فيه: صيامُه، وقيامُه، وقيامُ ليلَةِ القَدْرِ فيه، كما سبق.**

*** ومنها: تفطيرُ الصُّوَّامِ، والتخفيفُ عن المملوكِ.**

*** ومنها: الذكر.**

*** ومنها: الاستغفارُ، والاستغفارُ طلَبُ المغفرةِ. ودعاءُ الصَّائم يستجابُ في صيامه وعند فِطْرِه.**

*** ومنها: استغفارُ الملائكة للصَّائمين حتى يُفطِروا.** فلما كثُرَتْ أسبابُ المغفرة في رمضان كان الذي تفوتُه المغفرةُ فيه محرومًا غايةَ الحرمان.

في (صحيح ابن حبَّان) عن أبي هريرة ﵁، أنَّ النبي ﷺ صَعِدَ المِنْبَرَ فقال: «آمين، آمين، آمين»! قيل: يا رسولَ الله، إنَّك صَعِدْتَ المِنْبَرَ فقلت: «آمين آمين آمين؟» قال: **إنَّ جبريل أتاني، فقال: مَن أَدْرَكَ شهرَ رمضانَ ثم لم يُغْفَرْ له فدَخَلَ النار، فأبعَدَهُ** الله، قل: آمين، فقلت: آمين. ومَن أدرَكَ أبوَيْه أو أحدَهما فلم يبرَّهما، فمات، **فَدَخَلَ النار، فأبعَدَهُ الله، قل: آمين، فقلت: آمين. ومَن ذُكِرْتَ عندَه فلم يُصَلِّ عليك فمات، فَدَخَلَ النار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين»**[1].

---

(١) ابن حبان (٣/ ١٨٨).

وقال سعيدٌ عن قتادة: كان يقال: من لم يُغْفَرْ لَهُ في رمضانَ فلن يغفَرَ له فيما سواه.

شهرُ رمضانَ شهرٌ أوَّلُه رحمةٌ، وأوسَطُه مغفرةٌ، وآخرُه عِتْقٌ من النَّار.

والشهرُ كلُّه شَهْرُ رَحْمَةٍ ومغفرةٍ وعِتْقٍ، ولهذا في الحديث الصحيح: أنَّه تُفتحُ فيه أبوابُ الرَّحمة[1].

وفي الترمذي وغيره: «إن لله عتقاءَ من النَّارِ، وذلك في كُلِّ ليلةٍ»[2]. ولكنَّ الأغلبَ على أوله الرحمةُ، وهي للمحسنين المتقين. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

فيفاضُ على المتَّقين في أوَّل الشَّهْرِ خِلَعُ الرَّحمةِ والرُّضوانِ، ويُعَامَلُ أهلُ الإحسانِ بالفضلِ والإحسانِ.

وأمَّا أوسَطُ الشهر، فالأغلبُ عليه المغفرةُ، فيُغفَرُ فيه للصَّائمين وإن ارتكبُوا بعضَ الذنوبِ الصغائرِ فلا يمنعُهم ذلك من المغفرةِ، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦].

وأمَّا آخِرُ الشهر فيُعتقُ فيه من النار مَن أوبقَتْه الأوزارُ، واستوجَبَ النارَ بالذنوبِ الكبار.

لَمَّا كانت المغفرةُ والعِتْقُ من النارِ كلٌّ منهما مرتّبًا على صيام رمضانَ وقيامِه، أمر اللهُ سبحانه وتعالى عندَ إكمالِ العِدَّةِ بتكبيرِه وشكرِه، فقال: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥]، فشُكْرُ من أنعَمَ على عباده بتوفيقهم للصِّيام، وإعانَتِهم عليه، ومغفرتِه لهم به، وعتقِهم من النَّار، أن يذكُروه ويشكروه ويتَّقوه حقَّ تُقَاتِه.

### الأسباب الموجبة للعتق من النار:

ينبغي لمن يرجُو العِتقَ في شهر رمضانَ مِن النار أن يأتيَ بأسبابٍ توجِبُ العِتْقَ مِنَ النَّارِ، وهي متيسِّرة في هذا الشهر. وفي حديث سلمانَ الفارسي المرفوع الذي في

(١) مسلم (١٠٧٩).

(٢) الترمذي (٦٨٢)؛ وابن ماجه (١٦٤٢).

صحيح ابن خُزيمة: «مَن فَطَّر فيه صائمًا كان عتقًا لَهُ من النار. ومَن خَفَّفَ فيه عن مملوكِه كان له عِتْقًا من النار».

وفيه أيضًا: «فاستكثروا فيه من أربعِ خصالٍ: خَصلتين تُرْضُونَ بهما ربَّكم، وخَصْلتين لا غَناءَ بكم عنهما. فأمَّا الخَصلتانِ اللتانِ تُرضونَ بهما ربَّكم فشهادةُ أن لا إله إلا الله، والاستغفارُ. وأمَّا اللتانِ لا غَنَاءَ لكم عنهما، فتسألون اللهَ الجنَّةَ، وتَعُوذون به من النَّارِ»[1]. فهذه الخصالُ الأربعُ المذكورة في هذا الحديث، كُلٌّ منها سببٌ للعتقِ والمغفرة.

فأمَّا كلمةُ التوحيد، فإنَّها تهدِمُ الذُّنوبَ وتمحُوها محوًا، ولا تبقي ذنبًا، ولا يسبقها عملٌ. وهي تعدِلُ عِتْقَ الرِّقاب الذي يوجِبُ العِتْقَ مِنَ النَّار. ومَن أتى بها أربعَ مرارٍ: حين يُصبح وحين يُمسي، أعتَقَه اللهُ من النار، ومَن قالها خالصًا من قلبه حرَّمه الله على النار.

وأمَّا كلمةُ الاستغفار، فمن أعظَمِ أسباب المغفرة، فإنَّ الاستغفار دعاءٌ بالمغفرةِ، ودُعاءُ الصَّائم مستجابٌ في حالِ صِيامِه، وعند فِطْرِه.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار يأمرهم بختم شهر رمضانَ بالاستغفارِ والصَّدقةِ، صدقة الفطر؛ فإنَّ صَدَقَةَ الفِطْرِ طُهْرَةٌ للصَّائم من اللغوِ والرَّفَثِ. والاستغفارُ يُرقِّع ما تخرَّقَ من الصِّيام باللغو والرَّفَثُ.

وقريبٌ من هذا أمْرُ النبيِّ ﷺ لعائشةَ في ليلةِ القَدْرِ بسؤال العَفْوِ؛ فإنَّ المؤمن يجتهدُ في شهر رمضانَ في صيامِه وقيامِه، فإذا قرُبَ فراغُه وصادَفَ ليلَةَ القَدْرِ، لم يسألِ الله تعالى إلَّا العَفْوَ، كالمسيء المقصِّر.

أنفَعُ الاستغفار ما قارنَتْه التَّوْبَةُ، وهي حَلُّ عُقدةِ الإصرار، فمن استغفر بلسانِه وقلبُه على المعصيةِ معقودٌ، وعزمُه أن يرجعَ إلى المعاصي بعدَ الشهرِ ويعُودُ، فَصَوْمُه عليه مردودٌ، وبابُ القَبُول عنه مسدود.

عبادَ الله! إنَّ شهرَ رمضانَ قد عَزَمَ على الرَّحيل، ولم يَبْقَ منه إلَّا القليلُ. فمن منكم أحسَنَ فيه فعليه التمامُ، ومن كان فَرَّطَ فليختمْهُ بالحُسْنَى؛ فالعملُ بالختام.

---

(١) صحيح ابن خزيمة (٣/ ١٩١).

عَسَى وعَسَى مِن قَبْلِ وَقْتِ التَّفَرُّقِ إلى كُلِّ ما ترجُو مِن الخَيْرِ تَرْتَقِي
فيُجْبَرَ مكسور ويقبَلُ تائبٌ ويُعتَقُ خَطَّاء ويَسْعَدُ مَن شَقِي

▪▣▪▣▪






# وظائف شهر شوال

وفيه مجالس:

## المجلس الأول:

## في صيام شوَّال كله وإتباع رمضان بصيام ستة أيام من شوَّال

خرَّج مسلم من حديث أبي أيُّوبِ الأنصاريّ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «مَنْ صَامَ رمضانَ، ثم أَتْبَعَهُ ستًّا من شوَّالٍ، كان كصيام الدَّهْرِ»(١).

فاستحبَّ صيامَ ستةِ أيام من شوالٍ أكثرُ العلماء. رُوي ذلك عن ابن عَبَّاسٍ ﷺ، وطاووسٍ، والشعبيِّ، وميمونِ بنِ مِهْرانَ، وهو قولُ ابنِ المباركِ والشافعيِّ وأحمدَ وإسحاقَ؛ وأنكرَ ذلك آخرون.

وأمَّا الذين استحبُّوا صيامَها، فاختلفُوا في صفةِ صيامِها، على ثلاثةِ أقوالٍ:

* **أحدُها**: أنَّه يُستحبُّ صيامُها من أوَّل الشهر مُتتابِعَةً، وهو قولُ الشافعيِّ وابنِ المبارك.

* **والثاني**: أنَّه لا فرقَ بين أن يتابِعَها أو يُفرِّقَها من الشهر كُلِّه، وهما سواءٌ، وهو قولُ وكيعٍ وأحمدَ.

* **والثالث**: أنه لا يصامُ عقيبَ يومِ الفطر؛ فإنَّها أيامُ أكلٍ وشُربٍ، ولكن يُصام ثلاثةُ أيامٍ قبلَ أيامِ البيضِ أو بعدَها. وهذا قولُ مَعْمَرٍ وعبدِ الرزَّاقِ.

**فإن قال قائلٌ**: فلو صام هذه الستةَ أيامٍ من غيرِ شَوَّالٍ يحصُلُ له هذا الفضلُ، فكيف خُصَّ صيامُها من شوَّالٍ؟ قيل: صيامُها مِن شَوَّالٍ يلتحقُ بصيامِ رمضانَ في الفضل، فيكونُ له أجْرُ صِيامِ الدَّهْر فرضًا. ذكر ذلك ابنُ المبارك.

### فوائد معاودة الصيام بعد رمضان:

وفي معاودة الصِّيام بعد رمضان فوائدُ عديدةٌ:

---

(١) مسلم (١١٦٤).

* **منها: أنَّ صِيامَ ستةِ أيَّامٍ مِن شوَّالٍ بعدَ رمضان يستكمِلُ بها أجْرَ صِيامِ الدَّهْرِ كُلِّه**، كما سبق.

* **ومنها: أنَّ صِيامَ شوَّالٍ وشعبانَ كصلاةِ السُّنَنِ الرواتبِ قبلَ الصَّلاة المفروضة وبعدَها**، فيكمُلُ بذلك ما حصَل في الفَرْضِ مِن خَلَلٍ وَنَقْصٍ. فإنَّ الفرائضَ تكمُلُ بالنوافل يومَ القيامةِ، كما ورد ذلك عن النبيِّ ﷺ من وجوهٍ متعدِّدةٍ. وأكثَرُ النَّاسِ في صيامه للفرض نقصٌ وخلَلٌ، فيحتاجُ إلى ما يُجبِرُه ويُكْمِلُهُ من الأعمال.

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقولُ: مَن لم يجِدْ ما يتصَدَّقُ به فليصُمْ. يعني من لم يجد ما يُخرِجُهُ صَدَقَةً للفطر في آخر رمضان فليصُمْ بعدَ الفِطْرِ؛ فإنَّ الصِّيامَ يقومُ مقامَ الإطعام في التكفير للسيئاتِ، كما يقومُ مقامَه في كفَّارات الأيْمان وغيرها من الكفَّارات، مثل كَفَّارةِ القتلِ، والوطءِ في رمضانَ، والظِّهارِ.

* **ومنها: أنَّ معاوَدَةَ الصِّيام بعدَ صيام رمضانَ علامةٌ على قَبُولِ صَوْمِ رمضانَ**؛ فإنَّ الله تعالى إذا تقبَّلَ عَمَلَ عَبْدٍ وفَّقَه لعملٍ صالحٍ بعدَه، كما قال بعضُهم: ثوابُ الحسنةِ الحسنةُ بَعْدَهَا، فمن عَمِلَ حسَنَةً ثم أتبَعَها بحسنةٍ بعدها، كان ذلك علامةً على قَبولِ الحسنةِ الأولى. كما أنَّ مَن عَمِلَ حسنةً، ثم أتبَعَها بسيئةٍ، كان ذلك علامَةَ رَدِّ الحسنةِ وعَدَمِ قبولِها.

* **ومنها: أنَّ صيامَ رمضانَ يوجِبُ مغفِرَةَ ما تقدَّمَ مِن الذُّنوب**، كما سَبَقَ ذَكْرُه؛ وأنَّ الصَّائمين لرمضانَ يوفَّون أجورَهُم في يوم الفِطر، وهو يومُ الجوائز. فيكون معاوَدَةُ الصِّيام بعدَ الفِطْرِ شُكْرًا لهذه النِّعمةِ، فلا نِعْمَةَ أعظمُ من مغفرة الذنوب. كان النبي ﷺ يقومُ حتَّى تتورَّمَ قَدَمَاهُ، فيقالُ له: أتفعَلُ هذا وقد غَفَرَ اللهُ لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ فيقول: «**أفلا أكونُ عبدًا شكورًا؟**»[1].

وقد أَمَرَ الله سبحانه وتعالى عِبادَهُ بشُكْرِ نِعمَةِ صِيام رمضانَ بإظهارِ ذِكْرِهِ، وغير ذلك من أنواع شكرِه، فقال: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥]. فمن جملةِ شكر العَبْدِ لربِّه على توفيقِه لصيامِ رمضانَ وإعانتِه عليه، ومغفرةِ ذنوبِه أن يصومَ له شكرًا عقيبَ ذلك.

(١) مسلم (١١٦٤).

كان بعضُ السَّلَف إذا وُفِّقَ لقيام ليلةٍ من الليالي أصبَحَ في نهارها صائمًا، ويجعلُ صيامَه شكرًا للتوفيقِ للقيام.

* ومنها: **أنَّ الأعمال التي كان العَبْدُ يتقرَّب بها إلى ربِّه في شهر رمضانَ لا تنقطِعُ بانقضاء رمضانَ**، بل هي باقيةٌ بعدَ انقضائه ما دام العبدُ حَيًّا.

**قيل لِبِشْرٍ**: إنَّ قومًا يتعبَّدُون ويجتهدون في رمضان. فقال: بئسَ القومُ قومٌ لا يعرِفون اللهَ حقًّا إلَّا في شهر رمضانَ، إن الصَّالحَ الذي يتعبَّدُ ويجتهِدُ السَّنةَ كلَّها.

**وسئلَتْ عائشةُ** ﵂: هل كان النبي ﷺ يخصُّ يومًا مِن الأيام؟ فقالت: **لا، كان عملُه دِيمةً**[1]. وقالت: **كان النبي ﷺ لا يزيدُ في رمضانَ ولا غيرِه على إحدى عشرةَ ركعةً**[2]. وقد كان النبي ﷺ يقضِي ما فاته من أورادِه في رمضان في شوالٍ، فترك في عامٍ اعتكافَ العَشْر الأواخر مِن رمضان، ثم قضاهُ في شوالٍ، فاعتكَفَ العَشْرَ الأوَلَ منه.

وقد تقدَّم عن أُمِّ سَلَمَةَ أنَّها كانت تأمر أهلَها: مَن كان عليه قضاءٌ مِن رمضان أن يقضِيَه الغدَ من يوم الفِطرِ، **فمن كان عليه قضاءٌ من شهرِ رمضانَ فليبدأْ بقضائه في شوَّالٍ؛ فإنه أسرَعُ لبراءةِ ذمتِه، وهو أوْلَى من التطوُّع بصيام ستٍّ من شوَّال.** فإنَّ العلماء اختلفوا فيمن عليه صيامٌ مفروضٌ؛ هل يجوزُ أن يتطوَّع قبلَه أم لا؟ وعلى قولِ من جوَّزَ التطوَّعَ قبلَ القضاءِ فلا يحصُلُ مقصودُ صيامِ ستةِ أيَّامٍ من شَوَّالٍ إلَّا لمن أكمَلَ صِيَامَ رمضان، ثم أتبعه بستٍّ من شوَّالٍ. فمن كان عليه قضاءٌ من رمضانَ، ثم بدأ بصيام سِتٍّ من شوَّالٍ تطوُّعًا، لم يحصُلْ له ثوابُ مَن صامَ رمضانَ، ثم أتبَعَهُ بستٍّ من شوالٍ، حيث لم يُكمِلْ عِدةَ رمضان، كما لا يحصُلُ لمن أفطر رمضانَ لعذرٍ بصيام ستَّةِ أيام من شوالٍ أجرُ صيام السَّنةِ بغير إشكالٍ.

ومن بدأ بالقضاءِ في شوَّالٍ، ثم أراد أن يُتبعَ ذلك بصيام ستٍّ من شوَّالٍ بعدَ تكملةِ قضاءِ رمضانَ كان حسنًا؛ لأنَّه يصيرُ حينئذٍ قد صام رمضانَ وأتبَعَهُ بستٍّ من شوال. ولا يحصُل له فَضْلُ صيام ستٍّ من شوَّالٍ بصومِ قضاءِ رمضانَ؛ لأنَّ صيامَ الستِّ مِن شوَّالٍ إنما يكون بعدَ إكمالِ عدَّةِ رمضانَ.

---

(١) البخاري (٦٤٦٦)؛ ومسلم (٧٨٣).

(٢) البخاري (١١٤٧)؛ ومسلم (٧٣٨).

## المجلسُ الثاني: في ذكر الحج وفضله والحثِّ عليه

في (الصحيحين) عن أبي هريرةَ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**أفضَلُ الأعمال: إيمانٌ بالله ورسولِه، ثم جِهَادٌ في سبيل الله، ثم حَجٌّ مَبْرُورٌ**»(١).

هذه الأعمال الثلاثة ترجعُ في الحقيقة إلى عملين:

* **أحدهما**: الإيمانُ بالله ورسولِه، وهو التَّصديقُ الجازم بالله وملائكته وكتبِه ورسلِه واليوم الآخرِ.

* **والعَمَلُ الثاني**: الجهادُ في سبيلِ اللهِ تعالى. وقد جمع الله بين هذين الأصلين في مواضِعَ من كتابِه، كقولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف:١٠-١١] الآية، وفي قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

### أنواع الجهاد في سبيل الله:

فالإيمانُ بالله ورسولِه وظيفةُ القلبِ واللسانِ، ثم يتبعهما عملُ الجوارحِ، وأفضلُها الجهادُ في سبيلِ اللهِ، وهو نوعانِ: أفضلُهما جهادُ المؤمنِ لعدوِّه الكافرِ، وقتالُه في سبيلِ اللهِ؛ فإنَّ فيه دعوةً له إلى الإيمان بالله ورسولِه، ليدخُلَ في الإيمان. قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

قال أبو هريرة ﷺ في هذه الآية: يجيئون بهم في السَّلاسلِ حتَّى يُدخلوهم الجنَّةَ. وفي الحديث المرفوع: «**عَجِبَ رَبُّكَ من قومٍ يُقَادُون إلى الجنَّة بالسَّلاسل**»(٢).

فالجهادُ في سبيل الله دعاءُ الخَلْقِ إلى الإيمان بالله ورسُولِهِ بالسَّيفِ والسّنانِ(٣)، بعدَ دُعائهم إليه بالحجَّةِ والبرهان. وقد كان النبي ﷺ في أوَّل الأمر لا يقاتلُ قومًا حتى يدعوهم. فالجهادُ به تعلو كلمةُ الإيمانِ، وتتسعُ رُقْعَةُ الإسلام، ويكثُرُ الداخلون فيه،

(١) البخاري (١٤٤٧)؛ ومسلم (٨٣).
(٢) البخاري (٢٦)؛ ومسلم (٨٣).
(٣) في الأصل المطبوع: «واللسان» وهو خطأ. والسنان: نصلُ الرمح.

وهو وظيفةُ الرُّسُلِ وأتباعِهِم، وبه تصيرُ كلمةُ الله هي العليا. والمقصودُ منه أن يكون الدِّينُ كُلُّه لله، والطاعةُ له، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]. والمجاهدُ في سبيلِ اللهِ هو المقاتِلُ لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا خاصَّةً.

**والنوعِ الثاني من الجهاد:** جهادُ النفسِ في طاعةِ الله، كما قال النبي ﷺ: «**المجاهِدُ مَنْ جاهَدَ نَفْسَه في الله**»(١). وقال بعضُ الصحابة لمن سأَلَهُ عن الغزوِ: ابْدَأْ بنفسِكَ فاغْزُها، وابْدأ بنفسِكَ فجاهِدها.

وأعظَمُ مجاهدَةِ النفسِ على طاعةِ اللهِ عِمارَةُ بيوتِه بالذِّكرِ والطاعةِ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة:١٨].

**والنوعُ الأوَّلُ من الجهاد أفضَلُ من هذا الثاني**، قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [التوبة:١٩-٢٠].

### فضل الحج وعمارة المساجد:

وقد دَلَّ حديثُ أبي هريرةَ رضي الله عنه على أنَّ أفضَلَ الأعمالِ بعدَ الجهاد في سبيل اللهِ جنسُ عِمارةِ المساجدِ؛ بذكر اللهِ وطاعتِه، فيدخُلُ في ذلك الصلاةُ والذِّكْرُ والتِّلاوةُ والاعتكافُ وتعليمُ العِلْمِ النافعِ واستماعُهُ. وأفضَلُ ذلك عِمارَةُ أفضَلِ المساجِدِ وأشرفِها، وهو المسجِدُ الحرامُ، بالزِّيارةِ والطَّوافِ؛ فلهذا خصَّه بالذكرِ وجَعَلَ قَصْدَهُ للحَجِّ أفضَلَ الأعمالِ بعدَ الجهادِ.

وفي (صحيح البخاري) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: يا رسولَ اللهِ، نَرَى الجهادَ أفضلَ العَمَلِ، أفلا نجاهِدُ؟ قال: «**لكِنْ أَفْضَلُ الجِهادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ**»(٢)، يعني أفضَلَ جهادِ النساءِ.

---

(١) أحمد (٢٧٧٢٥)؛ والترمذي (١٦٢١).

(٢) البخاري (١٥٢٠).

وقد خرَّجه البخاريُّ بلفظٍ آخَرَ، وهو: «**جِهادُكُنَّ الحَجُّ**»(١)؛ وهو كذلك.

وخرَّج البيهقيُّ وغيرُه من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**جهادُ الكبيرِ، والضعيفِ، والمرأةِ، الحجُّ والعُمرَةُ**»(٢).

وإنَّما كان الحجُّ والعمرَةُ جهادًا؛ لأنَّه يُجهدُ المالَ والنفسَ والبَدَنَ، كما قال أبو الشَّعثاء: نظرْتُ في أعمالِ البرِّ، فإذا الصَّلاةُ تجهِدُ البَدَنَ دونَ المالِ، والصِّيامُ كذلك، والحجُّ يجهِدُهما، فرأيتُه أفضلَ.

وقد اختَلَفَ العلماءُ في تفضيل الحَجِّ تطوُّعًا على الصدقةِ.

* **فمنهم**: من رَجَّحَ الحجَّ، كما قاله طاووسٌ وأبو الشعثاءِ، وقاله الحَسَنُ أيضًا. ومنهم: مَن رجَّحَ الصَّدَقةَ، وهو قولُ النَّخعيِّ.

* **ومنهم**: من قال: إن كان ثَمَّ رَحِمٌ محتاجَةٌ أو زمنُ مجاعةٍ، فالصَّدَقَةُ أفضَلُ، وإلَّا فالحَجُّ؛ وهو نصُّ أحمدَ.

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**الحَجُّ المبرور ليس له جزاءٌ إلَّا الجنَّة**»(٣).

وثَبَتَ عنه ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ حَجَّ هذا البَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ ولَمْ يفسُقْ، خَرَجَ مِن ذنوبِه كيومِ وَلَدَتْهُ أُمُّه**»(٤).

**علامات الحج المبرور:**

فمغفرةُ الذنوبِ بالحَجِّ، ودخولُ الجنَّة به مرتبٌ على كونِ الحجِّ مبرورًا. وإنما يكون مبرورًا باجتماعِ أمرين فيه:

**أحدهما: الإتيانُ فيه بأعمالِ البرِّ؛ والبِرُّ يُطْلَقُ بمعنيين:**

**أحدهما: بمعنى الإحسانِ إلى الناسِ**، كما يقال: البِرُّ والصِّلةُ، وضِدُّه العُقُوقُ. وفي صحيح مسلم أنَّ النبي ﷺ سُئل عن البِرِّ، فقال: «**البِر: حُسْنُ الخُلُقِ**»(٥).

---

(١) البخاري (٢٨٧٥).

(٢) سنن النسائي الكبرى (٢/ ٣٢١)، وسنن البيهقي الكبرى (٤/ ٣٥٠)، والطبراني في الأوسط (٨/ ٣١٩).

(٣) البخاري (١٧٧٣)؛ ومسلم (١٣٤٩).

(٤) البخاري (١٨١٩)؛ ومسلم (١٣٥٠).

(٥) مسلم (٢٥٥٣).

وكانَ ابنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يقول: إنَّ البِرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ؛ وجْهٌ طليقٌ وكلامٌ ليِّن. وهذا يُحتاجُ إليه في الحجِّ كثيرًا، أعني معاملةَ الناسِ بالإحسانِ بالقولِ والفعلِ. قال بعضُهم: إنما سُمِّي السفرُ سَفَرًا؛ لأنَّه يُسْفِرُ عن أخلاقِ الرجال. وفي المسند عن جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «**الحَجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلَّا الجنَّة**». قالوا: وما بِرُّ الحجَّ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**إطعامُ الطعام، وإفشاء السَّلام**»[1]. وفي حديث آخَرَ: «**وطيب الكلام**»[2].

وسُئِلَ سعيدُ بن جبير: أيّ الحاجِّ أفضلُ؟ قال: مَنْ أطعَمَ الطعام وكفَّ لسانَه.

ومِن أجْمَعِ خِصالِ البِرِّ التي يحتاجُ إليها الحاجُّ ما وصَّى به النبيُّ ﷺ أبا جُرَيّ الهُجَيْمِي، فقال: «**لا تَحْقِرَنَّ من المعروف شيئًا ولو أن تُفْرِغَ مِن دَلْوِكَ في إناءِ المُسْتَسْقِي، ولو أن تعطيَ صِلَةَ الحبْلِ، ولو أن تعطيَ شِسْعَ النَّعْل، ولو أن تُنحِّيَ الشيء من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تلقَى أخاكَ ووجْهُكَ إليه منطلقٌ، ولو أن تلقَى أخاكَ المسلم فتسلِّم عليه، ولو أن تؤنسَ الوَحْشَانَ في الأرضِ**»[3]. وفي الجملة، فخيرُ الناسِ أنفعُهم للنَّاس، وأصبرُهم على أذَى الناسِ، كما وَصَفَ اللهُ المتَّقين بذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤]. والحاجُّ يحتاجُ إلى مخالطةِ الناسِ، والمؤمنُ الذي يخالِطُ الناسَ ويصبِرُ على أذاهم أفضلُ ممن لا يخالِطُهم ولا يصبرُ على أذاهم. قال ربيعة: المروءةُ في السَّفرِ بَذْلُ الزَّادِ، وقلَّةُ الخِلاف على الأصحاب.

والإحسانُ إلى الرفقةِ في السفرِ أفضَلُ من العِبادةِ القاصرةِ، لا سيَّما إن احتاجَ العابدُ إلى خدمةِ إخوانِه. وقد كان النبي ﷺ في سفرٍ في حَرٍّ شديدٍ، ومَعَهُ مَن هو صائمٌ ومفطِرٌ، فسقَطَ الصُّوَّامُ وقامَ المفطرون فضَرَبوا الأبنية، وسَقَوا الرِّكَابَ، فقال النبيُّ ﷺ: «**ذهَبَ المفطرون اليومَ بالأجر**»[4].

---

(١) أحمد (١٤١٧٢).

(٢) الحاكم في المستدرك (١/ ٦٥٨)، والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢٦٢).

(٣) أحمد (١٥٥٢٥).

(٤) البخاري (٢٨٩٠)؛ ومسلم (١١١٩).

المعنى الثاني: **مما يُراد بالبرِّ فِعْلُ الطَّاعاتِ كُلِّها، وضِدُّه الإثمُ.** وقد فسَّر الله تعالى البرَّ بذلك في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة:١٧٧] الآية. فتضَمَّنت الآيةُ أنَّ أنواعَ البرِّ سِتَّةُ أنواعٍ، مَن استكمَلَها فقط استكمَلَ البرَّ.

- **أوَّلها:** الإيمانُ بأصولِ الإيمانِ الخمسةِ.
- **وثانيها:** إيتاءُ المالِ المحبوبِ لذوي القُرْبَى واليتامَى والمساكينِ وابنِ السَّبيل والسَّائلينَ وفي الرقابِ.
- **وثالثها:** إقامُ الصلاة.
- **ورابعها:** إيتاءُ الزَّكاة.
- **وخامسها:** الوفاءُ بالعَهْد.
- **وسادسها:** الصَّبْرُ على البأساءِ والضَّرَّاءِ وحينَ البأسِ.

وكلُّها يحتاجُ الحاجّ إليها، فإنَّه لا يصحُّ حجُّه بدونِ الإيمانِ، ولا يكمُلُ حجُّه ويكونُ مبرورًا بدونِ إقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ؛ فإنَّ أركانَ الإسلامِ بعضُها مرتبطٌ ببعضٍ، فلا يكمل الإيمانُ والإسلامُ حتَّى يؤتَى بها كلِّها، ولا يكْمُلُ بِرُّ الحَجِّ بدونِ الوفاءِ بالعهودِ في المعاقَدَاتِ والمشاركاتِ المحتاجِ إليها في سَفَرِ الحَجِّ، وإيتاءِ المالِ المحبوبِ لمن يُحِبُّ الله إيتاءَه، ويحتاجُ مع ذلك إلى الصبرِ على ما يُصيبُه من المشاقّ في السَّفَرِ. فهذه خصالُ البرِّ.

**إقام الصلاة من أعظم أنواع برّ الحجّ:**

**ومِن أهمِّها للحاجِّ إقامُ الصَّلاةِ.** فمَنْ حَجَّ من غير إقام الصَّلاةِ، لاسيَّما إن كان حَجُّه تطوُّعًا، كان بمنزلةِ مَن سَعَى في رِبْحِ دِرْهم، وضَيَّعَ رأسَ مالِه وهُو أُلوفٌ كثيرة. وقد كان السَّلَفُ يواظِبون في الحجِّ على نوافِلِ الصَّلاةِ، وكان النبيُّ ﷺ يواظِبُ على قيامِ الليلِ على راحِلتِهِ في أسفارِه كُلِّها ويوتِرُ عليها.

وحَجَّ مسروقٌ، فما نام إلَّا ساجدًا.

فنحن ما نأمرُ إلا بالمحافظةِ على الصَّلاةِ في أوقاتِها ولو بالجَمْعِ بين الصَّلاتين المجموعتين في وقتِ إحداهُما بالأرضِ؛ فإنَّه لا يُرَخَّصُ لأحدٍ أن يصلِّيَ صَلاةَ الليلِ في النَّهارِ، ولا صَلاةَ النَّهارِ في الليلِ، ولا أن يصلِّيَ على ظَهْرِ راحلتِه المكتُوبةَ، إلَّا مَن خافَ الانقطاعَ عن رفقتِه أو نحو ذلك ممن يخافُ على نفسِه.

## كثرة ذكر الله من أعظم أنواع بر الحج:

ومن أعظم أنواعِ بِرِّ الحَجِّ كثرةُ ذِكْرِ اللهِ تعالى فيه، وقد أَمَرَ الله تعالى بكثرة ذِكْرِه في إقامة مناسِكِ الحَجِّ مرَّةً بعدَ أخرى.

وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ، قال: «**أفضَلُ الحَجِّ العَجُّ والثَّجُّ**»[1].

**فالعَجُّ**: رفْعُ الصَّوت بالتكبير والتلبية، **والثَّجُّ**: إراقَةُ دِماء الهَدَايا والنُّسُك.

## ذبح الهدي من خصال الحج المبرور:

والهَدْي من أفضلِ الأعمال، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج:٣٦]، الآية. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢]. وأهْدَى النبيُّ ﷺ في حجَّةِ الوَدَاع مائةَ بَدَنةٍ.

## اجتناب أفعال الإثم من علامات الحج المبرور:

**الأمر الثاني: مما يكمُلُ به بِرُّ الحجِّ اجتنابُ أفعالِ الإثم فيه**؛ من الرَّفَثِ والفُسُوق والمعاصي، قال الله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧].

وفي الحديث الصحيح: «**مَنْ حَجَّ هذا البيتَ فلم يَرْفُثْ ولم يَفْسُقْ رَجَعَ كيومِ وَلَدَتْهُ أُمُّه**»[2].

## طيب النفقة من علامات الحج المبرور:

ومن أعظم ما يجبُ على الحاجّ اتقاؤه من الحرام: أن يُطِيبَ نفقَتَه في الحَجِّ، وأن لا يجعَلَها مِن كَسَبٍ حرامٍ.

---

(١) الترمذي (٨٢٧)؛ وابن ماجه (٢٨٩٦).

(٢) سبق تخريجه.

إذا حَجَجْتَ بمالٍ أصلُهُ سُحْتٌ فما حَجَجْتَ ولكن حَجَّت العِيرُ
لا يقبَلُ اللهُ إلَّا كُلَّ طيِّبَةٍ ما كُلُّ مَنْ حَجَّ بيتَ اللهِ مَبْرُورُ

**الإخلاص من علامات الحج المبرور:**

ومما يجبُ اجتنابُه على الحاج وبه يتمُّ بِرُّ حَجِهِ أن لا يقصِدَ بحجِّه رياءً ولا سُمْعَةً ولا مباهاةً ولا فخرًا ولا خُيلاءَ، ولا يقصِدُ به إلَّا وَجْهَ اللهِ ورِضَوانَهُ، ويتواضَعُ في حَجِّه ويستكينُ ويخشَعُ لِربِّه. رُوِي عن أنسٍ ﷺ أنَّ النبي ﷺ حَجَّ على رَحْلٍ رَثٍّ وَقَطِيفةٍ ما تساوي أربعةَ دَرَاهِمَ، وقال: «**اللهم! اجعلْها حَجَّةً لا رِياءَ فيها ولا سُمْعَةً**»[1].

قال رجل لابن عمر: ما أكثَرَ الحاجَّ! فقال ابن عمر: ما أقلَّهم! ثم رأى رجلًا على بعيرٍ على رَحْلٍ رَثٍّ، خِطامُه حَبْلٌ، فقال: لعلَّ هذا. وقال شُريح: الحاجُّ قليلٌ والركبانُ كثير، ما أكثَرَ مَن يعملُ الخيرَ، ولكن ما أقلَّ الذين يريدون وجْهَه!

وفي حديث المباهاةِ يومَ عَرفَةَ أنَّ الله تعالى يقولُ لملائكته: «**انظُروا إلى عبادي، أتوني شُعثًا غُبْرًا ضاحين**[2]**، اشْهَدُوا أنِّي قد غفَرْتُ لهم**»[3].

قال عُمَرُ يومًا وهو بطريق مكَّة: تشعَثُون وتغبُرُون وتتفُلُون[4] وتَضْحُون، لا تريدون بذلك شيئًا من عَرَضِ الدُّنيا، ما نعلَمُ سَفَرًا خَيْرًا من هذا؛ يعني الحجَّ.

سبحان من جَعَلَ بيتَه الحَرَامَ مثابَةً للنَّاس وأَمْنًا، يتردَّدون إليه، ويرجعون عنه، ولا يرون أنَّهم قَضَوْا منه وَطَرًا. لَمَّا أضافَ الله تعالى ذلك البيتَ إلى نفسه ونسَبَه إليه، بقوله ﷻ لخليله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج:٢٦]، تعلَّقت قلوبُ المحبِّين ببيتِ محبوبهم، فكلَّما ذُكِرَ لهم ذلك البيتُ الحرامُ حَنُّوا، وكلَّما تذكّروا بُعْدَهم عنه أَنُّوا:

لا يُذْكَرُ الرَّمْلُ إلَّا حَنَّ مغتَرِبٌ لَهُ بذي الرَّمْلِ أوطارٌ وأوطانُ
تهفو إلى البانِ من قلبي نوازِعُه وما بي البانُ بَلْ مَنْ دارُهُ البانُ

▪▣▪▣▪

---

(١) ابن ماجه (٢٨٩٠).

(٢) ضاحين: بارزين للشمس.

(٣) صحيح ابن حبان (٩/ ١٤٦)؛ ومصنف عبد الرزاق (٥/ ٨).

(٤) تتفلون: تتغير رائحتكم.

## المجلس الثالث:

## فيما يقومُ مقام الحجّ والعمرة عند العجز عنهما يُذْكَر بعد خروج الحاج

في (صحيح البخاري) عن أبي هريرةَ ﵁، قال: جاء الفقراءُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالوا: «ذَهَبَ أهْلُ الدُّثُورِ من الأموال بالدَّرَجَاتِ العُلَى والنَّعِيم المُقِيم، يُصَلُّون كما نُصَلِّي، وَيَتَصَدَّقُون. فقال رسولُ الله ﷺ: «**ألا أحدِّثُكم بما إنْ أخَذْتم به لَحِقْتُم مَن سَبَقَكُمْ ولمْ يُدْرِكْكُم أحَدٌ بعدَكُم، وكنتُمْ خَيْرَ مَن أنتُم بينَ ظَهْرَانَيْهِ؛ إلَّا مَن عَمِلَ مِثْلَه: تُسبِّحون وتَحْمَدُون وتُكَبِّرون خَلْفَ كُلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين**»[1]. وفي المسند وسنن النسائي عن أبي الدَّرداءِ ﵁، قال: قلنا: يا رسولَ الله؛ ذَهَبَ الأغنياءُ بالأجْر، يحجُّون ولا نحجُّ، ويجاهِدُون ولا نُجاهِدُ، وبكذا وبكذا. فقال رسولُ الله ﷺ: «**أَلا أَدُلُّكُم على شيءٍ إن أخذْتُم به جئْتُم من أَفْضَلِ ما يجيءُ به أحدٌ منهم: أن تكبِّروا الله أربعًا وثلاثين، وتسبِّحوه ثلاثًا وثلاثين، وتَحْمَدُوه ثلاثًا وثلاثين في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ**»[2].

### وظيفة المال في الإسلام:

المالُ ـ لمن استعانَ به على طاعة الله، وأنفقه في سُبُلِ الخيرات المقرِّبة إلى الله ـ سببٌ موصِلٌ له إلى الله، وهو ـ لمن أنفقَه في معاصي الله، واستعانَ به على نيلِ أغراضِه المحرَّمة، أو اشتغل به عن طاعة الله ـ سببٌ قاطع له عن الله، وقد مَدَحَ الله في كتابه القِسْمَ الأول، وذَمَّ القسم الثاني، فقال في مدح الأولين: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٤].

وقد قال ﷺ: «**نِعْمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجُلِ الصَّالحِ**»[3].

وقال: «**إنَّ هذا المالَ خَضِرةٌ حُلْوةٌ؛ فمن أَخَذَه بحقِّه وَوَضَعَه في حَقِّه، فنِعْمَ المعُونَةُ هو، وإن أخذَه بغير حقِّه، كان كالذي يأكُلُ ولا يشبَعُ**»[4]. فالمؤمنُ الذي يأخُذُ المالَ من

(١) البخاري (٨٤٣).
(٢) أحمد (٢٦٩٦٩)؛ وسنن النسائي الكبرى (٦/ ٤٤).
(٣) أحمد (١٧٣٠٩).
(٤) البخاري (٦٤٢٧)؛ ومسلم: (١٠٥٢).

حقِّه ويضَعُه في حقِّه، فلَهُ أَجْرُ ذلك كُلِّه، وكلما أنفق منه يبتغي به وَجْهًا لله فهو له صدقةٌ يؤجَرُ عليها، حتى ما يُطعم نفسَه فهو له صَدَقَةٌ، وما يطعِمُ وَلَدَه فهو له صدقة، وما يُطْعِمُ أهلَه فهو له صدقةٌ، وما يطعِمُ خادِمَه فهو له صَدَقَةٌ. وكان عامة أهلِ الأموالِ من أصحابِ النبيِّ ﷺ من هذا القسمِ.

**نماذج من إنفاق أصحاب النبي ﷺ:**

وخرَّج أبو داود والترمذيُّ من حديث عمرَ، قال: أمرنا رسولُ اللهِ ﷺ أن نتصدَّق، ووافَقَ ذلك عندِي مالًا، فقلْتُ: اليومَ أسبِقُ أبا بكر إن سبقتُه يومًا. قال: فجئتُ بنصفِ مالي، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما أبقيتَ لأهلك؟**» قلْتُ: مثلَه. وإنَّ أبا بكرٍ أتى بكلِّ ما عِندَه، فقال: «**يا أبا بكر: ما أبقيْتَ لأهلك؟**» قال: أبقيْتُ لهم الله ورسولَه. فقلت: لا أسابِقُه إلى شيءٍ أبدًا[1].

**وكان من المنفقين أموالهم في سبيل الله، عثمانُ بن عفان**، ففي الترمذيّ، عن عبد الرحمنِ بنِ خبابٍ، قال: «شَهِدْتُ النَّبِيَّ ﷺ وهو يَحُثُّ على جيش العُسْرَةِ، فقام عثمانُ، فقال: يا رسولَ اللهِ! عليَّ مائةُ بعيرٍ بأَحْلاسها[2] وأقتابِها[3] في **سبيل اللهِ** ثم حَضَّ على الجيشِ، فقام عثمان، فقال: يا رسولَ الله! عليّ مائتا بعيرٍ بأَحْلاسِها وأَقْتَابِها في سبيلِ اللهِ. ثم حَضَّ على الجيش، فقام عثمان، فقال: يا رسولَ الله! عليَّ ثلاثمائةُ بعيرٍ بأحلاسِها وأقتابِها في سبيلِ الله. قال: فرأيتُ رسولَ الله ﷺ ينزل على المِنْبَر، وهو يقولُ: «**ما على عثمانَ ما فَعَلَ بعدَ هذه، ما على عثمان ما فعل بعد هذه**»[4].

**وكان منهم أيضًا عبد الرحمن بن عوف**: وفي مسند الإمام أحمد أَنَّه قدِمَ له عِيرٌ إلى المدينة، فارتجت لها المدينةُ، فسألَتْ عائشةُ عنها، وحدثتْ حديثًا عن النبيِّ ﷺ، فبلغ عبدَ الرحمن فجَعَلَها كُلَّها في سبيلِ اللهِ بأقتابِها وأحلاسِها، وكانت سبعمائةَ راحلةٍ.

---

(١) أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥).

(٢) **بأحلاسها**: كسوتها.

(٣) **أقتابها**: جمع قتب وهو الإكاف الصغير على قدر سنام البعير.

(٤) أحمد (١٦٢٥٥)، والترمذي (٣٧٠٠).

### تسابق الصحابة في الخيرات:

لما سمِعَ الصَّحابة رضي الله عنهم قولَ الله عز وجل: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨] فهِمُوا من ذلك أنَّ المرادَ أن يجتهدَ كُلُّ واحدٍ منهم أن يكونَ هو السابقَ لغيرِه إلى هذه الكرامةِ، والمسارِعَ إلى بلوغِ هذه الدرجةِ العاليةِ، فكان أحدُهم إذا رأى مَن يعمَلُ عملًا يعجِزُ عنه، خَشِي أن يكونَ صاحِبُ ذلك العملِ هو السابقَ له، فيحزنَ لفواتِ سَبْقِهِ. فكان تنافُسُهم في دَرَجَاتِ الآخرةِ واستباقُهم إليها، كما قال تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]، ثم جاء مَنْ بعدَهُم، فعَكَسَ الأمْرَ، فصار تنافُسُهم في الدنيا الدنيةِ وحظوظِها الفانيةِ.

قال الحسن: إذا رأيتَ الرجلَ ينافسُك في الدُّنيا فنافِسْه في الآخرةِ. وقال وُهَيْبُ ابنُ الوَرْدِ: إن استطعْتَ ألا يسبقكَ إلى اللهِ أحدٌ فافْعَلْ.

العاقِلُ يغبطُ من أنفقَ مالَه في سبيل الخيراتِ ونيلِ علوِّ الدَّرجاتِ، والجاهلُ يغبِطُ مَنْ أَنْفقَ مالَه في الشَّهواتِ وتوصَّل به إلى اللَّذَّاتِ المحرَّماتِ. قال الله تعالى حاكيًا عن قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص:٧٩-٨٠] إلى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

فلمَّا رأى النَّبيُّ ﷺ تأَسُّفَ أصحابه الفقراءِ وحُزنَهم على ما فاتَهم من إنفاق إخوانِهم الأغنياءِ أموالَهم في سبيلِ الله تقرُّبًا إليه وابتغاءً لمرضاتِه، طَيَّبَ قلوبَهم ودلَّهم على عملٍ يسيرٍ يُدرِكُون به من سَبَقَهم ولا يلحَقُهم معه أَحَدٌ بعدَهم، ويكونون به خيرًا مِمَّن هم معه، إلَّا من عمِلَ مثلَ عملِهم، وهو الذِّكرُ عَقِيبَ الصَّلواتِ المفروضاتِ، وقد اختلفَتِ الرواياتُ في أنواعِه وعددِه. والأخذُ بكُلِّ ما ورد مِن ذلك حَسَنٌ ولَهُ فضلٌ عظيمٌ.

وفي حديث أبي هريرة هذا أنَّهم يسبِّحون ويحمَدُون ويكبِّرون خَلْفَ كُلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين.

## الصدقة لا تختصُّ بالمال:

وقد كان بعضُ الصَّحابة يظنُّ أن لا صدقَةَ إلَّا بالمال، فأَخْبَره النَّبيُّ ﷺ أنَّ الصَّدَقة لا تختصُّ بالمال، وأن الذِّكر وسائرَ أعمالِ المعروفِ صَدَقَةٌ، كما في صحيح مسلم عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه: «أنَّ ناسًا مِن أصحاب النَّبِيِّ ﷺ، قالوا: يا رسولَ الله! ذَهَبَ أهلُ الدُّثورِ بالأُجور، يُصَلُّون كما نصلِّي، ويَصُومُون كما نَصُومُ، ويَتَصَدَّقُون بِفُضُولِ أموالِهِم. فقال النبيُّ ﷺ: **«أَوَ لَيْسَ قد جَعَلَ اللهُ لكم ما تتصدَّقُون به؟ إنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحةٍ صَدَقَةً، وكُلِّ تكبيرةٍ صَدَقَةً، وكُلِّ تحميدَةٍ صدقةً، وكُلِّ تهليلَةٍ صَدَقَةً؛ وَأَمْرٌ بالمعروفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عن مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»**[1].

واعلم أن من عجزَ عن عملِ خيرٍ، وتأسَّفَ عليه، وتمنَّى حصولَه، كان شريكًا لفاعِلِه في الأجرِ.

وقد كان بعضُ من يقعُدُ عن الجهادِ من امرأةٍ وضعيفٍ في عهد النبيِّ ﷺ يسأله عن عَمَلٍ يَعدِلُ الجِهادَ.

وفاتَ بعضَ النساءِ الحجُّ مع النبيِّ ﷺ، فلمَّا قدِمَ سألَتْهُ عمَّا يجزئُ من تلك الحجَّةِ، قال: **«اعتَمِري في رَمَضَانَ؛ فإنَّ عُمْرَةً في رَمضان تعدِلُ حجَّةً، أو حجَّةً معي»**[2].

وقالت عائشة: يا رسولَ الله! نَرَى الجهادَ أفضَلَ العَمَلِ، أفلا نجاهِدُ؟ قال: **«جهادُكُنَّ الحَجُّ والعُمْرَةُ»**[3].

## أعمال تعدل الحج في الأجر:

لَمَّا كان الحجُّ من أفضَلِ الأعمالِ، والنُّفوسُ تتوقُ إليه؛ لِما وَضَعَ اللهُ في القلوبِ من الحنين إلى ذلك البيتِ المُعَظَّمِ، وكان كثيرٌ من النَّاسِ يعجِزُ عنه، ولا سيما كُلَّ عامٍ، شَرَعَ اللهُ لعبادِهِ أعمالًا يبلُغُ أجرُها أَجْرَ الحجِّ، فيتعوَّضُ بذلك العاجزونَ عن التطوُّع بالحجِّ.

---

(١) مسلم (١٠٠٦).

(٢) البخاري (١٧٨٢)؛ ومسلم (١٢٥٦).

(٣) البخاري (٢٨٧٥).

ففي الترمذيِّ، عن النبي ﷺ قال: «مَن صلَّى الصُّبْحَ في جماعةٍ، ثمَّ جلَسَ في مُصَلاَّه يذكُرُ اللهَ حَتَّى تطلُعُ الشَّمْسُ، ثم صلَّى ركعتينِ، كان له مثلُ أَجْرِ حجةٍ وعُمرةٍ تامَّةٍ». قال رسولُ الله ﷺ: «تامَّةٍ، تامَّةٍ، تامَّةٍ»(١).

إخواني، إن حُبِسْتُم العامَ عن الحَجِّ فارجعُوا إلى جهادِ النُّفوس، فهو الجهادُ الأكبرُ، أو أُحْصِرْتُم عن أداءِ النُّسُك فأريقُوا على تخلُّفكم من الدُّموع ما تَيَسَّر؛ فإنَّ إراقة الدِّماءِ لازمةٌ للمُحْصَر. ولا تحلِقُوا رؤوسَ أديانِكم بالذنوبِ؛ فإنَّ الذنوبَ حالِقَةُ الدِّينِ ليست حالِقَةَ الشعرِ. وقوموا لله باستِشْعار الرِّجاءِ والخوفِ مقامَ القيامِ بأرجاءِ الخِيفِ والمَشْعَرِ. ومن كان قد بَعُدَ عن حَرَمَ الله، فلا يُبْعِد نفسَه بالذنوبِ عن رحمةِ اللهِ، فإنَّ رحمةَ الله قريبٌ مِمَّن تاب إليه واستغفر. ومن عَجَزَ عن حَجِّ البيت أو البيتُ منه بعيدٌ، فليقصِدْ رَبَّ البيت؛ فإنَّه ممن دَعَاهُ ورَجَاه أقرَبُ مِن حَبْلِ الوريدِ.

إليكَ قَصْدِيَ رَبَّ البيتِ والحَجَرِ ... فأنْتَ سُؤلِيَ مِن حَجِّي ومن عُمَرِي
وفيكَ سَعْيِي وتَطْوَافِي ومُزْدَلفِي ... والهَدْيُ جِسْمِي الذي يُغني عن الجُزُرِ
ومسجِدُ الخيفِ خَوْفِي من تباعُدِكُم ... وَمَشْعَرِي ومُقامِي دونكم خَطَرِي
زادِي رَجَائي لكُم والشَّوقُ راحِلتي ... والماءُ من عَبَرَاتِي والهَوَى سَفَرِي

▪▣▪▣▪

(١) الترمذي (٥٨٦).






## وظيفة شهر ذي القعْدة

خرَّج الإمام أحمد بإسناده عن رَجُلٍ من باهِلَةَ، قال: أتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ لحاجةٍ مَرَّةً، فقال: «**مَنْ أنْتَ؟**» قلْتُ: أما تعرِفُني؟ قال: «**ومن أنتَ؟**» قلْتُ: أنا الباهِليُّ الذي أتيتُكَ عامَ أوَّلَ. فقال: «**إنَّك أتيتني وجسمُكَ ولونُك وهيئتُك حَسَنَةٌ؛ فما بَلَغَ بك ما أرى؟**» قُلْتُ: واللهِ ما أفطرْتُ بعدَكَ إلَّا ليلًا. قال: «**مَنْ أمَرَكَ أن تعذِّبَ نفسَك؟ من أمَرَكَ أن تُعَذِّبَ نفَسك؟** ثلاث مراتٍ، **صُمْ شهرَ الصَّبْرِ**». قلتُ: إنِّي أجِدُ قُوَّةً، وإنِّي أحِبُّ أن تزِيدَني. قال: «**صُمْ يومًا من الشهر**». قلْتُ: إنِّي أجِدُ قُوَّةً، وإنِّي أحِبُّ أن تزيدَني. قال: «**فيومين من الشهر**». قلت: إنِّي أجِدُ قُوَّةً، وإني أحِبُّ أن تزيدني. قال: «**فثلاثة أيام من الشهر**». قال: وألَحَّ عند الرابعة فما كاد. فقلْتُ: إنِّي أجِدُ قُوَّةً وإني أحِبُّ أن تزيدَني. قال: «**فمِن الحُرُمِ وأفطِر**»(١). وخرَّجه أبوداود والنسائي وابن ماجه بمعناه، وفي ألفاظهم زيادةٌ ونقصٌ.

وفي بعض الروايات «**صُم الحُرُمَ وأفطِر**».

**هدي النبي ﷺ في تيسير العبادة على الناس:**

في هذا الحديث دليلٌ على أنَّ من تكلَّف مِن العبادة ما يشقُّ عليه حتَّى تأذَى بذلك جسَدُه؛ فإنَّه غيرُ مأمورٍ بذلك، ولذلك قال النبي ﷺ له: «**مَنْ أمرَكَ أن تعذِّب نفسَك؟**»، وأعادَها عليه ثلاث مرارٍ. وهذا كما قال لمن رآه يمشي في الحجّ وقد أجهَدَ نفسَه: «**إنَّ اللهَ لغنيٌّ عن تعذيبِ هذا نفسَه، فَمُروه فلْيَرْكَب**»(٢).

وقال لعبدِ الله بنِ عمرو بنِ العاصِ حيثُ كان يصُومُ النَّهار، ويقومُ الليلَ، ويختم القرآنَ في كُلِّ ليلةٍ ولا ينامُ مع أهلِه، فأمَرَه أن يصومَ ويفطِر، ويقرأَ القرآن في كُلِّ سَبْع. وقال ﷺ له: «**إنَّ لنفسك عليك حقًّا، وإنَّ لأهلك عليك حقًّا، فآتِ كُلَّ ذي حَقٍّ حقَّه**»(٣).

---

(١) أحمد (١٩٨١١)؛ وأبوداود (٢٤٢٨)؛ وابن ماجه (١٧٤١).
(٢) البخاري (٦٧٠١)، ومسلم (١٦٤٢).
(٣) البخاري (١٩٧٤)، ومسلم (١١٥٩).

ولَمَّا بلَغه عن بعض أصحابه أنه قال: أنا أصومُ ولا أُفطِر، وقال آخر منهم: أنا أقوم ولا أنام، وقال آخر منهم: لا أتزوَّج النِّساءَ. فخطَبَ، وقال: «**ما بالُ رجالٍ يقولون كذا وكذا، لكنِّي أصومُ وأفطِرُ، وأقومُ وأنام، وآكلُ اللَّحْمَ، وأتزوَّج النساء؛ فمن رَغِبَ عن سُنَّتِي فليس مِنِّي**»[١].

وسببُ هذا أنَّ الله تعالى خَلَقَ ابنَ آدم محتاجًا إلى ما يقومُ به بدنُه؛ من مأكلٍ ومَشْرَبٍ ومنكِحٍ وملبسٍ، وأباح له من ذلك كُلِّه ما هو طيِّبٌ حلالٌ، تقوَى به النفسُ ويصحُّ به الجسَدُ، ويتعاونانِ على طاعة اللهِ ﷻ، وحرَّم من ذلك ما هو ضارٌّ خبيثٌ يوجبُ للنفسِ طغيانَها وعَمَاهَا وقسوتَها وغفلتَها وأشَرَها وبَطَرَها، فمن أطاعَ نفسَه في تناول ما تشتهيه مِمَّا حرَّمه اللهُ عليه، فقد تعدَّى وطَغَى وظلَمَ نَفْسَه، ومَن مَنَعَها حقَّها من المباحِ حتى تضرَّرتْ بذلك، فقد ظَلَمها ومَنَعَها حقَّها؛ فإنْ كان ذلك سببًا لضعْفِها وعجزِها عن أداء شيءٍ من فرائضِ اللهِ عليه، ومن حقوق اللهِ ﷻ أو حقوقِ عبادِه، كان بذلك عاصِيًا، وإن كان ذلك سببًا للعجزِ عن نوافلَ هي أفضَلُ مِمَّا فَعَلَه، كان بذاك مفرِّطًا مغبُونًا خاسِرًا.

وكان كثيرٌ من المتقدِّمين يحمِلون على أنفسِهم من الأعمالِ ما يُضِرُّ بأجسادِهم ويحتَسِبون أجرَ ذلك عند اللهِ، وهؤلاءِ قومٌ أهلُ صِدْقٍ وجدٍّ واجتهادٍ فيُحَيّون على ذلك، ولكن لا يُقْتَدى بهم، وإنَّما يُقْتَدَى بسنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ فإنَّ خيرَ الهَدْي هَدْيُهُ، ومن أطاعَه فقد اهتدَى، ومن اقتدَى به وَسَلَكَ وراءَه وَصَلَ إلى اللهِ ﷻ.

**وقد كان النبيُّ ﷺ ينهى عن التعسيرِ ويأمر بالتيسيرِ**، ودينُه الذي بُعِثَ به يُسْرٌ. ولم يكن أكثرُ تطوُّعِ النبي ﷺ وخواصِّ أصحابه بكثرةِ الصَّومِ وَالصَّلاةِ، بل بِبِرِّ القلوبِ وطهارتِها وسلامتِها وقوَّةِ تعلُّقها باللهِ، خشيةً له ومحبَّةً، وإجلالًا وتعظيمًا، ورغبةً فيما عنده، وزُهدًا فيما يفنَى.

**قال ابنُ مسعودٍ ﵁ لأصحابه**: أنتم أكثرُ صلاةً وصيامًا من أصحابِ محمَّدٍ ﷺ، وهم كانوا خيرًا منكم. قالوا: ولِمَ؟ قال: كانوا أزهَدَ منكم في الدُّنيا وأرغَبَ في الآخرةِ.

**قال بعضُ السلف**: ما بلغ مَنْ بلَغَ عندنا بكثرةِ صلاةٍ ولا صيامٍ، ولكن بسخاوَةِ

(١) البخاري (٥٠٦٣)؛ ومسلم (١٤٠١).

النفوسِ، وسَلامةِ الصُّدورِ، والنُّصحِ للأمَّةِ. وزاد بعضُهم: واحتقارِ أنفسِهم.

والمقصودُ أنَّ هذا الباهِليَّ لَمَّا رآه النبيُّ ﷺ وقد أنهَكَهُ الصَّومُ وغيَّر هيئتَه، وأضرَّ به في جسَدِه، أمَرَهُ أوَّلًا أن يقتصرَ على صيام شهرِ الصَّبْرِ، وهو شهرُ رمضانَ؛ فإنَّه الشهرُ الذي افترَضَ الله صيامَهُ على المسلمين، واكتَفَى منهم بصيامه من السَّنَةِ كُلِّها؛ وصيامُه كفَّارَةٌ لِمَا بينَ الرَّمضانين إذا اجتُنِبِ الكبائرُ. فطلبَ منه الباهِليُّ أن يزيدَه من الصِّيام ويأمرَه بالتطوُّعِ، وأخبَرَه أنَّه يجِدُ قوَّةً على الصِّيام، فقال له: «**صُمْ يومًا مِن الشهر**»، فاستزادَهُ، وقال: إنِّي أجِدُ قوَّةً، فقال: «**صُم يومين من الشهر**»، فاستزاده، وقال: إني أجِدُ قوَّةً، فقال: «**صُمْ ثلاثة أيَّام من الشهر**». قال: وألَحَّ عند الثالثة فما كاد، يعني ما كاد يزيدُه على الثلاثةِ أيَّامٍ من الشهرِ.

وهكذا قال لعبدِ الله بن عمرِو بنِ العاصِ أيضًا؛ ففي (صحيح مسلم) عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «**صُم يومًا**، يعني من الشهر، **ولكَ أجْرُ ما بقي**»، قال: إنِّي أطيقُ أكثر من ذلك، قال: «**صُم يومين ولك أجرُ ما بقي**»، قال: إنِّي أطيقُ أكثَرَ من ذلك، قال: «**صُم ثلاثة أيام ولكَ أجرُ ما بقي**»[1]. ففي هذا أنَّ صيام ثلاثة أيام من الشهر يحصُل به أجرُ صيامِ الشهر كُلِّه، وكذلك صيامُ يومين منه. ووجْهُ ذلك أنَّ الصِّيامَ يُضاعَفُ ما لا يُضاعَفُ غيرُه من الأعمالِ، وقد سَبَقَ ذكرُ ذلك عند الكلام على حديث «**كُلُّ عملِ ابن آدمَ له؛ الحسنةُ بعَشْرِ أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ. قال الله ﷻ: إلَّا الصِّيام فإنَّه لي وأنا أجزي به**»[2].

وفي (الصحيحينِ) عن عبدِ الله بن عمرٍو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**صُمْ مِن الشَّهْرِ ثلاثةَ أيَّام؛ فإنَّ الحسنة بعشْرِ أمثالها، وذلك مثلُ صِيام الدَّهر**»[3].

وفي (صحيح مسلم) عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبي ﷺ كان يصوم ثلاثة أيام من كُلِّ شهرٍ. قيلَ لها: مِن أيِّهِ كان يصوم؟ قالت: كان لا يبالي من أيِّهِ صَامَ[4]. ففي هذا الحديث أنَّه ﷺ لم يكن يبالي من أيِّ الشهر صَامَ الأيام الثلاثة.

---

(١) مسلم (١١٥٩).

(٢) البخاري (١٩٠٤)؛ ومسلم (١١٥١).

(٣) البخاري (١٩٧٦)؛ ومسلم (١١٥٩).

(٤) مسلم (١١٦٠).

وقد كان كثيرٌ من السَّلَفِ يصومُ الأشهرَ الحُرُمَ كلَّها؛ رُوي ذلك عن ابن عمرَ والحسنِ البصريّ وأبي إسحاقَ السَّبيعيِّ.

**وقال سفيان الثوري:** الأشهرُ الحُرُمُ أحَبُّ إليَّ أن أصومَ منها.

**ومن خصائص ذي القَعْدَة:** أنَّ عُمَرَ النبيِّ ﷺ كلَّها كانت في ذي القَعْدَةِ، سِوَى عُمرتِه التي قَرَنها بحجّتِه، مع أنَّه ﷺ أحرَم بها أيضًا في ذي القَعْدَة، وفعَلَها في ذي الحجّة مع حجَّتِه. وكانت عُمَرُه ﷺ أربعًا: عُمْرَةُ الحُدَيْبِيةِ ولم يُتِمَّها، بل تحلَّل منها ورَجَعَ. وعُمْرَةُ القَضَاءِ من قابل. وعُمْرَةُ الجِعِرَّانةِ، عام الفتح، لَمَّا قسَّم غنائمَ حُنينٍ؛ وقيل: إنها كانت في آخرِ شوالٍ، والمشهورُ أنها كانت في ذي القَعْدَة، وعليه الجمهورُ. وعُمْرَتُه في حجَّةِ الوَدَاعِ، كما دلَّت عليه النصوصُ الصحيحةُ، وعليه جمهورُ العلماء أيضًا.

▪▣▪▣▪

# وظائف شهر ذي الحجة

ويشتمل على مجالس:

## المجلس الأوَّل: في فضل عشرِ ذي الحِجَّة

خرَّج البخاري من حديث ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ، قال: «**ما مِنْ أيَّام العملُ الصَّالِحُ فيها أحَبُّ إلى الله من هذه الأيام**، يعني أيَّامَ العَشْرِ. قالوا: يا رسولَ الله! ولا الجِهادُ في سبيل الله؟ قال: **ولا الجِهادُ في سبيل الله، إلَّا رجلٌ خَرَجَ بنفسِه ومالِه، ثم لم يرجعْ من ذلك بشيء**»(١).

الكلامُ في فضل عَشْرِ ذي الحِجَّة في فصلين: في فَضْلِ العَمَل فيه، وعليه دَلَّ هذا الحديث، وفي فَضْله في نفسه.

* * *

### الفصل الأول: في فضل العمل فيه

وقد دَلَّ هذا الحديث على أنَّ العملَ في أيَّامِه أَحبُّ إلى اللهِ من العملِ في أيَّام الدنيا من غير استثناءِ شيءٍ منها، وإذا كان أحَبَّ إلى الله فهو أفضَلُ عندَه. وقد وَرَدَ هذا الحديثُ بلفظ: «**ما من أيامِ العَمَلُ فيها أفضَلُ من أيام العَشْر**»(٢). وروي بالشك في لفظة أَحَبُّ أو أفضَلُ. وإذا كانَ العَمَلُ في أيَّامِ العَشْر أفضَلَ وأحَبَّ إلى الله من العمل في غيرِه من أيَّام السَّنةِ كُلِّها، صار العملُ فيه، وإن كان مفضولًا، أفضلَ من العملِ في غيرِه وإن كان فاضِلاً؛ ولهذا قالوا: يا رسولَ الله! ولا الجهادُ في سبيلِ الله؟ قال: «**ولا الجِهادُ**»، ثم استثنى جِهادًا واحدًا هو أفضَلُ الجهادِ؛ فإنَّه ﷺ سئل أيُّ الجهادِ أفضَلُ؟ قال: «**مَنْ عُقِرَ جَوادُه وأُهْرِيقَ دَمُهُ**»(٣)، وصاحِبُهُ أفضَلُ الناس دَرجَةً عندَ الله.

وأمَّا بقيةُ أنواع الجِهاد فإنَّ العملَ في عشر ذي الحِجَّة أفضَلُ وأَحبُّ إلى اللهِ ﷻ

(١) البخاري (٩٦٩).
(٢) أحمد (٦٥٢٣).
(٣) أحمد (٦٧٥٣).

منها، وكذلك سائرُ الأعمال. **وهذا يدلُّ على أنَّ العمَلَ المفضولَ في الوقتِ الفاضلِ يلتحقُ بالعمل الفاضِلِ في غيرِه، ويزيدُ عليه لمضاعفةِ ثوابِه وأجرِه.**

وقد دلَّ حديثُ ابن عبَّاسٍ على مضاعفةِ جميعِ الأعمالِ الصالحةِ في العَشْرِ من غيرِ استثناءِ شيءٍ منها.

وفي المسندِ والسُّننِ عن حفصةَ أنَّ النبيَّ ﷺ «**كان لا يَدَعُ صيامَ عاشوراءَ، والعَشْرَ، وثلاثةَ أيامٍ من كُلِّ شهرٍ**»[1]؛ وفي إسنادِه اختلافٌ. ورُوي عن بعضِ أزواجِ النبيِّ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ «**كان لا يدَعُ صِيام تسعِ ذي الحجَّة**»[2]. وممن كان يصومُ العَشْرَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضي الله عنهما. وقد تقدَّم ذِكْرُ فَضْلِ صيامِهِ، وهو قولُ أكثر العلماء، أو كثيرٍ منهم.

وكان سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وهو الذي رَوَى هذا الحديث عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، إذا دَخَلَ العَشْرُ اجتَهَدَ اجتهادًا حتَّى ما يكاد يُقْدَرُ عليه. ورُوي عنه أنَّه قال: لا تطفئوا سُرُجَكم ليالِيَ العَشْرِ؛ تعجبُه العبادة.

وأمَّا استحبابُ الإكثارِ من الذكرِ فيها فقد دَلَّ عليه قولُ الله ﷻ: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ [الحج:٢٨]، فإنَّ الأيامَ المعلوماتِ هي أيامُ العشرِ عند جُمهورِ العلماءِ. وسيأتي ذكرُ ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وفي مسندِ الإمام أحمدَ عن ابنِ عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ، قال: «**ما من أيام أعظمُ عند الله ولا أحَبُّ إليه العملُ فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التَّهليل والتكبير والتحميد**»[3].

**فإن قيل**: قولُه ﷺ: «**ما من أيامٍ العَمَلُ الصَّالحُ فيها أحَبُّ إلى الله من هذه الأيام**»، هل يقتضي تفضيل كُلِّ عملٍ صالحٍ وَقَعَ في شيءٍ من أيام العَشْر على جميع ما يقعُ في غيرِها، وإن طالت مدتُه أم لا؟ قيل: الظاهر ـ والله أعلم ـ أنَّ المرادَ أنَّ العَمَلَ في هذه الأيام العَشْر أفضَلُ من عملٍ في عشرةِ أيامٍ سِواها، من أيِّ شَهْرٍ كان، فيكون تفضيلًا للعمل في كُلِّ يومٍ منه على العَمَلِ في كُلِّ يومٍ من أيَّامِ السَّنة غيره.

---

(١) أحمد (٢٥٩٢٠)، والنسائي (٢٤١٦).

(٢) أحمد (٢٥٩٢٩)؛ وأبو داود (٢٤٣٧).

(٣) أحمد (٥٤٢٣).

وإذا قيل: يلزمُ من تفضيل العَمَلِ في هذا العشرِ على كُلِّ عَشْر غيرِهِ أن يكونَ صيامُ هذا العَشْر أفضَلَ مِن صَوْمِ عَشْرِ رمضانَ، وقيامُ لياليه أفضَلَ من قيام لياليه. قيل: أمَّا صيامُ رمضانَ فأفضَلُ من صيامِه بلا شَكٍّ؛ فإنَّ صَوْمَ الفَرْضِ أفضَلُ من النفْلِ بلا ترددٍ، وحينئذٍ فيكونُ المرادُ أن ما فُعل في العشرِ من فرضٍ أفضل مِمَّا فُعِلَ في عشرٍ غيرِه من فرضٍ، فقد تُضَاعَفُ صلواتُه المكتوبةُ على صلواتِ عشرِ رمضانَ، وما فُعِلَ فيه من نَفْلٍ فهو أفضلُ مِمَّا فُعِلَ في غيره من نفْلٍ.

وأمَّا قيامُ لياليه وتفضيلُ قيامِه على قيام عشرِ رمضانَ، فيأتي الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

▪▣▪▣▪

## الفصلُ الثاني:

## في فضلِ عشر ذي الحجّة على غيره من أعشار الشهور

قد سبق حديث ابن عمر المرفوع: «**ما من أيامٍ أعظَمُ عندَ الله ولا أحبُّ إليه العَمَلُ فيهِنَّ من هذه الأيام العَشْر**»[1]. وفي صحيح ابنِ حِبانَ عن جابرٍ عن النبي ﷺ، قال: «**ما من أيامٍ أفضلُ عند الله من أيام عشر ذي الحجَّة**»[2]، وقال مسروق في قوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر:٢] هي أفضَلُ أيَّام السنة. وأيضًا فأيَّام هذا العَشْر يشتمل على يوم عَرَفَة. وقد رُوي أنَّه أفضَلُ أيَّام الدنيا، كما جاء في حديث عبد الله بن قُرْطٍ، عن النبيِّ ﷺ، أنه قال: «**أعظَمُ الأيامِ عندَ الله يومُ النَّحْرَ، ثم يوم القَرِّ**»[3]. خرَّجه الإمام أحمد وأبوداود وغيرُهما. وهذا كُلُّه يدُلُّ على أنَّ عَشْرَ ذي الحِجَّة أفضَلُ من غيرِه من الأيام من غير استثناءٍ؛ هذا في أيامه.

فأما لياليه فمن المتأخرين مَن زَعَمَ أنَّ ليالِيَ عَشْرِ رمضانَ أفضلُ من لياليه؛ لاشتمالها على ليلةِ القدر، وهذا بعيدُ جدًّا.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صحيح ابن حبان (٩/ ١٦٤).

(٣) أحمد (١٨٥٩٦)؛ وأبوداود (١٧٦٥).

وقد أقسَمَ الله تعالى بلياليه، فقال: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر:١-٢]، وهذا يدلُّ على فضيلةِ لياليه أيضًا، لكن لم يثبُتْ أنَّ ليالِيَه ولا شيئًا منها يعدِل ليلةَ القَدْر.

والتحقيقُ ما قاله بعضُ أعيان المتأخِّرين من العلماء، أن يقال: مجموعُ هذا العَشْر أفضلُ من مجموع عَشْر رمضان، وإن كان في عَشْر رمضان ليلة لا يفضل عليها غيرُها، والله أعلمُ.

**من فضائل عشر ذي الحجة:**

ولعشر ذي الحِجَّة فضائلُ أُخَرُ غير ما تقدَّم؛ **فمن فضائله: أن الله تعالى أقسَمَ به جملةً، وببعضِهِ خصوصًا**. قال تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر:١-٢].

أمَّا «الليالي العشر» فهي عشر ذي الحجة؛ هذا الصحيحُ الذي عليه جمهور المفسرين من السَّلف وغيرهم، وهو الصحيح عن ابن عبَّاسٍ.

**ومن فضائله أيضًا: أنَّه من جملة الأربعين التي واعدها الله ﷻ لموسى عليه السلام**، قال الله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف:١٤٢].

**ومن فضائله: أنَّه خاتمةُ الأشهرِ المعلوماتِ**، أشهرِ الحجّ التي قال الله فيها: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة:١٩٧]؛ وهي شوَّالٌ، وذو القَعْدَةِ، وعشرٌ من ذي الحِجَّةِ.

**ومن فضائله: أنَّه الأيَّام المعلومات التي شَرَعَ اللهُ ذكرَه فيها على ما رَزَقَ من بهيمةِ الأنعام**، قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج:٢٧-٢٨].

ويختصُّ عَشْرُ ذي الحِجَّة في حقِّ الحاج بأنَّه زَمَنُ سَوْقهم للهَدْي الذي به يكمُلُ فَضْلُ الحجِّ، ويأكلون من لحومِهِ آخِرَ العَشْرِ، وهو يومُ النَّحْر.

فيكون كثرةُ ذِكْرِ اللهِ في أيَّام العَشْر شكرًا على هذه النِّعمةِ المختصَّةِ ببهيمةِ الأنعامِ، التي بعضُها يتعلَّق بدِين الحاج، وبعضُها بدنياهم. وأفضَلُ الأعمالِ ما كثُر ذِكْرُ الله تعالى فيها؛ منها خصوصًا الحجُّ. وقد أمر الله تعالى بذكره كثيرًا في أيَّام الحجِّ؛ قال

تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:١٩٨-١٩٩]؛ فهذا الذِّكْرُ يكون في عَشْر ذي الحِجَّة. ثمَّ قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾ [البقرة:٢٠٠]، وهذا يقع في يوم النَّحْرِ، وهو خاتمةُ العَشْرِ أيضًا. ثم أمر بذكرِه بعد العَشْرِ في الأيام المعدوداتِ، وهي أيَّامُ التشريق.

وقد ذكر البخاري في (صحيحه) عن ابنِ عمرَ وأبي هريرةَ أنهما كانا يخرجانِ إلى السُّوقِ في العَشْر، فيُكبِّران ويكبِّرُ الناسُ بتكبيرِهما.

**وعن يزيد بن أبي زياد، قال:** رأيت سعيدَ بنَ جبيرٍ ومجاهدًا وعبدَ الرحمن بن أبي ليلى، أو اثنين من هؤلاء الثلاثة، ومن رأينا من فقهاء الناس، يقولون في أيام العشر: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد.

لما كان اللهُ سبحانه وتعالى قد وضع في نفوسِ المؤمنين حنينًا إلى مشاهدةِ بيتِه الحرام، وليس كُلُّ أحدٍ قادرًا على مشاهدتِه في كُلِّ عام، فَرَضَ على المستطيعِ الحجَّ مرَّةً واحدةً في عمرِه، وجَعَلَ مَوْسِمَ العَشْرِ مشتركًا بين السائرينَ والقاعدينَ، فمن عَجَز عن الحجِّ في عامٍ قَدَرَ في العَشْرِ على عَملٍ يعمَلُه في بيتِه، يكونُ أفضَلَ من الجهادِ الذي هو أفضَلُ من الحجِّ.

▪ ▣ ▪ ▣ ▪

## المجلس الثاني: في فضل يومِ عرفةَ مع عيدِ النَّحْر

في (الصحيحينِ) عن عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه أنَّ رجلًا من اليهود قال له: يا أميرَ المؤمنين! آيةٌ في كتابكم لو علينا مَعْشَرَ اليهودِ نزلَتْ، لاتَّخَذْنا ذلك اليومَ عيدًا. فقال: أيُّ آيةٍ؟ قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣]. فقال عمر: إنِّي لأعلمُ اليومَ الذي نزلَتْ فيه[١].

**العيدُ هو موسم الفرح والسرور**، وأفراحُ المؤمنين وسرورُهم في الدنيا إنما هو

(١) البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧).

بمولاهم، إذا فازوا بإكمالِ طاعتِه، وحازوا ثوابَ أعمالهم بوثوقِهم بوعدِه لهم عليها بفضلِه ومغفرتِه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]. قال بعضُ العارفين: ما فرِحَ أحدٌ بغيرِ الله إلَّا بغفلتِه عن اللهِ؛ فالغافلُ يفرَحُ بلهوه وهواه، والعاقلُ يفرَحُ بمولاه.

**أعياد أهل الإسلام:**

لَمَّا قدم النبي ﷺ المدينةَ كان لهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «**إنَّ الله قد أبدَلَكم يومين خيرًا منهما؛ يومَ الفطر، والأضحى**»[1]. فأبدل الله هذه الأمة بيومي اللعبِ واللهوِ يومي الذِّكْرِ والشُّكرِ والمغفرةِ والعفوِ. ففي الدنيا للمؤمنين ثلاثة أعيادٍ: عيدٌ يتكرَّر كُلَّ أسبوعٍ، وعيدان يأتيان في كُلِّ عامٍ مَرَّةً مرَّةً، من غير تكررٍ في السنةِ. فأمَّا العيدُ المتكرِّرُ، فهو يومُ الجمعةِ، وهو عيدُ الأسبوعِ، وهو مترتبٌ على إكمالِ الصَّلواتِ المكتوباتِ؛ وفي شهودِ الجمعة شبَهٌ من الحجِّ، ورُوي أنَّها حجُّ المساكين.

وأمَّا العيدانِ اللذانِ لا يتكررانِ في كُلِّ عامٍ، وإنما يأتي كُلُّ واحدٍ منهما في العام مرَّةً واحدةً:

**فأحدُهما**: عيدُ الفطرِ من صومِ رمضانَ، وهو مرتبٌ على إكمالِ صيام رمضانَ، وهو الرُّكن الثالثُ من أركانِ الإسلام ومَبَانيه.

**والعيدُ الثاني**: عيدُ النَّحْر، وهو أكبَرُ العيدين وأفضلُهما، وهو مترتبٌ على إكمالِ الحَجِّ، وهو الركنُ الرابع من أركانِ الإسلام ومَبَانيه، فإذا أكمَلَ المسلمون حجَّهُم غُفِر لهم. وإنما يكمُلُ الحجُّ بيوم عرفةَ والوقوفِ فيه بعرفةَ؛ فإنَّه ركنُ الحجَّ الأعظمِ، كما قال ﷺ: «**الحجُّ عرفة**»[2]. ويوم عرفةَ هو يومُ العِتْقِ من النارِ، فيعتِقُ الله فيه من النار مَن وَقَفَ بعرَفَةَ ومَن لم يقفْ بها من أهلِ الأمصار من المسلمين، فلذلك صار اليومُ الذي يليه عيدًا لجميع المسلمين في جميعِ أمصارِهم؛ مَن شهِدَ المَوْسمَ منهم ومَن لم يشهدْه؛ لاشتراكِهم في العِتق والمغفرة يومَ عَرَفَةَ.

---

(١) أحمد (١١٥٩٥)؛ وأبو داود (١١٣٤)، والنسائي (١٥٥٦).

(٢) الترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥)، وأحمد (١٨٢٩٧).

قال الحسنُ: كُلُّ يومٍ لا يُعصَى الله فيه فهو عيدٌ، كُلُّ يومٍ يقطعُه المؤمنُ في طاعةِ مولاه وذكرِه وشكرِه فهو له عيدٌ.

ولَمَّا كان عيدُ النَّحْرِ أكبرَ العيدين وأفضلَهما، ويجتمعُ فيه شرفُ المكانِ والزمانِ لأهلِ الموسمِ، كانت لهم فيه معه أعيادٌ قبلَه وبعدَه؛ فقبلَه يومُ عرفة، وبعدَه أيَّامُ التشريق. وكُلُّ هذه الأيَّام أعيادٌ لأهل الموسم، كما في حديث عقبةَ بن عامر عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**يَوْمُ عرفَة، ويومُ النَّحرِ، وأيامُ التشريقِ عيدُنا أهلَ الإسلام، وهي أيامُ أَكْلٍ وشُرْب**». خرَّجه أهلُ السنن وصحَّحه الترمذيُّ[1]. ولهذا لا يُشرَعُ لأهل الموسم صومُ يوم عرَفةَ؛ لأنَّه أوَّلُ أعيادِهم وأكبَرُ مجامعِهم، وقد أفطره النبيُّ ﷺ بعرفةَ والناسُ ينظرونَ إليه. وروي عنه أنَّه نهى عن صومِ يومِ عرفةَ بعرفةَ. وَرُوي عن سفيانَ بنِ عُيينة أنه سُئل عن النهيِ عن صيامِ يومِ عرفةَ بعرفةَ، فقال: لأنهم زُوَّارُ الله وأضيافُه، ولا ينبغي للكريمِ أن يجوِّعَ أضيافَه. وهذا المعنى يوجَدُ في العيدين وأيام التشريقِ أيضًا؛ فإنَّ الناسَ كلَّهم فيها في ضيافةِ اللهِ ﷻ، لا سيما عيدَ النَّحْرَ؛ فإنَّ الناسَ يأكلونَ من لحومِ نُسُكِهم؛ أهلَ الموقفِ وغيرَهم.

وأيامُ التشريقِ الثلاثةُ هي أيامُ عيدٍ أيضًا، ولهذا بعث النبيُّ ﷺ مَن ينادي بمكَّةَ أنها أيام أَكْلٍ وشُرْبٍ وذكرِ اللهِ ﷻ، فلا يصومَنَّ أحَدٌ. وقد يجتمعُ في يومٍ واحدٍ عيدانِ، كما إذا اجتمع يومُ الجمعة مع يوم عرفةَ أو يوم النَّحْرِ، فيزدادُ ذلك اليومُ حُرْمَةً وفضلًا؛ لاجتماع عيدين فيه. وقد كان ذلك؛ اجتمع للنبيِّ ﷺ في حجتِه يوم عرفةَ، فكان يومَ جمعةٍ، وفيه نزلت هذه الآية ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣].

**فيوم عرفة له فضائل متعددة:**

**منها: أنه يومُ إكمال الدِّين وإتمام النِّعمة.**

ومنها: **أنَّه عيدٌ لأهل الإسلام**، كما قاله عُمَرُ بنُ الخطاب وابنُ عباس رضي الله عنهم؛ فإنَّ ابن عباس قال: نَزَلَتْ في يوم عيدين؛ يوم جمعة ويوم عرفة. ورُوِي عن عمر أنه قال: وكلاهما بحمد الله لنا عيد.

(١) أحمد (١٦٩٢٨)، وأبو داود (٢٤١٩)؛ والترمذي (٧٧٣)؛ والنسائي (٣٠٠٤).

ومنها: **أنه روي أنه أفضل الأيام**؛ خرَّجه ابنُ حبَّان في صحيحه، من حديث جابر عن النبي ﷺ، قال: «**أفضَلُ الأيام يومُ عَرفَةَ**»[١]. وذهب إلى ذلك طائفة من العلماء. ومنهم من قال: يومُ النَّحْرِ أفضَلُ الأيام.

ومنها: **أنَّه يومُ الحجِّ الأكبر عند جماعةٍ من السلف**، منهم عُمَرُ وغيرُه. وخالفهم آخرون، وقالوا: يومُ الحجِّ الأكبر يومُ النَّحر.

ومنها: **أنَّ صيامَه كفَّارَةُ سنتين.**

ومنها: **أنه يومُ مغفرةِ الذنوب والتجاوز عنها، والعِتقِ من النار**، والمباهاةِ بأهلِ الموقف؛ كما في (صحيح مسلم) عن عائشة ﵂ عن النبي ﷺ، قال: «**ما مِنْ يَوم أكثرَ مِن أن يُعْتِقَ اللهُ فيه عبيدًا من النَّارِ من يوم عَرفَةَ، وإنَّه لَيَدْنُو، ثم يُباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟**»[٢]. وفي (المسند) عن عبد الله بن عمروٍ، عن النبي ﷺ، قال: «**إن الله تعالى يُباهي ملائكته عشيَّةَ عَرفَةَ بأهلِ عَرفَةَ، فيقول: انظروا إلى عبادي، أتوني شُعْثًا غُبْرًا**»[٣].

### أسباب العتق والمغفرة في يوم عرفة:

فمن طمع في العِتْق من النار ومغفرة ذنوبه في يوم عرفة، فلْيُحَافِظْ على الأسباب التي يُرجى بها العِتْقُ والمغفرة.

ومنها: **صيامُ ذلك اليوم**؛ ففي صحيح مسلم عن أبي قتادة، عن النبي ﷺ، قال: «**صيامُ يومِ عَرفَةَ؛ أحتَسِبُ على الله أن يكفِّرَ السَّنَةَ التي قبلَه والتي بعده**»[٤].

ومنها: **حفظُ جوارحه عن المحرّماتِ في ذلك اليوم.**

ومنها: **الإكثارُ من شَهادة التوحيد بإخلاصٍ وصدقٍ**؛ فإنَّها أصلُ دِين الإسلام الذي أكمله الله تعالى في ذلك اليوم، وأساسُهُ. وفي (المسند) عن عبدِ الله بنِ عمرٍو، قال: كان أكثرُ دعاءِ النبيِّ ﷺ يوم عرفة: «**لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ، وله**

---

(١) صحيح ابن حبان (٦/ ٦٢).
(٢) مسلم (١٣٤٨).
(٣) أحمد (٧٠٤٩).
(٤) مسلم (١١٦٢).

الحمدُ، بيدِه الخيرُ، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير»[١]. وخرَّجه الترمذيُّ، ولفظُه «خيرُ الدُّعاءِ دُعاءُ يوم عَرَفَةَ، وخيرُ ما قلْتُ أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، له الملك وله الحمدُ، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير»[٢].

فتحقيقُ كلمة التوحيد يوجبُ العِتْقَ من النار، فإنَّها تعدل عتقَ الرِّقاب، وعتقُ الرقاب يوجبُ العِتق من النار.

كما ثبت في الصحيح، أنَّ «من قالها مائة مرَّة كانت له عِدْلَ عَشْرِ رقابٍ»[٣]. وثبتَ أيضًا أنَّ «من قالها عَشْرَ مرات كان كمن أعتق أربعةً من ولد إسماعيلَ»[٤].

ومنها: كثرةُ الدُّعاءِ بالمغفرة والعِتق؛ فإنَّه يُرجى إجابةُ الدُّعاءِ فيه.

وليحذَرْ من الذُّنوب التي تمنع المغفرة فيه والعتق:

فمنها: الاختيالُ، والمختالُ: هو المتعاظِم في نفسِه المتكبِّر، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣]. وقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله لا ينظرُ إلى مَن جَرَّ ثوبه خُيَلَاء»[٥].

ومنها: الإصرار على الكبائر، يا مَن يطمَعُ في العتق من النار ثم يمنعُ نفسَه الرحمةَ بالإصرار على كبائر الإثم والأوزار! تالله ما نصحْتَ نفسَكَ، ولا وَقَفَ في طريقك غيرُك، توبقُ نفسَك بالمعاصي، فإذا حُرمتَ المغفرة قلْتَ أَنَّى هذا؟ قُلْ هو من عند أنفسكم.

فنفسَكَ لُمْ ولا تَلُمِ المطَايا ... ومُتْ كَمَدًا فليسَ لَكَ اعتِذارُ

كانت أحوالُ الصادقين في الموقف بعرفةَ تتنوعُ:

فمنهم من كان يغلِبُ عليه الخوفُ أو الحياءُ. وقف مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير، وبكر المزني، بعرَفَة، فقال أحدُهما: اللهم، لا تردَّ أهلَ الموقف من أجلي. وقال

---

(١) أحمد (٦٩٢٢).

(٢) الترمذي (٣٥٨٥).

(٣) البخاري (٣٢٩٣)، ومسلم (٣٦٩١).

(٤) مسلم (٢٦٩٣).

(٥) البخاري (٥٧٨٣)، ومسلم (٢٠٨٥).

الآخر: ما أشرَفَهُ من مَوْقِفٍ وأرجَاهُ لأهله، لولا أنِّي فيهم!

**ومن العارفين من كان في الموقف يتعلَّق بأذيال الرجاء**؛ قال ابنُ المبارك: جئت إلى سفيان الثوري عشيَّة عرَفَةَ، وهو جاثٍ على ركبتيه، وعيناه تهمُلانِ، فالتفت إليَّ، فقلت له: من أسوأُ هذا الجمعِ حالًا؟ قال: الذي يظنُّ أنَّ اللهَ لا يغفرُ لهم.

▪▣▪▣▪

## المجلس الثالث: في أيام التشريق

خرَّج مسلم في (صحيحِه) من حديثِ نُبَيْشَةَ الهُذَلي أنَّ النبيَّ ﷺ، قال: «**أَيَّامُ مِنًى أَيَّامُ أكلٍ وشُرْبٍ، وذِكْرِ الله ﷻ**»[1]. وخرَّجه أهلُ السُّنن والمسانيدِ من طرقٍ متعددةٍ عن النبيِّ ﷺ؛ وفي بعضها أنَّ النبيَّ ﷺ بعث في أيَّام منًى مناديًا ينادِي: «**لا تصوموا هذه الأيام؛ فإنَّها أيامُ أَكْلٍ وشَرْبٍ وذِكْرِ اللهِ ﷻ**»[2].

**أيَّام مِنًى هي الأيَّامُ المعدوداتُ التي قال اللهُ ﷻ فيها**: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٠٣]. وهي ثلاثةُ أيام بعدَ يوم النَّحر، وهي أيَّام التشريقِ، هذا قولُ ابن عمر وأكثرِ العلماءِ، وأفضلُها أولُها، وهو يوم القَرِّ؛ لأنَّ أهلَ مِنًى يستقرّون فيه، ولا يجوز فيه النَّفر. وفي حديث عبدِ اللهِ بن قُرْطٍ عن النبي ﷺ: «**أعظمُ الأيَّام عند الله يومُ النَّحْر، ثم يوم القَر**»[3]، ثم يوم النَّفْر الأوَّل، وهو أوسَطُها. ثم يوم النَّفْر الثاني، وهو آخرها. قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٢٠٣]. قال كثيرٌ من السَّلف: يريد أن المتعجِّل والمتأخِّر يُغفَر له ويَذهبُ عنه الإثم الذي كان عليه قبلَ حجِّه، إذا حجَّ فلم يرفُثْ ولم يَفْسُقْ، ورَجَعَ من ذنوبِه كيوم ولدتْه أمُّه. ولهذا قال تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، فتكون التقوى شَرْطًا لذهابِ الإثم على هذا التقدير، وتصيرُ الآيةُ دالَّةً على ما صرَّح به قولُ النبي ﷺ: «**مَن حَجَّ فلم يَرْفُثْ ولم يَفْسُقْ رَجَعَ مِن ذُنوبِه كيوم وَلَدَتْهُ أمُّه**»[4].

(١) مسلم (١١٤١).
(٢) أحمد (١٠٥٣٤).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.

**أنواع الذكر المتأكدة في أيام التشريق:**

وقد أمر الله تعالى **بِذِكْرِهِ في هذه الأيّام المعدُودات**، كما قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّما أيام أكْلٍ وشُرْبٍ وذِكْرِ الله ﷻ**». وذِكْرُ الله ﷻ المأمورُ به في أيّام التشريق أنواعٌ متعددة:

* منها: **ذِكْرُ الله ﷻ عقِبَ الصَّلواتِ المكتوباتِ** بالتكبير في أَدْبارِها، وهو مشروعٌ إلى آخر أيّام التشريقِ عند جمهورِ العلماء.

* ومنها: **ذِكْرُهُ بالتَّسميةِ والتكبيرِ عند ذَبح النُّسُكِ**؛ فإنَّ وقتَ ذبْحِ الهدايا والأضاحي يمتدُّ إلى آخر أيّام التشريق عند جماعةٍ من العلماء.

* ومنها: **ذِكْرُ الله ﷻ على الأكْل والشرب**؛ فإنَّ المشروع في الأكل والشرب أن يُسمّيَ اللهَ في أولِه، ويحمَدَه في آخرِه. وفي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ: «**إن اللهَ ﷻ يَرْضَى عن العَبْدِ أن يأكُلَ الأكْلَةَ فيحمَدَهُ عليها، ويشرَبَ الشَّرْبَةَ فيحمدَهَ عليها**»[1].

* ومنها: **ذِكْرُه بالتكبير عند رَمْي الجمار في أيّام التشريق**، وهذا يختصُّ به أهلُ الموسم.

* ومنها: **ذِكْرُ الله تعالى المطلقُ**؛ فإنّه يُستحبُّ الإكثارُ منه في أيّام التشريقِ، وقد كان عُمَرُ يُكبِّر بمنًى في قبّتِهِ، فيسمعُه النّاسُ فيكبِّرون فترتجّ منًى تكبيرًا. وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٠٠-٢٠١]. وقد استحبَّ كثيرٌ من السَّلف كثرةَ الدُّعاءِ بهذا في أيام التشريقِ.

**وفي الأمرِ بالذكرِ عند انقضاءِ النُّسُك معنًى**، وهو أنَّ سائرَ العباداتِ تنقضي ويُفرغُ منها، وذِكْرُ الله باقٍ لا ينقضِي ولا يُفرَغُ منه، بل هو مستمرٌّ للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

وقد أمر الله تعالى بذكرِه عند انقضاءِ الصلاةِ، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣]، وقال تعالى في صلاة

(١) مسلم (٢٧٣٤).

الجمعة: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الجمعة:١٠].

وفي قول النبي ﷺ: «إنَّما أيام أكْلٍ وشُرْبٍ وذِكْرِ اللهِ ﷻ» إشارةٌ إلى أنَّ الأكلَ في أيَّام الأعيادِ والشُّربَ إنَّما يُستعانُ به على ذِكْرِ الله تعالى وطاعتِه، وذلك من تمام شُكْرِ النِّعمةِ أن يستعانَ بها على الطاعات. وقد أمر الله تعالى في كتابه بالأكلِ من الطيِّباتِ والشكرِ له، فمن استعان بنعم اللهِ على معاصيه فقد كَفَر نِعْمَةَ الله وبدَّلها كُفْرًا، وهو جديرٌ أن يُسْلَبَها، كما قيل:

إذا كُنْـــتَ في نِعْمَـــةٍ فارْعَهـــا ... فـــإنَّ المعـــاصي تُزيـــلُ الـــنِّعم
وداوِمْ عليهـــا بِـــشُكر الإلـــه ... فـــشُكْرُ الإلـــه يُزيـــلُ الـــنِّقَم

**علة النهي عن صيام أيام التشريق:**

وإنَّما نُهِيَ عن صيامِ أيامِ التشريقِ؛ لأنَّها أعيادٌ للمسلمين مع يوم النَّحرِ، فلا تُصامُ بمنًى ولا غيرِها عندَ جمهور العلماء، ونُهوا عن صيامها؛ لأنَّ الكريم لا يليقُ به أن يُجوِّعَ أضيافَهُ، فكأنَّه قيل للمؤمنين في هذه الأيام: قد فَرَغَ عملُكم الذي عَمِلْتُموه، فما بقي لكم إلَّا الرَّاحةُ؛ فهذه الراحةُ بذلك التعبِ، كما أُريحَ الصائمون لله في شهرِ رمضانَ بأمرِهم بإفطارِ يوم عيدِ الفطرِ. ويؤخذُ من هذا إشارةٌ إلى حالِ المؤمنِ في الدنيا؛ فإنَّ الدُّنيا كلَّها أيامُ سَفَرٍ كأيَّام الحجِّ، وهي زمانُ إحرام المؤمن عمَّا حرَّم اللهُ عليه من الشهواتِ، فمن صَبَرَ في مدَّةِ سفرِه على إحرامِه وكفَّ عن الهوى، فإذا انتهى سفرُ عمرِه ووَصَلَ إلى مِنَى المُنى، فقد قضَى تَفَثَه ووفَّى نَذْرَه، فصارت أيَّامُه كلُّها كأيَّام مِنًى، أيَّامُ أكْلٍ وشُربٍ وَذِكْرِ اللهِ ﷻ، وصار في ضيافةِ الله ﷻ في جوارِه أبدَ الأبدِ، ولهذا يقال لأهل الجنة: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٩]، ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤]. وقد قيل: إنَّها نزلت في الصُّوَّامِ في الدنيا.

▪▣▪▣▪

## المجلس الرابع: في ذِكر ختام العام

خرَّج الإمامُ أحمدُ من حديثِ جابر، عن النبيِّ ﷺ، قال: «لا تتمنَّوا الموتَ؛ فإنَّ هَوْلَ المطّلعِ شديدٌ، وإنَّ من السَّعادةِ أن يَطُولَ عُمُرُ العَبْدِ ويرزُقَه اللهُ الإنابة»(١).

أحكام تمني الموت:

تمني الموت يقع على وجوهٍ:

منها: تمنِّيه لضُرٍّ دنيوي ينزلُ بالعبدِ، فيُنهَى حينئذٍ عن تمني الموتِ.

وفي (الصحيحين): عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «لا يَتمنَّيَنَّ أحدُكُم الموتَ لِضُرٍّ نَزَلَ به، فإنْ كان لا بُدَّ فاعلًا، فَلْيَقُلْ: اللهُمَّ، أَحْيِني ما كَانتِ الحياةُ خَيْرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاةُ خَيْرًا لي»(٢). ووجْهُ كراهتِه في هذه الحالِ أنَّ المتمنِّيَ للموتِ لِضُرٍّ نزل به، إنَّما يتمنَّاه تعجيلًا للاستراحةِ من ضُرِّه، وهو لا يدري إلى ما يصيرُ بعدَ الموتِ، فلعلَّه يصيرُ إلى ضُرٍّ أعظَمَ من ضُرِّه، فيكون كالمستجيرِ من الرَّمضاءِ بالنارِ.

ومنها: تمنيه خوفَ الفتنة في الدِّين، فيجوزُ حينئذٍ. وقد تمنَّاه ودعا به خشيةَ فتنةِ الدِّين خَلْقٌ من الصحابة وأئمةِ الإسلام. وفي حديث المنام: «وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً فاقْبِضْني إليكَ غيرَ مَفْتُونٍ»(٣).

ومنها: تمني الموتِ عند حضورِ أسبابِ الشهادة اغتنامًا لحصولها، فيجوزُ ذلك أيضًا. وسؤالُ الصحابةِ الشهادةَ وتعرُّضُهم لها عندَ حضورِ الجهادِ كثيرٌ مشهورٌ.

ومنها: تمني الموتِ لمن وثِقَ بعملِه شوقًا إلى لقاءِ اللهِ ﷻ، فهذا يجوزُ أيضًا، وقد فعلَه كثيرٌ من السَّلفِ. قال أبو الدَّرداء: أُحِبُّ الموتَ اشتياقًا إلى رَبِّي.

وقد دَلَّ على جوازِ ذلك قولُ اللهِ ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٩٤].

وفي حديث عمَّارِ بنِ ياسرٍ، عن النبيِّ ﷺ: «أسألُكَ لَذَّةَ النَّظرِ إلى وَجْهِكَ وَشَوقًا

---

(١) أحمد (١٤١٥٤).

(٢) البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠).

(٣) الترمذي (٣٢٣٣).

إلى لقائِكَ، في غير ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فِتْنَةٍ مُضِلَّة»[1].

ومنها: تمني الموت على غير الوجوه المتقدِّمة، فقد اختلف العلماء في كراهتِه واستحبابِه، وقد رخَّص فيه جماعةٌ من السَّلف، وكرهه آخرون.

واستدلَّ من كرِهَه بعمُومِ النَّهي عنه، كما في حديث جابرٍ الذي ذكرناه، وفي معناه أحاديثُ أُخَرُ يأتي بعضُها إن شاءَ اللهُ تعالى. وقد عُلِّلَ النهيُ عن تمني الموت في حديث جابر بعلتين:

إحداهما: أنَّ هَوْلَ المُطَّلَعِ شديدٌ، وهولُ المُطَّلَعِ هو ما يُكشَفُ للميت عندَ حضورِ الموتِ من الأهوالِ التي لا عهدَ له بشيءٍ منها في الدنيا؛ من رؤيةِ الملائكةِ، ورؤيةِ أعمالِه من خيرٍ أو شرٍّ، وما يُبَشَّرُ به عند ذلك من الجنَّةِ والنارِ، هذا مع ما يلقاه من شدَّةِ الموتِ وكُرَبِهِ وغُصَصِه.

وفي الحديثِ الصحيحِ: «إذا حُمِلَت الجنازةُ وكانت صالحةً، قالت: قدِّموني قدِّموني، وإن كانت غيرَ ذلك، قالت: يا ويلها! أين تذهبون بها؟ يَسمَعُ صوتَها كُلُّ شيءٍ إلَّا الإنسانُ، ولو سَمِعَها الإنسانُ لَصعِقَ»[2].

والعلة الثانية: أنَّ المؤمن لا يزيده عمرُه إلَّا خيرًا، فمن سعادته أن يطولَ عمرُه، ويرزقَه اللهُ الإنابةَ إليه، والتوبةَ من ذنوبِه السالفةِ، والاجتهادَ في العملِ الصالحِ؛ فإذا تمنَّى الموتَ، فقد تمنَّى انقطاعَ عملِه الصالحِ.

وقد رُوي هذا المعنى عن النبيِّ ﷺ من وجوهٍ متعددةٍ، ففي (صحيح البخاري) عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: «لا يتمنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ؛ إمَّا مُحْسِنًا، فلعلَّه يزدَادُ خيرًا، وإمَّا مُسيئًا فلعلَّه أن يَسْتَعتِبَ»[3]. وفي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ، ولا يدْعُ به مِن قَبْلِ أن يأتيَهُ، إنَّه إذا ماتَ أحدُكم انقطع عَمَلُه، وإنَّه لا يزيدُ المؤمنَ عُمُرُهُ إلَّا خيرًا»[4].

---

(1) أحمد (١٧٨٦١)، والنسائي (١٣٠٥).
(2) البخاري (١٣١٦).
(3) البخاري (٧٢٣٥).
(4) مسلم (٢٦٨٢).

فالمؤمنُ القائمُ بشروط الإيمان لا يزداد بطولِ عمرِه إلَّا خيرًا، ومَن كان كذلك فالحياةُ خيرٌ له من الموتِ. وفي دعاءِ النبيِّ ﷺ: «**اللهم اجْعَلِ الحياةَ زِيادةً لي في كُلِّ خيرٍ، والموتَ راحةً لي من كُلِّ شَرٍّ**»[(١)]. خرَّجه مسلمٌ. وفي «الترمذيِّ» عنه ﷺ أنَّه سُئل: أيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قال: «**مَن طال عُمُره وحسُنَ عملُه**». قيل: فأيُّ النَّاس شَرٌّ؟ قال: «**مَن طال عُمُره وساء عَمَلُهُ**»[(٢)].

ما مضى من العُمُرِ وإن طالتْ أوقاتُه فقد ذهبتْ لذَّاتُه وبقيتْ تبعاتُه، وكأنَّه لم يكن إذا جاء الموتُ وميقاتُه؛ قال الله ﷻ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧]. تلا بعضُ السَّلف هذه الآيةَ وبكى، وقال: إذا جاء الموتُ لم يُغنِ عن المرءِ ما كان فيه من اللذَّةِ والنعيمِ.

في (صحيح البخاري) عن النبيِّ ﷺ، قال: «**أَعْذَرَ اللهُ إلى من بلَّغه ستينَ من عُمُرِه**»[(٣)]. وفي الترمذي: «**أعمارُ أُمَّتِي ما بينَ السِّتِّين إلى السَّبعين، وأقلُّهم مَن يَجُوزُ ذلك**»[(٤)].

وكان كثيرٌ من السَّلفِ إذا بلغ الأربعينَ تفرَّغ للعبادةِ. وقال عمرُ بنُ عبد العزيزِ: تمَّت حُجَّةُ الله على ابن الأربعين، فمات لها. ورأى في منامه قائلًا يقول له:

**إذا ما أتتْك الأربعون فعندها ... فاخْشَ الإلهَ وكُنْ للموتِ حذَّارا**

**قال الفضيلُ لرجلٍ**: كم أتى عليك؟ قال: ستون سنةً. قال له: أنت منذ ستينَ سنة تسيرُ إلى رَبِّك يوشِكُ أن تصلَ.

وأنشد بعضهم:

**إنَّا لنفرَحُ بالأيَّامِ نَقْطَعُهَا ... وكُلُّ يوم مَضَى يُدْنِي مِنَ الأجَلِ**

**فاعْمَلْ لنفسِكَ قبلَ الموتِ مجتهدًا ... فإنَّما الرِّبْحُ والخسرانُ في العَمَلِ**

▪▣▪▣▪

(١) مسلم (٢٧٢٠).
(٢) أحمد (١٩٩٠٢)، والترمذي (٢٣٣٠).
(٣) البخاري (٦٤١٩).
(٤) الترمذي (٣٥٥٠)، وابن ماجه (٤٢٣٦).

ويلتحق بوظائف شهور السنة الهلالية وظائف فصول السنة الشمسية، وفيه ثلاثةُ مجالس:

## المجلسُ الأول: في ذكرِ فصلِ الربيع

خرَّجا في (الصحيحين) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ، قال: «إنَّ أَخْوَفَ ما أخافُ عليكم ما يُخرِجُ اللهُ لكم من بَرَكَاتِ الأرضِ». قيل: ما بركاتُ الأرضِ؟ قال: «زَهرةُ الدنيا». فقال له رجل: هل يأتي الخيرُ بالشَّرِّ؟ فصَمَتَ رسولُ الله ﷺ حتى ظننتُ أنه سَيُنزَلُ عليه. ثم جَعَلَ يمسَحُ عن جبينه. قال: «أين السائلُ؟» قال: أنا. قال: «لا يأتي الخيرُ إلَّا بالخير؛ إنَّ هذا المالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، وإنَّ كُلَّ ما أنبتَ الرَّبيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا أو يُلِمُّ، إلَّا آكِلَةَ الخضِرِ، أكلَتْ، حتى إذا امْتَدَّتْ خاصِرَتَاها استقبلتِ الشمسَ، فاجترَّتْ وثَلَطت وبالَت، ثم عادتْ فأكلَتْ؛ وإنَّ هذا المال خَضِرةٌ حُلوةٌ، مَنْ أَخَذَهُ بحقِّه، ووضَعَهُ في حقِّه، فَنِعْمَ المعونةُ هو، وإن أخذَهُ بغير حقِّه كان كالذي يأكُلُ ولا يشبعُ»[1].

### تخوف النبي ﷺ على أمته عن فتنة الدنيا:

كان النبي ﷺ يتخوَّف على أمَّته من فتح الدنيا عليهم، فيخاف عليهم الافتتانَ بها. ففي (الصحيحين) عن عمرِو بن عوفٍ أنَّ النبي ﷺ قال للأنصارِ لما جاءه مالٌ من البحرين: «أَبْشِرُوا وأمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ، فوالله ما الْفَقْرَ أَخْشَى عليكم، ولكن أخشَى عليكم أن تُبْسَطَ الدُّنيا عليكم كما بُسِطَتْ علىَ من كان قبلَكم؛ فتَنَافسُوها كما تَنَافَسُوها؛ فتهلككُم كما أهلكتْهم»[2].

وفي (صحيح مسلم) عن عبد الله بن عمرٍو أنَّ النبي ﷺ، قال: «إذا فُتِحَتْ عليكم خَزائنُ فارسَ والرومِ، أيُّ قومٍ أنتم؟ فقال عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ: نقولُ كما أمرنا اللهُ ﷻ. فقال رسولُ الله ﷺ: أو غيرَ ذلك، تتنافَسُون، ثم تَتَحَاسَدُون، ثم تَتَدَابَرُون، ثم تَتَبَاغَضُون»[3].

(١) البخاري (٦٤٢٧)؛ ومسلم (١٠٥٢).
(٢) البخاري (٦٤٢٥)؛ ومسلم (٢٩٦١).
(٣) مسلم (٢٩٦٢).

**المال بين المدح والذم:**

وفي (الترمذي) أنَّه ﷺ قال: «**لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المالُ**»(١).

وقد سمَّى الله تعالى المالَ خيرًا في مواضِعَ كثيرةٍ من القرآنِ، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]، وقال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة:١٨٠]، وقال تعالى عن سليمانَ عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ [ص:٣٨] فلمَّا سأله السائل: هل يأتي الخيرُ بالشر؟ صَمَتَ النبيُّ ﷺ حتَّى ظنُّوا أنَّه أُوحِي إليه، والظاهر أنَّ الأمر كان كذلك، فلمَّا نزل عليه جوابُ ما سُئل عنه، قال: «**أين السائل؟**» قال: ها أنا، فقال النبي ﷺ: «**إنَّ الخير لا يأتي إلَّا بالخير**». وفي رواية لمسلم، فقال: «**أوَ خيرٌ هو**»؟ وفي ذلك دليل على أنَّ المال ليس بخيرٍ على الإطلاق، بل منه خيرٌ ومنه شرٌّ.

ثم ضَرَبَ مثلَ المال ومثلَ مَن يأخُذُه بحقِّه ويصرِفُه في حقه، ومَن يأخذُه من غير حقِّه ويصرفه في غير حقِّه؛ فالمالُ في حقِّ الأوَّل خيرٌ، وفي حقِّ الثاني شرٌّ، فتبيَّن بهذا أنَّ المال ليس بخير مُطْلَقٍ، بل هو خيرٌ مقيَّدٌ، فإنْ استعان به المؤمنُ على ما ينفعُه في آخرته كان خيرًا له، وإلَّا كان شرًّا له.

فأمَّا المالُ، فقال: إنه خَضِرَة حُلْوةٌ، وقد وُصِفَ المالُ والدنيا بهذا الوصف في أحاديثَ كثيرةٍ؛ ففي (الصحيحين) عن حكيم بن حِزام، أنَّه سأل النَّبيَّ ﷺ فأعطاه، ثم سأله فأعطاه، ثم سأله، فقال له النبي ﷺ: «**يا حكيمُ! إنَّ هذا المالَ خضِرَةٌ حلوةٌ، فَمَنْ أَخَذَه بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ له فيه، ومَن أخذَه بإشرافِ نَفْسٍ لم يُبَارَكْ له فيه؛ وكان كالذي يأكلُ ولا يشبَعُ**»(٢).

وفي (صحيح مسلم) عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**إنَّ الدُّنيا خَضِرَةٌ حُلْوةٌ، وإنَّ الله مُسْتَخْلِفُكم فيها، فناظِرٌ كيفَ تعملون؛ فاتَّقُوا الدنيا، واتقوا النِّساء؛ فإنَّ أوَّلَ فتنةِ بني إسرائيلَ كانت في النساءِ**»(٣). واستخلافُهم فيها هو ما أورثهم اللهُ منها مما كان في أيدي الأمم من قبلهم كفارِسَ والرومِ، وحذَّرهم من فتنةِ

---

(١) الترمذي (٢٣٣٦).

(٢) البخاري (١٤٧٢)؛ ومسلم (١٠٣٥).

(٣) مسلم (٢٧٤٢).

الدنيا، وفتنةِ النِّساءِ خُصوصًا؛ فإنَّ النِّساءَ أوَّلُ ما ذكره الله تعالى من شهواتِ الدنيا ومتاعِها في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [آل عمران:١٤].

**أقسام أصحاب الأموال:**

وقوله ﷺ: «**مَن أخذَهُ بحقِّه ووضَعَه في حقِّه، فنِعْمَ المعونةُ هو؛ ومَن أخذَهُ بغير حقِّه كان كالذي يأكلُ ولا يشبع**» تقسيمٌ لمن يأخذُ المالَ إلى قسمين:

**فأحدهما**: يُشبه حالَ آكلةِ الخَضِر، وهو مَن أخذَه بحقِّه ووضَعَه في حقِّه؛ وذكر أنه نِعْمَ المعونةُ هو؛ فإنَّه نعم العونُ ـ لمن هذه صفتُه ـ على الآخرةِ، كما في حديث عمرِو بنِ العاصِ عن النبيِّ ﷺ، قال: «**نعم المالُ الصَّالحُ للرجُلِ الصَّالحِ**»(١)، وهو الذي يأخذُه بحقِّه ويضعُه في حَقِّه، فهذا يوصِلُه مالُه إلى اللهِ ﷻ، فمن أَخَذَ من المالِ بحقِّه ما يقوِّيه على طاعةِ اللهِ، ويستعينُ به عليها، كان أخذُه طاعةً، ونفقتُه طاعةً. وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ، قال: «**إنَّكَ لن تُنْفِقَ نفقةً تبتَغي بها وَجْهَ الله إلا أُجِرْتَ عليها، حتى اللقمةُ ترفَعُها إلى في امرأتِك**»(٢).

**والقسم الثاني**: يشبه حالُه حالَ البهائمِ التي ترعى مما ينبتُ الربيعُ، فيقتلُها حَبَطًا أو يُلِمُّ، وهو من يأخذ المالَ بغيرِ حقِّه، فيأخذُه من الوجوهِ المحرمةِ، فلا يقنعُ منه بقليلٍ ولا بكثيرٍ، ولا تشبعُ نفسُه منه، ولهذا قال: «**وكان كالَّذي يأكُلُ ولا يشبَعُ**». وكان النبيُّ ﷺ «**يتعوَّذ من نفسٍ لا تشبع**»(٣).

وفي حديث زيدِ بن ثابتٍ، عن النبي ﷺ، قال: «**من كانَت الدُّنيا همَّه، فرَّقَ الله عليه أمرَه، وجَعَلَ فَقْرَه بين عينيه، ولم يأتِه من الدُّنيا إلَّا ما كُتِبَ لَهُ**». فمن كان فقرُه بين عينيه لم يَزَلْ خائفًا من الفقرِ، لا يستغني قلبُه بشيءٍ، ولا يشبَعُ من الدنيا؛ فإنَّ الغِنَى غِنَى القلب، والفقرَ فقرُ النفسِ.

---

(١) أحمد (١٧٣٠٩).
(٢) البخاري (٥٦)؛ ومسلم (١٦٢٨).
(٣) مسلم (٢٧٢٢).

وقد ضرب الله تعالى في كتابه مثلَ الدنيا وخُضرتِها ونَضْرتِها وبهجَتِها وسُرعةِ تقلُّبِها وزوالها، وجعل مثلَها كمثلِ نباتِ الأرض النابتِ من مطرِ السماءِ في تقلُّبِ أحوالِه ومآلِه.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف:٤٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس:٢٤].

### التفكر في أحوال الدنيا يذكر بالآخرة:

كُلُّ ما في الدنيا فهو مذكِّر بالآخرة، ودليلٌ عليه؛ فنباتُ الأرض واخضِرارُها في الربيعِ بعدَ مُحُولها ويُبْسِها في الشتاءِ، وإيناعُ الأشجارِ واخضِرارُها بعد كونها خشبًا يابسًا يدُلُّ على بعثِ الموتى من الأرض، وقد ذكر الله تعالى ذلك في كتابه في مواضعَ كثيرةٍ، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج:٥-٧].

وفصولُ السنةِ تذكِّر بالآخرةِ؛ فشِدَّةُ حرِّ الصيفِ يذكِّر بحرِّ جهنمَ، وهو من سَمُومها[١]؛ وشدةُ بردِ الشتاءِ يذكِّر بزمهريرِ[٢] جهنَّم وهو من زمهريرِها، والخريفُ يكمُلُ فيه اجْتناءُ الثمراتِ التي تَبقى وتُدَّخَر في البيوتِ، فهو مُنَبِّهٌ على اجتناءِ ثمراتِ الأعمالِ في الآخرة. وأمَّا الرَّبيع فهو أطيبُ فصولِ السَّنة، وهو يذكِّر بنعيم الجنةِ وطيبِ عِيشها، فينبغي أن يحثَّ المؤمنَ على الاستعدادِ لطلبِ الجنَّةِ بالأعمالِ الصَّالحةِ.

■▣■▣■

(١) السموم: الحرُّ الشديد.

(٢) الزمهرير: شدة البرد.

## المجلسُ الثاني: في ذكر فصلِ الصيف

خرَّجا في (الصحيحين) من حديث أبي هريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ، قال: «**اشْتكتِ النَّارُ إلى رَبِّها، فقالت: يا رَبِّ أَكَلَ بَعضِي بَعْضًا، فأَذِنَ لها بنَفَسَيْن؛ نَفَسٍ في الشِّتاء، وَنَفَسٍ في الصيف، فأشَدُّ ما تجدون من الحَرِّ من سَمُوم جهنَّم، وأشَدُّ ما تجدونَ من البَرْدِ مِن زَمْهَرِير جهنَّم**»[1]. لا شكَّ أنَّ اللهَ تعالى خلق لعبادِه دارين يجزيهم فيهما بأعمالهم، مع البقاءِ في الدَّارين من غيرِ موتٍ؛ وخَلَقَ دارًا معجَّلةً للأعمالِ وجَعَلَ فيها موتًا وحياةً، وابتلَى عبادَه فيها بما أمرَهم به ونهاهم عنه، وكلَّفهم فيها الإيمان بالغيبِ؛ ومنه الإيمانُ بالجزاءِ والدَّارينِ المخلُوقتينِ له، وأنزل بذلك الكُتُبَ، وأرسَلَ به الرُّسُلَ، وأقامَ الأدِلَّةَ الواضِحَةَ على الغيبِ الذي أمر بالإيمان به، وأقام علاماتٍ وأماراتٍ تدُلُّ على وجودِ دارَي الجزاءِ؛ فإنَّ إحدى الدَّاريْن المخلوقتين للجزاءِ دارُ نَعيمٍ محضٍ لا يشُوبُه ألمٌ، والأخرى دارُ عذابٍ محضٍ لا يشُوبُه راحَةٌ.

### نعيمُ الدنيا يذكر بالجنة وآلامُها ومصائبُها تذكر بالنار:

وهذه الدار الفانية ممزوجةٌ بالنَّعيمِ والألمِ؛ فما فيها من النَّعيم يُذكِّرُ بنعيمِ الجنةِ، وما فيها من الألمِ يذكِّرُ بألم النارِ، وجَعَلَ الله تعالى في هذه الدارِ أشياءَ كثيرةً تُذكِّرُ بدارِ الغيبِ المؤجَّلةِ الباقيةِ.

**فمنها: ما يُذكِّر بالجنة.**

**ومنها: ما يُذكِّر بالنَّار.**

- تزوَّج صِلَةُ بنُ أشْيَم، فَدَخلَ الحَمَّامَ، ثم دخل على زوجته تلك الليلة، فقام يصلِّي حتى أصبحَ، وقال: دخلْتُ بالأمس بيتًا أذكرني النَّارَ، ودخلْتُ الليلةَ بيتًا ذكرْتُ به الجَنَّةَ، فلم يزل فكري فيهما حتى أصبحتُ.

- صَبَّ بعضُ الصالحين على رأسه ماءً من الحَمَّامِ فوجدَه شديدَ الحَرِّ، فَبَكَى، وقال: ذكرْتُ قولَه تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج:١٩].

**وأمَّا الأزمان فشدَّةُ الحَرِّ والبَرْدِ يذكِّر بما في جهنَّم من الحَرِّ والزمهرير، وقد دَلَّ**

---

(١) البخاري (٣٢٦٠)؛ ومسلم (٦١٧).

هذا الحديثُ الصحيح على أنَّ ذلك من تنفسِ النارِ في ذلك الوقتِ.

وفي الحديث الصحيح أيضًا عن النبي ﷺ، قال: «**إذا اشْتَدَّ الحَرُّ فأبْرِدوا بالصَّلاة، فإنَّ شِدَّة الحَرِّ من فَيْح جَهَنَّمَ**»[١].

أبوابُ النارِ مغلقةٌ، وتُفتحُ أحيانًا؛ فتفتحُ أبوابُها كلُّها عند الظهيرةِ، فلذلك يشتدُّ الحَرُّ حينئذٍ فيكونُ في ذلك تذكرةٌ بنارِ جهنَّم.

وأمَّا الأجسامُ المشاهَدةُ في الدنيا المذكِّرةُ بالنَّارِ فكثيرةٌ.

منها: **الشمسُ عند اشتداد حَرِّها**، وقد رُوي أنَّها خُلِقت من النَّار وتعودُ إليها.

ومِمَّا يُؤمَر بالصَّبر فيه على حَرِّ الشمس النفيرُ للجهاد في الصيفِ، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:٨١]. وكذلك المشيُ إلى المساجدِ للجُمَعِ والجماعاتِ، وشهودُ الجنائز ونحوِها من الطاعاتِ، والجلوسُ في الشمس لانتظارِ ذلك، حيث لا يوجدُ ظِلٌّ.

**ومِمَّا يُضَاعَفُ ثوابُه في شدَّة الحَرِّ من الطَّاعاتِ الصِّيامُ**؛ لما فيه من ظمأ الهواجِرِ؛ ولهذا كان معاذُ بنُ جَبَلٍ يتأسف عند موته على ما يفوتُه من ظمأِ الهواجرِ، وكذلك غيرُه من السَّلفِ. ورُوي عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه أنه كان يصومُ في الصّيف ويُفطر في الشتاءِ.

كان ابنُ عمر يصومُ تطوُّعًا فيُغشى عليه فلا يُفطِرُ.

وفي (الصحيحين) عن أبي الدَّرداءِ رضي الله عنه، قال: **لقد رأيتُنا مع رسولِ اللهِ ﷺ في بعضِ أسفارِه في اليوم الحارِّ الشديدِ الحَرِّ، وإنَّ الرجُلَ ليضَعُ يدَهُ على رأسَه من شِدَّةِ الحَرِّ، وما في القومِ أحدٌ صائمٌ إلَّا رسول الله ﷺ وعبدُ اللهُ بن رواحة**[٢].

لَمَّا صبَرَ الصَّائمون لله في الحَرِّ على شدَّةِ العطشِ والظمأِ، أفرَدَ لهم بابًا من أبواب الجَنَّة، وهو بابُ الريَّانِ؛ من دخله شرِب، ومن شرِب لم يظمأْ بعدَها أبدًا، فإذا دخلوا أُغلِق على مَن بعدَهم فلا يدخلُ منه غيرُهم.

---

(١) البخاري (٥٣٧)؛ ومسلم (٦١٥).

(٢) البخاري (١٩٤٥)؛ ومسلم (١١٢).

وقد تحدُثُ أحيانًا حوادثُ غيرُ مُعتادةٍ تُذكِّرُ بالنَّارِ، كالصَّواعقِ، والرِّيحِ الحارَّةِ المحرقةِ للزرعِ، قال الله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد:١٣].

**وممَّا يدُلُّ أيضًا في الدنيا على وجودِ النَّار ويذكِّر بها:** الحُمَّى التي تُصيبُ بني آدم، وهي نارٌ باطنةٌ، وقد روي في حديثٍ خرَّجه الإمام أحمد وابنُ ماجه أنَّها «**حظُّ المؤمن من النار**»[١].

والمراد أنَّ الحُمَّى تكفِّر ذُنُوبَ المؤمنِ وتنقِّيه منها، كما يُنقي الكيرُ خَبَثَ الحديدِ.

وإذا طُهِّرَ المؤمنُ من ذنوبه في الدنيا، لم يجِدْ حَرَّ النَّار إذا مرَّ عليها يومَ القيامةِ؛ لأنَّ وجدانَ الناسِ لحرِّها عندَ المرورِ عليها بحسبِ ذنوبهم؛ فمن طُهِّرَ من الذُّنوبِ ونُقِّي منها في الدنيا، جازَ على الصِّراطِ كالبَرْقِ الخاطِفِ والرِّيحِ، ولم يجِدْ شيئًا من حَرِّ النارِ، ولم يُحسّ بها.

**ومن أعظم ما يُذكِّر بنار جهنَّم: النَّارُ التي في الدنيا،** قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة:٧٣]، يعني أنَّ نار الدنيا جعلَها الله تذكرةً تذكِّر بنارِ الآخرةِ.

مَرَّ ابنُ مسعودٍ بالحدَّادين وقد أخرَجُوا حديدًا من النار، فوقف ينظر إليه ويبكي.

كان الأحنفُ بن قيسٍ يجيء إلى المصباحِ فيضَعُ أُصْبعَه فيه، ويقول: حَسِّ، ثم يُعاتبُ نفسَه على ذنوبِه.

▪▣▪▣▪

## المجلس الثالث: في ذكر فصل الشتاء

خرَّج الإمامُ أحمد من حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**الشتاءُ رَبيعُ المؤمنُ**»[٢].

إنَّما كان الشتاءُ ربيعَ المؤمنِ لأنَّه يرتَعُ فيه في بساتينِ الطاعاتِ، ويسرَحُ في ميادينِ العباداتِ، وينزِّهُ قلبَه في رياضِ الأعمالِ الميسَّرةِ فيه، كما ترتَعُ البهائمُ في مَرْعَى الرَّبيعِ،

---

(١) أحمد (٩٣٨٤)، وابن ماجه (٣٤٧٠).

(٢) أحمد (١١٣١٩).

فتسمَنُ وتَصْلُحُ أجسادُها، فكذلك يصلُح دينُ المؤمنِ في الشتاءِ بما يسَّر اللهُ فيه من الطاعاتِ؛ فإنَّ المؤمن يقدِرُ في الشتاءِ على صيام نهارِه من غيرِ مشقَّةٍ ولا كُلفةٍ تحصُلُ له؛ من جوعٍ ولا عَطَشٍ؛ فإنَّ نهاره قصيرٌ باردٌ، فلا يُحِسُّ فيه بمشقَّةِ الصِّيام.

وكان أبو هريرةَ ﷺ، يقول: ألا أدُلُّكم على الغنيمةِ الباردةِ؟ قالوا: بلى، فيقول: الصِّيامُ في الشتاءِ. ومعنى كونها غنيمةً باردةً أنَّها غنيمةٌ حَصَلَتْ بغيرِ قتالٍ ولا تعَبٍ ولا مشقَّةٍ، فصاحبُها يحوزُ هذه الغنيمةَ عفوًا صفوًا بغير كُلْفةٍ.

**وأمَّا قيامُ ليلِ الشتاء**، فلطولِه يمكن أن تأخُذَ النفسُ حظَّها من النوم، ثم تقومُ بعد ذلك إلى الصلاةِ، فيقرأ المصلِّي وِرْدَه كلَّه من القرآنِ وقد أخذت نفسُه حظَّها من النومِ، فيجتمعُ له فيه نومُه المحتاجُ إليه مع إدراكِ وِرْدِهِ من القرآنِ، فيكمُل له مصلحةُ دينِه وراحةُ بدنِه.

ومن كلام **يحيى بن معاذ**: الليلُ طويلٌ فلا تقصِّرْه بمنامِك، والإسلامُ نَقِيٌّ فلا تدنِّسْه بآثامِك. بخلافِ ليلِ الصيفِ؛ فإنه لقِصَرِه وحَرِّه يغلبُ النومُ فيه فلا تكادُ تأخذُ النفسُ حظَّها بدونِ نومِه كلِّه، فيحتاجُ القيامُ فيه إلى مجاهدةٍ، وقد لا يتمكَّن فيه لقِصَرِه من الفراغِ من وِرْدِهِ من القرآنِ.

القيامُ في ليل الشتاء يشقُّ على النفوسِ من وجهين:

**أحدُهما: من جهةِ تألُّمِ النفسِ بالقيامِ من الفراشِ في شدَّةِ البردِ.**

**والثاني: بما يحصُلُ بإسباغِ الوضوءِ في شدَّةِ البَرْدِ من التألُّم**، وإسباغُ الوضوءِ في شدَّة البَرْدِ من أفضَلِ الأعمالِ. وفي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**ألا أَدُلُّكُم على ما يمحُو الله به الخطايا ويرفَعُ به الدَّرجات؟** قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: **إسباغُ الوُضوءِ على المكارِهِ، وكثرةُ الخُطَا إلى المساجِدِ، وانتظارُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاة، فذلكم الرِّباطُ، فذلكم الرِّباط**»[1].

كان عطاء الخراساني ينادِي أصحابَه بالليل: يا فلان، ويا فلان، ويا فلان! قوموا فتوضَّؤوا وصلُّوا؛ فقيامُ هذا الليلِ، وصيامُ هذا النهارِ أهوَنُ مِن شُربِ الصَّديد ومقطَّعاتِ الحديد غدًا في النار، الوَحَا الوَحَا، النَّجاءَ النجاءَ!

---

(١) مسلم (٢٥١).

**وفي الحديث الصحيح** أنَّ ابن عمر رأى في منامه كأنَّ آتيًا أتاهُ فانطلَقَ به إلى النار حتى رآها، ورأى فيها رجالًا يعرفهم معلَّقين بالسلاسلِ، فأتاه مَلَكٌ، فقال له: لم تُرَع، لستَ من أهلِها. فقصَّ ذلك على أختِه حفصةَ، فقصَّته حفصةُ على رسولِ الله ﷺ، فقال: «**نِعْمَ الرجلُ عبدُ الله لو كان يُصلِّي من الليل**»[1]. فكان ابنُ عمر بعد ذلك لا ينام من الليل إلَّا قليلًا. قال الحسن: أفضَلُ العبادة الصَّلاةُ في جَوْفِ الليلِ. وقال: هو أقربُ ما يُتَقَرَّبُ به إلى اللهِ ﷻ. وقال: ما وجدْتُ في العبادةِ أشدَّ منها.

**وأمَّا من يجدُ البَرْدَ، وهم عامةُ الخلقِ**، فإنَّه يُشرَعُ لهم دفعُ أذاهُ بما يدفَعُهُ مِن لباسٍ وغيرِه. وقد امتَنَّ الله على عباده بأن خَلَقَ لهم من أصوافِ بهيمةِ الأنعام وأوبارِها وأشعارِها ما فيه دِفْءٌ لهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:٥].

**ومِن فضائل الشتاء**: أنَّهُ يذكِّر بزمهريرِ جهنَّم، ويوجبُ الاستعاذَة منها.

في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ، قال: «**إنَّ لجهنَّم نفَسَين؛ نَفَسًا في الشتاء، ونَفَسًا في الصيف، فأشَدَّ ما تجدون من البرْدِ من زَمهريرها، وأشَدَّ ما تجدون مِنَ الحَرِّ من سَمُومها**»[2].

وروي عن ابن عباسٍ، قال: يستغيثُ أهلُ النارِ من الحَرِّ فيُغاثون بريحٍ باردةٍ يُصَدِّعُ العِظَامَ بَرْدُها، فيسألون الحَرَّ.

وعن كعْبٍ، قال: إنَّ في جهنَّم بردًا هو الزَّمهرير، يُسقِطُ اللحمَ حتى يستغيثوا بِحَرِّ جهنَّم.

▪▣▪▣▪

(١) البخاري (٣٧٣٩)؛ ومسلم (٢٤٧٩).
(٢) البخاري (٣٢٦٠)؛ ومسلم (٦١٧).

## مجلس:
## في ذكر التوبة والحثِّ عليها قبلَ الموتِ وختم العمر بها
## والتوبةُ وظيفةُ العمر وهي خاتمةُ مجالسِ الكتاب

خرَّج الإمامُ أحمد والترمذيُّ وابنُ حِبان في (صحيحه) من حديثِ ابن عمر عن النبي ﷺ، قال: «**إنَّ اللهَ ﷻ يقبلُ تَوْبَةَ العبْدِ ما لم يُغَرْغِر**»[1]. وقال الترمذي: حديثٌ حسنٌ. دَلَّ هذا الحديثُ على قبول تَوبةِ الله ﷻ لعبدِه ما دامَتْ روحُه في جَسَدِه لم تبلُغِ الحُلْقُومَ والتراقي. وقد دَلَّ القرآنُ على مثل ذلك أيضًا؛ قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٧]. وعَمَلُ السُّوء إذا أفرد دَخَلَ فيه جميعُ السَّيئاتِ؛ صغيرُها وكبيرُها.

### جهل أصحاب الذنوب والمعاصي:

والمرادُ بالجهالةِ الإقدامُ على عملِ السُّوءِ، وإن عَلِمَ صاحبُه أنَّه سُوْءٌ؛ فإنَّ كُلَّ مَن عَصَى اللهَ فهو جاهلٌ، وكُلَّ مَن أطاعَه فهو عالمٌ؛ وبيانُهُ من وجهين:

**أحدهما: أنَّ من كان عالمًا بالله تعالى وعظمتِه وكبريائِه وجلالِه فإنَّه يَهابُه ويخشاهُ؛** فلا يقَعُ منه مع استحضارِ ذلك عصيانُه، كما قال بعضهم: لو تفكَّر النَّاسَ في عظمةِ اللهِ تعالى ما عَصَوْه. وقال آخر: كَفَى بخشيةِ اللهِ علمًا، وكَفَى بالاغترارِ بالله جهلًا.

**والثاني: أنَّ مَن آثر المعصيةَ على الطَّاعة فإنَّما حَمَلَه على ذلك جهلُه وظنُّه أنَّها تنفَعُه** عاجلًا باستعجالِ لذَّتِها، وإن كان عندَهُ إيمانٌ فهو يرجو التخلُّصَ من سوءِ عاقبتِها بالتوبةِ في آخرِ عمرِه؛ وهذا جَهْلٌ محْضٌ؛ فإنَّه يتعجَّلُ الإثمَ والخِزيَ، ويفوتُه عِزُّ التقوى وثوابُها ولَذَّةُ الطاعةِ، وقد يتمكَّن من التوبةِ بعد ذلك، وقد يعاجله الموتُ بغتةً، فهو كجائعٍ أَكَلَ طعامًا مسمومًا لدفع جوعِه الحاضرِ، ورجا أن يتخلَّصَ من ضررِه بشُرْبِ الدِّرياقِ[2] بعدَه. وهذا لا يفعلُه إلَّا جاهلٌ.

---

(١) أحمد (٦١٢٥)؛ والترمذي (٣٥٣٧).

(٢) الدرياق: الترياق، وهو ما يمنع امتصاص السمّ من المعدة أو الأمعاء.

وقوله ﷻ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٨]، فسَوَّى بين مَن تاب عند الموت ومن مات من غيرِ توبةٍ. والمرادُ بالتوبةِ عندَ الموتِ التوبةُ عند انكشافِ الغِطاءِ، ومعاينةِ المحتضرِ أمورَ الآخرةِ، ومشاهدةِ الملائكةِ؛ فإنَّ الإيمانَ والتوبةَ وسائرَ الأعمالِ إنَّما تنفعُ بالغيبِ، فإذا كُشِفَ الغِطاءُ وصار الغيبُ شهادةً، لم ينفَعِ الإيمانُ ولا التوبةُ في تلك الحال.

**ندم أهل التسويف:**

واعلم أنَّ الإنسان ما دام يؤمِّلُ الحياةَ فإنَّه لا يقطَعُ أملَه من الدنيا، وقد لا تسمحُ نفسُه بالإقلاع عن لَذَّاتِها وشهواتِها من المعاصي وغيرِها، ويُرجِّيه الشيطانُ التوبةَ في آخرِ عُمُرِه، فإذا تيقَّنَ الموتَ، وأيسَ مِن الحياةِ، أفاقَ من سكرتِه بشهواتِ الدنيا، فندِم حينئذٍ على تفريطِه ندامةً يكادُ يقتلُ نفسَه، وطلبَ الرجعةَ على الدنيا ليتوبَ ويعمَلَ صالحًا، فلا يجابُ إلى شيءٍ من ذلك، فيجتمعُ عليه سكرةُ الموتِ مع حَسْرةِ الفَوْتِ.

وقد حذَّر اللهُ تعالى عِبادَهُ من ذلك في كتابِه؛ ليستعدُّوا للموتِ قبلَ نزولِه، بالتوبة والعملِ الصالح؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ﴾ [الزمر:٥٤-٥٦].

سُمِعَ بعضُ المُحتَضَرينَ عند احتضارِه يلطِمُ على وجهِه، ويقول: ﴿يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، وقال آخر عند احتضارِه: سَخِرَتْ بي الدنيا حتى ذَهبَتْ أيامي. وقال آخرُ عند موتِه: لا تغرنَّكُم الحياةُ الدنيا كما غرَّتني. وقال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]. وقال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠-١١]. وقال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ:٥٤]، وفسَّره طائفةٌ من السَّلفِ؛ منهم عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمه الله، بأنَّهم

طلبوا التوبةَ حين حِيلَ بينهم وبينها. قال الحسن: اتقِ الله يا ابنَ آدمَ، لا يجتمعُ عليك خَصْلتانِ؛ سكْرةُ الموت، وحَسْرَةُ الفَوْتِ.

**الناس في التَّوبة على أقسامٍ:**

**فمنهم**: من لا يوفَّقُ لتوبةٍ نَصُوحٍ، بل ييسَّر لَهُ عملُ السِّيِّئاتِ من أوَّلِ عُمُرِهِ إلى آخرِه حتى يموتَ مُصِرًّا عليها، وهذه حالةُ الأشقياءِ. وأقبَحُ من ذلك من يُيَسَّرُ له في أول عمرِه عملُ الطاعاتِ، ثم خُتِمَ له بعملٍ سَيئٍ حتى مات عليه، كما في الحديثِ الصحيحِ[1]: «**إن أحدَكم ليعملُ بعملِ أهلِ الجنةِ، حتى ما يكونُ بينَهُ وبينَها إلَّا ذراعٌ، فيسبِقُ عليه الكتابُ، فيعمَلُ بعَمَلِ أهْلِ النَّارِ فيدخلُها**».

**قال بعضُهم: ما العجَبُ ممن هَلَكَ كيفَ هلك، إنَّما العجَبُ ممن نجا كيف نجا.**

**وقسمٌ: يفني عمره في الغَفْلَةِ والبَطالة، ثم يوفَّقُ لعملٍ صالحٍ فيموت عليه**، وهذه حالةُ من عَمِلَ بعمل أهلِ النَّارِ حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتابُ فيعمَلُ بعملِ أهلِ الجنة فيدخُلها.

**الأعمالُ بالخواتيم:**

وفي الحديث: «**إذا أرادَ اللهُ بعبْدٍ خَيْرًا عَسَلَه**، قالوا: وما عَسْلُه؟ قال: **يوفِّقه لِعَمَلٍ صالحٍ ثم يقبِضُهُ عليه**»[2].

وهؤلاء منهم من يوقَظُ قبل موته بمدَّةٍ يتمكَّن فيها من التزوُّدِ بعملٍ صالحٍ يختِمُ به عمرَه. ومنهم من يُوقَظُ عندَ حضورِ الموتِ فيُوفَّقُ لتوبةٍ نصوحٍ يموتُ عليها.

**وبقي هاهنا قسمٌ آخرُ، وهو أشرفُ الأقسام وأرفعُها، وهو من يفني عمرَه في الطاعةِ، ثمَّ يُنبَّه على قرْب الأجلِ، لِيَجِدَّ في التزوُّد ويتهيَّأ للرحيلِ بعملٍ يصلُحُ لِلِّقاءِ، ويكونُ خاتمةً للعملِ.** قال ابنُ عباس: لما نزلت على النبي ﷺ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر:١] نُعِيتْ لرسول الله ﷺ نفسُه، فأخذ في أشدِّ ما كان اجتهادًا في أمرِ الآخرة.

---

(١) البخاري (٧٤٥٤)؛ ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) أحمد (١٧٣٣٠).

وكان من عادتِه ﷺ أن يعتكفَ في كُلِّ عامٍ في رمضان عشرًا، ويعرِضُ القرآنَ على جبريلَ مرَّةً، فاعتكَفَ في ذلك العام عشرين يومًا، وعرضَ القرآن مرَّتين، ثم حَجَّ حجةَ الوَدَاعِ، وقال للناس: «**خذوا عنِّي مناسِكَكَم، فلعلِّي لا ألقاكم بعدَ عامي هذا**»[1]. وطفِقَ يودِّعُ الناس، فقالوا: هذه حجَّةُ الوَدَاع. ثم رجع إلى المدينة فخطب قَبْلَ وصولِه إليها، وقال: «**أيُّها الناس! إنَّما أنا بشر، يُوشِكُ أن يأتيَني رسولُ رَبِّي فأجيبَ**»[2]. ثم أمَرَ بالتمسُّك بكتاب الله، ثم توفي بعدَ وصولِه إلى المدينةِ بيسيرٍ ﷺ.

إذا كان سيِّدُ المحسنين يُؤمَرُ أن يختِمَ عمرَه بالزِّيادةِ في الإحسانِ، فكيف يكون حالُ المسيءِ.

**تأهَّبْ للذي لا بُدَّ منهُ ... من الموتِ المُوَكَّلِ بالعِبادِ**
**أترضَى أن تكونَ رَفِيقَ قَوْمٍ ... لهُمْ زادٌ وأنتَ بغيرِ زادِ**

**خطورة تأخير التوبة:**

**قال لقمان لابنه:** يا بُنَيَّ! لا تؤخِّرُ التوبةَ؛ فإنَّ الموتَ يأتي بغتةً. وقال بعضُ الحكماءِ: لا تكن ممن يرجُو الآخرةَ بغيرِ عَمَلٍ، ويؤخِّرُ التوبَةَ لطولِ الأمَل.

**قال بعضُ السلَف:** أَصْبِحُوا تائبين، وأَمسُوا تائبين. يشير إلى أنَّ المؤمنَ لا ينبغي أن يُصبِحُ ويُمسِي إلَّا على تَوْبةٍ؛ فإنَّه لا يدري متى يَفْجَأُه الموتُ صباحًا أو مساءً. فمن أصبَحَ أو أمسَى على غير توبةٍ، فهو على خَطَرٍ؛ لأنَّه يُخشَى أن يلقَى اللهَ غيرَ تائبٍ، فيُحشَرَ في زُمرةِ الظالمين، قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات:١١].

تأخيرُ التوبةِ في حالِ الشبابِ قبيحٌ، ففي حالِ المشيبِ أقبَحُ وأقبَحُ.

فإن نزل المرضُ بالعبدِ فتأخيرُهُ للتوبة حينئذٍ أقبَحُ مِن كُلِّ قبيح؛ فإنَّ المرض نذيرُ الموت. وينبغي لمن عاد مريضًا أن يذكِّره التوبةَ والاستغفارَ، فلا أحسَنَ من ختامِ العملِ بالتوبةِ والاستغفارِ؛ فإنْ كان العملُ سيئًا كان كفَّارةً له، وإنْ كان حسنًا كانَ كالطابَعِ عليه. وفي حديث «**سيد الاستغفار**» المخرَّج في الصحيح أنَّ من قاله إذا أصبح وإذا

(١) أحمد (١٤٥٢٩)، وهو عند مسلم بنحوه (١٢٩٧).
(٢) مسلم (٢٤٠٨).

أمسَى، ثم مات من يومه أو ليلته، كان من أهل الجَنَّة[١]. ولْيُكْثِر في مرضِهِ من ذكرِ الله ﷻ، خصوصًا كلمةَ التوحيدِ؛ فإنَّه من كانت آخِرَ كلامِه دَخَلَ الجنةَ.

**حال السلف عند الاحتضار:**

كان السَّلفُ يرون أن من مات عقيبَ عملٍ صالحٍ كصيامِ رمضانَ، أو عقيبَ حجٍّ أو عمرةٍ، أنَّه يرجى له أن يدخلَ الجنَّة. وكانوا مع اجتهادِهم في الصحةِ في الأعمالِ الصالحةِ يجدّدونَ التوبةَ والاستغفارَ عند الموتِ، ويختِمُون أعمالَهم بالاستغفارِ وكلمةِ التوحيدِ.

**لما احتُضِرَ العلاءُ بن زيادٍ بكَى**، فقيل له: ما يُبكيكَ؟ قال: كنْتُ والله أُحِبُّ أن أستقبلَ الموتَ بتوبةٍ. قالوا: فافعل رحمكَ اللهُ. فدعا بِطَهُورٍ فتطهَّر، ثم دعا بثوبٍ له جديدٍ فلبسه، ثم استقبل القبلةَ، فأومأ برأسِه مرتين أو نحو ذلك، ثم اضطجع ومات.

**ولما احتُضِرَ عامرُ بنُ عبد الله بكَى**، وقال: لمثل هذا المصرعِ فليعملِ العاملون، اللهم! إنِّي أستغفركُ من تقصيري وتفريطي، وأتوبُ إليك من جميع ذنوبي، لا إله إلَّا الله. ثم لم يزل يردِّدُها حتى مات رحمه الله.

**وقال عمرو بنُ العاصِ رحمه الله عند موته**: اللهم! أمرتنا فعصَيْنا، ونهيتنا فركِبْنا، ولا يَسعُنا إلَّا عفوُك، لا إله إلَّا الله. ثم ردَّدها حتى مات.

**يا غافِلَ القَلْبِ عن ذِكْرِ المَنِيَّاتِ ... عمَّا قليلٍ سَتَثْوِي بينَ أَمْوَاتِ**
**فاذكُرْ محَلَّكَ مِن قَبْلِ الحُلُولِ بهِ ... وتُبْ إلى اللهِ مِنْ لهوٍ ولذَّاتِ**
**إنَّ الحِمَام لَهُ وَقْتٌ إلى أَجَلٍ ... فاذْكُرْ مَصَائِبَ أيَّامٍ وَسَاعَاتِ**
**لا تطمئِنَّ إلى الدُّنيا وَزِينتِها ... قَدْ حَانَ للموْتِ يا ذا اللُّبِّ أن ياتي**

مَنْ نزل به الشيبُ فهو بمنزلةِ الحامِلِ التي تمَّتْ شهورُ حَمْلِها، فما تنتظرُ إلَّا الولادةَ، كذلك صاحبُ الشيبِ لا ينتظرُ غيرَ الموتِ؛ فقبيحٌ منه الإصرارُ على الذنبِ، ولكنَّ توبةَ الشابِ أحسَنُ وأفضَلُ.

---

(١) البخاري (٦٣٠٦).

وفي بعضِ الآثارِ، يقول الله ﷻ: أيُّها الشابُّ، التاركُ شهوتَه، المبتذِلُ شبابَه لأجلي، أنتَ عندي كبعض ملائكتي. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنَّ الذين يشتهون المعاصي ولا يعملون بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:٣].

يا نداماي صَحَا القلب صَحَا ... فاطرُدُوا عنِّي الصِّبَا والمَرَحا
زَجَرَ الوعْظُ فؤادِي فارْعَوى ... وَأَفَاقَ القلْبُ منِّي وَصَحَا
بادِروا التَّوبَةَ مِن قَبْلِ الرَّدَى ... فمُنادِيهِ يُنادِينا الوَحَا

▪▣▪▣▪






# الفهرس

**الموضوع** **الصفحة**


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com




## صدر للمؤلف

- هدي محمد ﷺ في عباداته ومعاملاته وأخلاقه (١٠ لغات)
- المخالفات العقدية المتعلقة بالحج والعمرة

## مكتبة الأسرة 1

وتحتوي على 6 كتب:

1. مختصر رياض الصالحين
2. هدي محمد ﷺ
3. مختصر حادي الأرواح
4. مختصر عدة الصابرين
5. مختصر الداء والدواء
6. مختصر الفوائد

## مكتبة الأسرة 2

وتحتوي على 6 كتب:

1. مختصر الفصول في سيرة الرسول ﷺ
2. مختصر الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب
3. مختصر جامع العلوم والحكم
4. مختصر صيد الخاطر
5. مختصر لطائف المعارف
6. مختصر الكبائر

## مكتبة أسعد مجتمعك

وتحتوي على 6 كتب:

1. تعظيم الله جل جلاله
2. محمد رسول الله ﷺ
3. ٥٠ وسيلة لتسعد نفسك ومجتمعك
4. ٢٠ مهارة لطلاب المتوسط والثانوي
5. الدليل العملي للحوار البناء
6. مختصر طريق الهجرتين

مطابع الخشخاط الحديثة ت: 00966505229353

